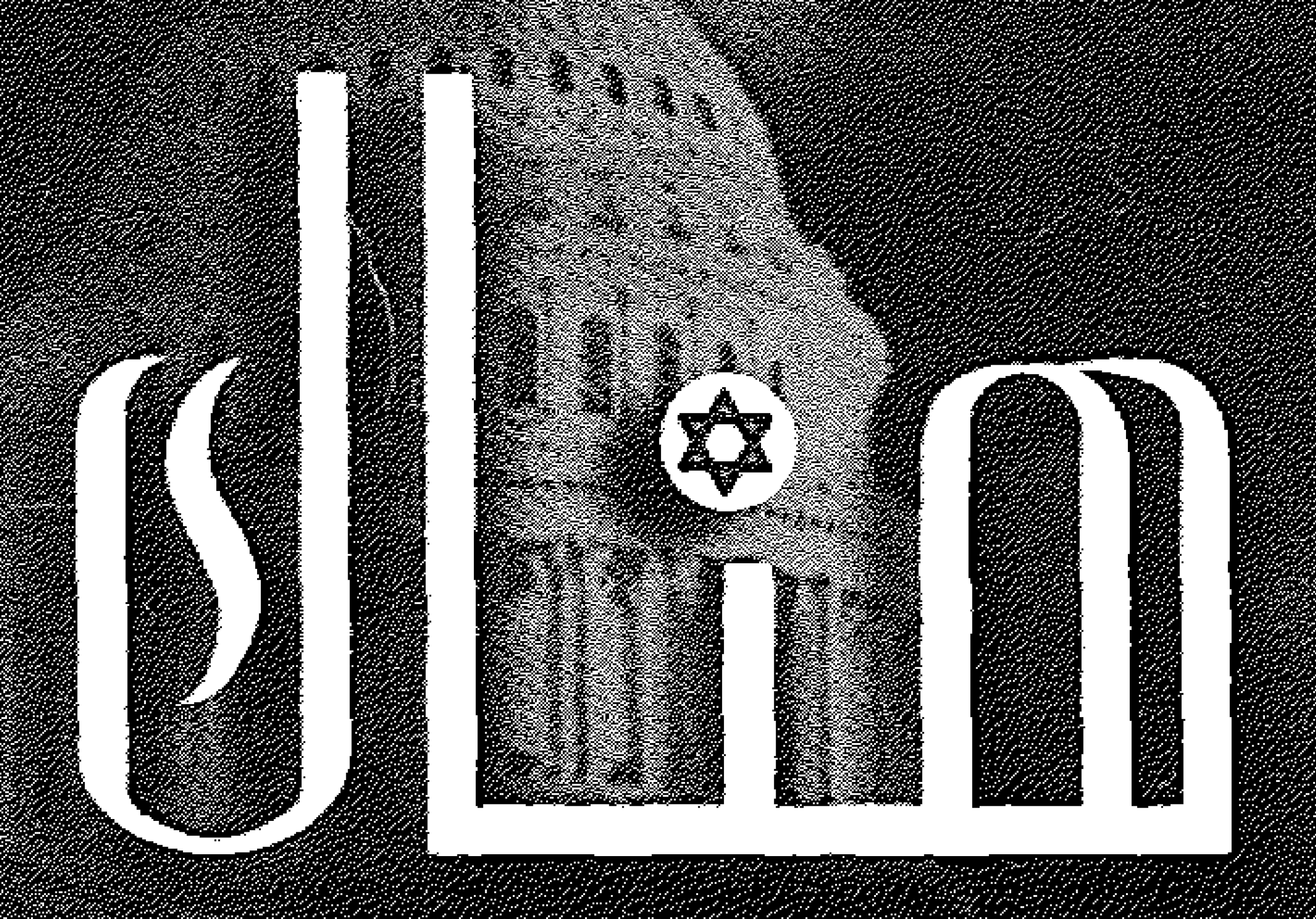
أنا هناك



د. محمد عبد الرسول

أنا هناك

د. محمد عبد الرسول
أستاذ متفرغ
كلية الطب - جامعة الإسكندرية

تجربة طبيب مصرى بمستشفى يهودى
فى أمريكا أثناء حرب العبور ١٩٧٣

مقـــــدمة

هذه الذكـريات ذات الأحداث الفـردية العابرة . . اعـتـقـدت أن فى تسجـيلها قنـاعة وطمئنينة لنفسى . . كمن يرجع إلى أهله بعد أن خاض شجاراً يقص عليهم أحداثه التى هزت كيانه لكى يحيطوه بالعطف والمواساة . . فأداء مهمتى كطبيب مصرى وسط جمع يهودى واسرائيلى من مرضى وعاملين ، تُؤَجج صدورهم بعداءٍ عنصرى فى أثناء حرب ٧٣ ، قد جعلنى أعيش حرباً من نوع آخر فرض علىّ خوضها . . بمفردى .

لقد كان حافزاً قوياً هذا الذى دفعنى إلى كتابة هذه السطور . . . فتلك الأحداث التى مرت بى قد تركت أثرها القوى فى نفسى . كيف لا أكتب ؟ . . وقد فقدت أحب الناس إلى قلبى شهيداً ، كيف لا أكتب ؟ . . وهذه القلاع الطائرة لاتكاد تغادر الأرض من عظم ثقلها ، تحمل الموت والدمار لأهلى وبنى وطنى ، من كل ولاية أمريكية ويكاد يزغرد مقدم التليفزيون فرحاً وشماتة ، كيف لا أكتب ؟ . . وأنا أشاهد القائد الامريكى يشرح ويخطط وسيلة اختراق القناة من الثغرة التى صَوَّرَتْها أقمارهم التجسسية ، كيف لا أكتب ؟ . . ووزير حربهم يقف بجانب رئيسة وزرائهم يشير بيده إلى الناحية الأخرى من القناة قائلاً "نحن ذاهبون إليهم لتكسير عظامهم" ، كيف لا أكتب ؟ . . واحداهن تشير بسبّابتها إلى صدرى قائله "أنت الذى وضعت القنبلة على سلم المستشفى الخلفى" .

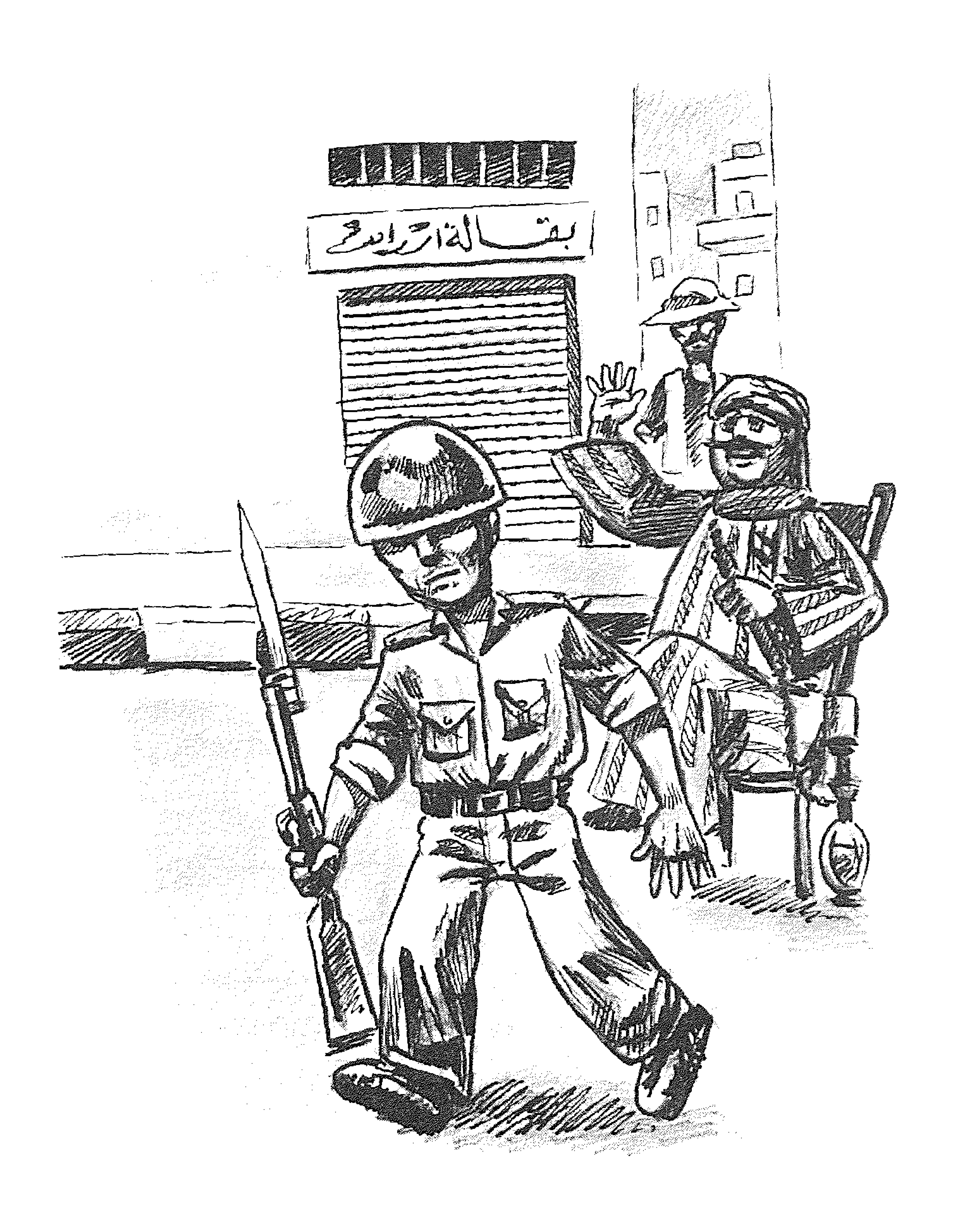
أخذت العهد على نفسى أن أسجل وقائع تلك الفترة من حياتى حتى وإن مضى عليها سنوات طوال ، واعتبرتها تجربة فريدة نادراً ما تطرق حياة القليل من الناس . فى سياق كتابتها صادفتنى وقائع تاريخية ، ومعتقدات إنسانية تتعلق بظروفها ، فآثرت الحديث عنها لأثرى مادتها ، ولكى لايطغى فرد بأحداثه على وقت القارىء .

المؤلـف

البـــداية ..

كان مظهرى يثير الابتسام الذى لايخلو من استخفاف واعتزاز أهل الحى وأنا ألبس الميرى الكاكى وأحمل البندقية الروسى النصف آلى ، وأمرق وسط جمهور حيّنا الشعبى... قصير القامة صغير الجسم يكاد كعب البندقية يصطدم بكعب حذائى ، ويعيقنى عن السير .. إتفضل يادكتور.. ربنا يأوّيكم يادكتور.. شياطين حمر إيه وبتاع إيه.. إحنا معانا ربنا .. ويستقبلنى أخوتى والجيران بالتهليل والاعجاب ونظرات الشفقة لاتكاد تداريها كلمات التشجيع من الكبار.. الجلوس على سلالم بيتنا الرطبة وقت العصر ، و قطع قماش الكستور القديمة لتنظيف البندقية من الشحم بالجاز يشحذ الهمة ، واستعراض جبخانة السلاح على الجالسين حولى يثير دوافع القوة والافتخار.. أربعة وعشرون طلقة فى طول الأصبع نحاسيّة بّراقة تثير الهلع والخوف ، وتحمل فى مقدمتها المدبّبة جرعة الموت.. كنت على أبواب العشرين من العمر بالصف الثانى بكليّة طب الإسكندريّة . جمعنا لواء الجامعة أثناء حرب الاعتداء الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ .. إيه يامصر.. لكم القى فى طريقك من قاذورات.. صفارة طويلة يطلقها ذلك الضابط الشاب قائد الكتيبة من عائلة أبو هيف بالإسكندرية.. كتيبةَ إجمع.

فى السابعة مساء يوم جمعة فى فناء كلية الهندسة ، عاصمة البلاد تقذفها الطائرات بالقنابل.. ياويلى.. ما هذه الدموع التى تنساب تداريها خيوط الليل الزاحفة بعد المغرب.. نحن ضعفاء واستبدت بنا قوى عدوانية شريرة لاترحم حتى نركع ولايجدون من يردعهم.. هؤلاء الضباع تنهش لحم الفريسة فى حمى الكبار أصحاب الأساطيل وحاملات الطائرات والقنابل الموجهة والكوماندوز أصحاب الباريهات الحمراء والسوداء.. أثارت شجون الحدث مشاعر الذكريات فى الطفولة المبكرة أثناء قذف الاسكندرية بطائرات المحور فى الحرب العالمية الثانية.. كان الاحتماء بالخنادق والمحلات الخالية التى بناها أبى على أرضه ليقيم مصنعه.. يالطيف.. يالطيف.. يالطيف.. دعاء الناس وسط أزيز الطائرات المخيف وصوت المدافع الهادر.. هذا مدفع السلسلة يهز المدينة ويرعد فى سمائها.. هذا مدفع سموحة.. وهذا مدفع سيدى بشر على البعد نسمعه .



إحنـا معانـا ربنـا ...

الكشافات تمشط السماء بحثاً عن الطائرات ، كان الناس أثناء فزعهم يتعرفون على الغارة ألمانية أو إيطالية من صوت طائراتها وارتفاعها وبعدها عن المساكن.. الألمان يقذفون الميناء وما حوله ، يطيرون على ارتفاعات منخفضة لإحكام الاصابة ، الإيطاليون قذفهم عشوائي فوق الاحياء السكنية يفرغون حمولاتهم من القنابل فى أى مكان ، لايميزون بين هدف أو مدرسة أو دار عبادة . بعد صفارة الأمان نخرج من الخنادق ويحمل أبى أطفاله على كتفيه وبين احضانه إلى محل عم سرور ليشترى لنا الهريسة قبل عودتنا إلى بيتنا ، كان عم سرور ومحله وهريسته من معالم الحى بعد الغارات يميّزه الدهان الأزرق على الزجاج وصينية الهريسة نصفها داخل المحل ونصفها الاخر خارجه..

مات "عبد الكريم" تحت أنقاض بيته بعد غارة شرسة.. هذا الرجل المخلص لأبى أتذكره جيّداً.. نحيل الجسم أسمر اللون ، شديد طول القامة إلى حد الانحناء.. خفيض الصوت كأن به علّة.. ملبسه لايتغيّر.. جاكته صفراء فوق قميص أزرق بالٍ.. وطربوش مزيّت فوق رأسه ، كان يحضر ليسلم طلبات الزبائن من الزهرة والصابون بين الحين والآخر ، دفن هو وأسرته تحت أنقاض سكنه بحى كوم الناضورة القريب من الميناء ، أبى يمرق بين الأنقاض يجرّنى بيده وتقاطيع وجهه متشنّجة ينهنه بصوت خفيض وأنا لا أنطق بحرف لكنى أُهرع لألحق بخطواته وجذب يده ليدى بين حجارة الأنقاض.

هُرع أهل الاسكندرية بعد غارة (الست ساعات) إلى الأرياف المجاورة للمدينة ومازلت أذكر يوم "الهجار" كما يسميه الناس . فى قطار بضائع يُجلسنى أبى فى آخر مقطوره فوق "سبت فراخ" أنظر من مؤخرة القطار إلى انسحاب الأرض من تحتى بعيداً فى طريقنا إلى "أبو حمص" حيث أرض أمى التى سبقتنا مع إخوتى....

إنتهى الأمر بخسارة مصر كلّ شيءٍ.. احتلال انجليزى جائر وضياع الاستقلال وتدمير البيوت فوق سكانها والمنشآت واستشهاد جنودنا على جبهة الصحراء الغربية فى العلمين وزرع أكثر من ثمانية وعشرين مليون لغم أرضى غرب الاسكندرية وحتى حدود ليبيا. كانت خسارة أسرتنا مباشرة بالإفلاس ، ذلك لإغراق السفن القادمة من أوروبا بغواصات المحور وهى تحمل إلينا الصودا الكاوية وأزرق الزهرة.

.... "البرتستو يابابا" كانت صرخة شقيقتى التى تكبرنى فى فزع أثناء نومها فيما تلا الحرب من ضرائب وحجوزات.. بلا تعويضات.. وبلا تقدير لبلد وشعبها قاست الأمرّين قبل وفى أثناء وبعد الحرب.

مازالت الألغام كما هى تحيل الصحراء المصرية غرب الاسكندرية إلى أرض بوار لأكثر من نصف قرن بعد إنتهاء الحرب، تعيق الحرث والزرع والإنماء والامتداد العمرانى غرب وجنوبى الاسكندرية، ذلك الثغر الجميل الذى ضاق شريطه الساحلى بساكنيه.. يالها من مهزلة تثير السخرية أن تسمع مايقوله هؤلاء الذين زرعوا الألغام، ويحجمون عن إزالتها بأحاجى سخيفة أو حتى بالمساعدة فيما أقترفوه من آثام على أرض الغير.

مازلت أتذكر تجمعاتهم بعد الحرب عند صالون حلاقة قريب من محطة قطار حَيّنا الشعبى، أعطانى أحدهم قرشاً رفضته، وكان هذا الحلاق يشّجعنى بابتسامة. كان الأهالى يصادقونهم فى الاسواق تزلّفاً لسرقة معسكرهم فوق جبل المواساه وكانوا يسمونها السلطة، لم يسلم بيت فى الحى من حملات التفتيش بحثاً عن البطاطين وأدوات المائدة والخمور، أتذكر عربدتهم حول دور السينما والكاباريهات والخمّارات بحى المنشية حين يصحبنا والدى لدخول السينما وشللهم داخل عربات الحنطور فى بلطجة وسُكر، زجاجات الخمر بأيديهم يلوّحون بها للغادين والرائحين على كورنيش الاسكندرية. أتذكر معسكراتهم وثكناتهم الحمراء اللون على جانب كوبرى قصر النيل حين اصطحبنى عمّى الذى يعمل بالقاهرة لقضاء أحدى الأجازات المدرسية..

هؤلاء هم جنود الامبراطورية التى غربت عنها الشمس، زرت بلادهم ولم أنبهر بهم ولا بأدبهم الذى يُحكى عنه ولم تستهونى دولتهم ولم أحبها ولا شعبهم البارد أو الساخن، ظهرت وضاعتهم فى فضائح كثيرة من خيانات زوجيّة داخل أسرتهم الملكيّة ودعارة جنسيّة بقانون بين الرجال وغيرها من الفضائح الكثيرة يحكى عنها العالم نراها فى أيامنا هذه بعد أن زالت عنهم عجرفتهم الاستعماريّة فكل أعمالهم خزى وخسة وما نراه الآن فى العراق من تجويع شعبها وحرمانه من الدواء أكبر دليل على ذلك وما نسمع

عنه من هرولتهم لجمع الجنيهات التى يلقى بها الكويتيون من سياراتهم فى شوارع عاصمتهم لندن يعبر عن أصل أجدادهم قراصنة البحار ، وإيوائهم كاتب كفر بالدين الإسلامى واستغلالهم ذلك فى نشر القصص بالكتب والصحف والمجلات ، يخصصون له راتباً ويشجعون مؤلفاته ، يحاربون بها ديناً أنزله الله - هذا مايدعونه مدنيةً وحضارةً ، بل وضاعة معلنة وتخلف فكرى حقيقى أن تعاير دولة كبرى دولة أخرى فى دينها عن طريق مارق عن هذا الدين يريد أن يفتخر بالانتماء إلى جنس غير جنس آبائه العظام فيتملقهم بالكذب والبهتان.. هذا هو سلمان رشدى أسود الشعر أسمر البشرة ابن القارة الهنديّة الذى يريد أن يصبح انجليزياً.. فليسأل روح غاندى ونهرو ومحمد على جناح فى ذلك.

إنهم فى مخيّلتى وكأنهم فى الأمس القريب ، العائدون من الفالوجا يطلون من القطارات فى محطة الاسكندرية ، مصابون وأصحاء يبتسمون من نوافذ القطار فى زيّهم العسكرى "الكاكى" فى سن شبابهم ، أيّامى بمدرسة سعيد الابتدائيّة بمحرم بك .

أفيق من ذكرياتى على صوت صفارة الانصراف استعداداً للسفر إلى جهة غير معلومة.. إلى أين؟.. إلى حيث يلقون بشياطينهم الحمر بالباراشوت لإحتلال أرضنا ثانيةً بعد أن طردناهم شر طردة.. إذاً إلى بورسعيد.. لا.. إن بورسعيد ضارية المقاومة يحميها أهلها ، إنهم يخططون لاحتلال الاسكندرية من جنوبها خلف ترعة المحمودية فهى مرفأ الوطن.. وماذا عن العاصمة.. أين الجيش؟.. فى سيناء.. ربما إلى أحدى محافظات دلتا مصر القريبة من شواطىء البلاد الشمالية حيث يتمركزون لغزو القاهرة.. لا.. إنهم يستهدفون قناة السويس... تمضى ساعة... حنعمل أية ياجماعه؟ احنا يدوبك نعرف ننظف البندقية.. يا أخى ولا يهمك.. العسكرى الانجليزى نازل بالباراشوت مايعرفش يتحّرك ، نصطادهم زى العصافير.. طب إفرض وصلوا الأرض.. نهجم عليهم واحنا كثرة ومعانا بنادق وسناكى ومعانا جمهور كبير.. فعلاً سنستطيع عمل شىء.. إحنا أصحاب حق وقلوبنا جامدة وكلنا شجاعة وعزم وحب لبلدنا.. بينا على الكانتين.. اليَمَك وصل.. الفاصوليا البيضاء بالحصى أو الحصى بالفاصوليا وقروانة العدس اللذيذ.

فى الصباح وعلى أسوار كلية الهندسة حضر أهلنا للإطمئنان علينا أو توديعنا.. (ابن... الدلوعة حَبيب ماما) أشقر مثلهم وعيونه زرقاء.. سحبه أهله من اللواء ورحل.. لم يرحل مكرم.. ولم يرحل سرى.. أقباط مصر الأوفياء.

نقضى الليالى معا على ضفاف ترعة المحمودية نحرس الكوبرى وننتظر عربة الباذنجان المقلى مع خيوط الفجر.. هناك دخنت أول سيجارة.. "تخميس".

أرسلوا فى طلبى وسلّمونى ستة جنيهات راتب شهر خدمة عسكرية.. كانت فرحتى بها كبيرة، لقد تقاضيت أول راتب فى حياتى.. وياله من راتب.. لقد صرت جندياً دافع عن الوطن وقت الشدة.. تلك العبارة "دافع عن الوطن" ذات رنين شجى.. كانت فرحتى أكبر عند تسلمى كارنيه الميرى وعليه صورتى بخوذة الرأس العسكرية..

هناك جمعتنا الفرحة الطاغية بأخبار انتصارنا المزعوم نحصى عدد طائرات العدو التى أسقطتها قوات دفاعنا الجوى ونهلل بتسلسلها العددى.. هناك فى التاسعة والنصف من صباح يوم أسود، الخامس من يونيو ٦٧ فى الحديقة الأمامية لمستشفى التأمين الصحى الكبير بالإسكندرية، قالها لنا بالأمس مدير المستشفى صاحب الحظوة الملكية قبل الثورة " ستهزمون باكراً شر هزيمة" رداً على حماسنا -نحن أطباء وممرضات المستشفى- وتحديه ورفضه تعليق ملصقات غلق مضايق تيران.. يهل علينا أحد أساتذتنا ويهدئ من فرحتنا.. هو على قرابة بأحد أهل الثقة فى المخابرات العسكرية.. "إهدئوا ياجماعة.. البلد ضاعت ودُمّر سلاحنا الجوى عن آخره.. ربنا يلطف بينا".. كدنا نعتدى عليه لولا الانتماء، وخَبَا حماسنا بالحسرة وصرنا نتلقف الأخبار من القائد العسكرى للمستشفى الخالية من المرضى فى انتظار جرحى الجبهة، وذُبلت البيانات الاذاعية العسكرية وتحقق تحدى ابن الباشا. خرجت ممرضات المستشفى فى تظاهرية حماسية دامعة، فائقة المشاعر خلال الطرقات تطالب الأطباء بالتضامن لطرد هذا المدير المتشمت ربيب الملكية والاستعمار. انتظرنا خط الدفاع الثانى الذى أوصلنا انتظاره إلى وصول العدو للشاطئ الشرقى لقناة السويس، فتياته يمرقن بالطائرات الخفيفة فوقها فى نزهة جّوية لتحطيم



٥٧ طيارة .. ٥٨ .. ٥٩ ....

المعنويّات وأُخريات على شواطئها فى حالة انسجام واستحمام مع الفتيان جنود الاعداء.. ربنا وسعت رحمتك كل شئ ،ارحم واعف عن أخطائنا القاتلة واستضعافنا وتواكُلنا وقلة حيلتنا وعجزنا ، ليس كل شئ من فعل الاستعمار.. كيف كان الرأى والحكمة والتخطيط السليم ثم الإستبسال فى كوريا وڤيتنام..؟

فى رحاب الرسول الكريم عليه صلوات الله وتسليمه وبجوار مقامه الشريف أَخُط أول سطور ذكرياتى مشحوناً بشجون نورانية.. اليوم على العشاء مع بعض أساتذتنا والزملاء جرّنا الحديث إلى ماجرى أثناء مهمتى العلميّة بأمريكا.. شجّعنى الجمع على الكتابة.. قبل آذان الفجر أسترق بعض الساعات من وقت اعداد أبحاثى للأستاذية، أتطلع من "بلكونة" حجرتى إلى قباب ومآذن الحرم النبوى المتلألئ نوراً عن يمينى وجبل أُحد على البُعد أمامى.. أدعوك يارب أن تتلطف بعبادك الضعفاء وأن تجعل من تجاربنا نبراساً نتلمس منه الصّواب.. نبتعد عن الخطأ.. كفانا أخطاء.. لقد طفح كيل الأخطاء.. كيف كان المسلمون الأوّلون..؟ كيف جاهدت القلة المؤمنة فى "بدر" وكيف تعلمت من خطئها فى "أُحد" ثم كانت جائزة ربهم وهم فى الخندق قلة ضعاف بالخوف وقلة الحيلة يحيطهم يهود المدينة من خلفهم وكفار قريش من أمامهم ثم كان نصر الله والفتح .

"..احنا فتحنا باب السفر" قالها وكيل الوزارة المعنيّة بسفر المبعوثين للخارج ، ردّدت فى نفسى الحمد لله.. لكن "الباب موارب شوية.." ردّدت فى نفسى.. يعنى إيه؟!. إلى متى سيظل باب البعثات موارباً بعد مضى خمس سنوات على حرب ٦٧. خرجت بخُفَّىْ حُنَيْن ، ساقتنى قدماى دون شعور خلال شوارع القاهرة المزدحمة إلى حى الحسين.. هذا الشهيد له عند المصريين دفء فى القلوب ، إذا بموكب عظيم من السيارات الفارهة يقف فى قلب الميدان ويترجل عن إحداها "شخصيّة" لها من النفوذ والسطوة السياسية الكثير واتجه الرَّكب إلى المطعم الشهير.. "كويّس.." وأنا من ورائهم. إنتشروا على موائد الطعام بصالة المطعم الكبيرة ، تواريت على مائدة منزوية أراقب الأحداث ، هذه فرصتى لعرض مشكلة سفرى والمروق من خلال باب السفر الموارب. رسمت فى مخيّلتى كيف أقترب.. لابد أن تكون الطريقة شرعيّة المظهر وإلا.. إقتربت من

الشخصيّة السياسية المبهرة من زاوية أحد ضباط البوليس . إعترضني فاقتربت منه هامساً باسمي وعملي وطلبي . . فكان أن صحبني إليه . . ملْتُ برأسي وحادثته . . قال مخاطباً أحد الشخصيّات ذات النفوذ الجالس معه على مائدة الطعام . . "إياه شوف الدكتور عايز إيه يا . . ." الذى حادث بدوره أحد الموجودين معه . . "يجيني بكره في مكتبي يا . ." وانتظرت الأخير لحظات . . "تجيني بكره في المكتب ان شاء الله . ." وضاع بكره وبعده في محاولة الوصول إلى مكتب فلان . . رجعت إلى الإسكندرية أضرب كفاً بكف . . هيّه الدولة عايزه ولا مش عايزه . . ؟ والباب مفتوح ولاّ مغلق . . ؟ ويعني إيه موارب . . ؟ وهل هناك سياسة موضوعة أم اجتهادات وأمزجة . . ؟ ياسبحان الله . . ماذا سيكون بعد ذلك . . لأحد يدرى . . لقد استعنت بكل من أعرف لأصل إلى صاحب الباب الموارب ووقفت أمام هذا الباب أنظر من خلاله إلى مستقبلي ومعي مسوغات الدلوف منه . . لكن هناك شيئاً يقف دائماً حائلاً . . وهذا الشئ ليس بشئ مادى له قوام لكنه تيار أهواء يدفعك بعيداً ، يلفك بالوهم والتيه . . . عليه العوض في البعثة فلن تنتظرني وعليَّ انتظار المجهول إلى ماشاء الله . لكن الذى أخرجنا من هذه الضائقة يعود إلى القاهرة إذ كان سفيراً لمصر في بلاد نائيه ، ويُعيَن وزيراً للخارجية في نفس يوم عودتي للإسكندرية وأتلقى هاتفاً من زميلي بحصوله من الوزير الجديد على الموافقة بالسفر . . ويد الله فوق الجميع ، ذلك هو مراد غالب الذى كان من الوطنية والتمرد على اليأس في تاريخه البطولي حتى حاول الإفلات من قبضة المستعمرين بطائرة أثناء الحرب العالميّة الثانية .

كنا قد اعددنا أنفسنا لهذا اليوم فكان سفرنا إلى بيروت قبلها بعدة أشهر لأداء امتحان المعادلة . . عشرة أيام بين شارع الحمرا وميدان البرج ، بين جنين بالتلفريك وحصبيا ، بين الجبل والوادى وبيروت ، بين عليا وبحمدون ، وأعلى الجبل بين الأَرز والتفاح والصقيع ، في البيوت الدافئة بمدافئها التقليدية ذات المداخن ، بين الناس المضيافين وأناقة السيدات ، بين الغناء الشجى بصوت فيروز ورقصة الدبكة اللبنانية المبهجة ننعم بانتعاش الجو وصفائه . . ما أحلاك يالبنان . . أجواء بلادنا وكرم اهلها ومعدنهم النقى ليس له مثيل في بلاد العالم التى شاهدتها بعد ذلك .

السفر..

فى السـابع والعـشـرين من يونيـو ٧٢ كـانت الرحلة الكبيـرة إلى الولايات المتحـدة الأمـريكيّـة تصحبنى زوجتى وابنتى ذات الثلاث سنوات، اعـتَـرَت مغادرة بيتنا مـشكلة إنسانيّة إذ اصيبت مربيـة ابنتى بحالة إغـماء حزناً على الفراق ولـم نعـرف كيف التـصرف وهى بغير أهل ولا مال.. لكن الرجولة مواقف والصـداقة مسـاعـدة وتواجد فى الشـدائد ، استبقاها صديق لنا فى بيته وكفّ عنّا قلق تركها فى الشارع بلا مأوى ، بارك الله له.

فى الطائرة تعرضت لموقف مهنى اذ أُصِيبت إحدى الراكبات بضيق تنفسى شديد كـاد يودى بحياتهـا ، تعاونت أنا وطبيب من اسرائيل فى علاجها وإفاقتها واستبقائها بنيـويورك لحين شـفـائهـا على أن تكمل رحلتـهـا بـعـد ذلـك. كـانت مـحطـة وصولنا هى نيـويورك بعد مغادرتنا بروكسل ومنها إلى رود أيلاند حيث استقبلنا فى المطار صديقى الدكتور على طرابيه الذى سأخلفه فى العمل والذى أتاح لى فرصة الحضور وكانت ثلاثة أيام معه قبل عودته وأسرته إلى الإسكندرية.

إستُقْبِلتُ بالمستشفى فى حفل متواضع بمعمل التجارب ، ناقشنا فى أثنائه مع الأستاذ الامريكى اليهودى "مايرون ستين" كبير أطبائها ماسيلى من نشـاطات ، صاحبتنا فى حفل الاستقبال طبيبه من إسرائيل ، ستكون زميلتى طوال مدة بعثتى ، هى مكسيكية الأصل هاجـرت إلى اسـرائيل وتزوجـت من مـهندس فـرنسى الأصل وكـانت تواجـه مـشـاكل فى النسل فلم يعش لها أبناء . زميلتى هذه لم تكن طبيبة فقط بل ضـابطاً بالجيش الإسرائيلى كـذلك.. بدأت نـشـاطهـا السيـاسى فـور وصـولنا بمحاضـرة علنيّة عن إسـرائيل فى إحدى قـاعـات بلدة "بوتاكيـت" التى تقع بهـا المستـشـفى ، أُعلن عنهـا فى الجريدة المحليّـة وكـان يساعدها فى ترتيبات إلقائها الدكتور محمد خان الباكستـانىّ الأصل من أطباء القسم..! لهم طريقـة غـزو متغطرسة للمـجـتـمع الأمـريكى "وكأنى رايح اتغدى عند خالتى" مثل مـاشاهدت ، يجـدون التشـجـيع والترحيب من المسئولين ، لكننى سـمعـتـها من سكرتيـرتى اليهودية الأمريكية بعد سنوات لاحقة .. "أنا أكره هؤلاء الإسرائليين" .

إنكببت على العمل والبـحث لأثبت وجودى وتفوّقى فى مـجالى الذى لا أسـتطيع أن أباريها فى غيره وعملاً بـنصيحة أساتذتى ألا أنخرط فى مـسائل خارجة عما حضرت من

أجله اذ لايستطيع المجتمع الامريكي أن يعلن عن مكنون نفسه ضد دولة اسرائيل ، لكنني أشهد لأستاذي اليهودي مايرون ستين أنه حذف اسم زميلتي هذه من فصل الَفتُهُ للنشر في أحد المراجع الطبية الكبيرة واكتفى باسمينا لأنها لم تثبت مشاركتها الفعليّة كما قال لها أمامي.

مضت بنا الشهور ثلاثة عشر في رود أيلاند إختلطنا في أثنائها بالأمريكيين مخالطة اجتماعية محافظة.. لم يمنع ذلك من دعوتنا لبعض العاملين بالمستشفى إلى العشاء في بيتنا ، كانت الصديقة القريبة إلى قلوبنا "مورين كالاهان" فنيّة معمل الأبحاث عوناً كبيراً عندما تصاب زوجتي بهبوط معنوياتها اشتياقاً للأهل ، فكانت تدلنا على اماكن لقضاء أوقات مسلية ، واشتَركْتُ مع فريق المستشفى في لعبة "البولينج" وحصلنا على المركز الأول بين فرق المستشفيات ، كنت أحاول التهرب من المباريات لضعف مستواي في اللعبة لكنهم شجعوني بروح عالية مما دعاني إلى التدريب في أوقات فراغي ببعض أماكن اللعبة خارج مباريات الفريق حتى تدرج مستوى فريقنا إلى البطولة ، كنت الطبيب الوحيد في الفريق والباقون من الممرضات وموظفي وعمال المستشفى فأولوني اعتزازاً كبيراً.. دعاني بعض الأطباء والفنيين لزيارة منازلهم ومنهم الدكتور الباكستانيّ محمد خان الذي كنت أشعر نحوه بجفاء لما قام به من مساعدة زميلتي الإسرائيلية في محاضرتها العامة عن إسرائيل ، لذلك لم تتوطّد بيني وبينه علاقة صداقة رغم محاولاته تذكرتي ببعض العادات الشعبيّة الاسلاميّة مثل استغفار الله عند مصادفة لقمة عيش ووضعها على جانب الطريق بعد تقبيلها ، ومحاولته الترفيه عني وقت الضيق بتشجيعه لشرائي "موتوسيكل" والانطلاق به لامتصاص شعور الكآبة ، ودعوتي للعشاء بمنزله حيث يقدمون أرزاً بقطع القرفة لذيذ المذاق .

چيم ڤاليسنتي طبيب أمريكي من هيئة تدريس القسم كان أقربهم إلى قلبي لشخصيته المتزنة وأخلاقه الدمثة ومعاملتي بالاحترام والتشجيع وإبداء النصيحة ، من ذلك أني سألته عن كيفية التصرف في الحفلات وأنا مسلم لاأشرب ، فنصحني بأن أحمل كأسا مليئة طوال الحفل دون أن أشرب منها – قدس الله روحه إذ توفي في سن مبكرة بعد

رحيلنا إلى كاليفورنيا بشهور قليلة ، كذلك كان هناك طبيبان يابانيّان مبعوثان على وشك العودة إلى وطنهما لم أر منهما إلا الانحنائة اليابانيّة المهذبة والابتسامة الدائمة وقد دعواني لزيارتهما باليابان.

كان الرجل الكبير د. ستَين متحفظاً في الاختلاط ، يقضي أغلب أوقاته بمكتبه وبعضها في الاجتماعات العلمية وقليلها في مقابلاتنا ، تجلس على مكتب سكرتاريته سيدة متوترة دائماً.. إسمها صوفَيا ، التهدج لايفارق صوتها ولاتفارق الرعشة يديها مع جحوظ في عينيّها ، يتعرف على هذه العلامات أى طبيب بأنها نشاط زائد بالغدّة الدرقيّة ومازلت استرجع هل كان لغياب زوجها -مهندس البترول بفنزويلا- أثر في ذلك التركيب المعقّد..؟! ، استولت على صداقتها زميلتي كلارا ولم أشعر بضرورة المنافسة في ذلك وأثبتت الأيام صدق حدسي فقد عَهِدْتُ في أصحاب المراكز مثل ستَين عدم الأصغاء إلى من دونهم .

أما الشخصيّة البّراقة التى أستبقيها فهي شخصيّة رالف ريدنج رئيس القسم، وصاحب ذلك البنيان الرجولي القوى والصوت الرخيم الواثق والعزيمة الماضية على الرغم من ذراعه اليسرى المبتورةَ من الكتف بسبب ورم خبيث.. كان مسيحياً كنديّ الأصلِ أمريكيّ الجنسيةِ صارمِ التعليماتِ.. علّمني الكثير وكانت مواقفه تتسم بالرجولة واستقلالية التفكير على الرغم من معارضة ستين لهذه المواقف في قيامى ببعض الأعمال مبكراً عن جدول تعليمي التى يَكلها إليّ ريدنج ، ولعلي أسترجع ذلك لأقدّم للحدث الذى أشعرني بسطوة المجتمع اليهودي بأمريكا.. كانت ابنة ريدنج صديقة لابنة ستين تصحبها الأخيرة إلى الصلوات اليهوديّة بالمعبد وعرفنا من أحاديث ريدنج أنه تفاهم مع زوجته في تصرف ابنته غير المستساغ من مسيحيّة.. وهنا كانت الطامة الكبرى اذ سَرَت في انحاء المستشفى أن ستين يتهم ريدنج بمعاداة الساميّة.. هكذا وكيف انتهى الأمر بريدنج بعد مغادرتنا رود أيلاند إلى عدم قبوله بأى مركز طبى بارجاء الولايات المتحدة الأربعة في أى عمل، ثم حضوره إلى كاليفورنيا لتتوسط زوجة ستين لدى زوجها وإلا اضطُر ريدنج للعودة إلى كندا.. هكذا كانت السيطرة محكمةً وكاملةً ، ومن الطرائف أن أحد زملاء دفعتي من

الإسكندرية كان يعمل بأحدى مستشفيات الولاية إسمها مستشفى ماريام وقوله "كنت أحسبها مستشفى مسيحى عشان اسمها ماريام.." فالمؤسسات ظاهرها أمريكى وباطنها يهودى.

كان سكننا فى ڤيللات خشبية من طابقين استأجرتها المستشفى للأطباء عن قرب منها ، وكانت أسر الهنود ومنهم "ڤردان" و"بال" من أكبر سلوانا ، كنت أقوم بشرح بعضٍ من تخصصى فى الأمراض الصدرية إليهما بعد مواعيد العمل مما جعلهما يشعران بالامتنان ويقدمان لنا الخدمات القيّمة من اصطحاب زوجتيهما لنا بسيارة الأسرة – أثناء إنشغال زوجيهما فى العمل – فى رحلات طويلة لتعريفنا بالولاية وما يجاورها ، فكانت أول رحلاتنا إلى أول أرض وطأها "الحجَاج" كما يسمون النازحين الأوائل من أوروبا ، اصطحبتنا "آشا" زوجة ڤردان إلى مناطق فى ولاية رود أيلاند ومنها "بروڤيدنس" العاصمة وهى أشهر بلدان العالم فى تقطيع الماس بل هى العاصمة فى هذه التجارة، وكانت أول أرض وطأتها أقدام الحجَاج عند صخرة (بلايموث) بالسفينة (ماى فلور) أو زهرة مايو فى بقعة من الولاية متطرفة على المحيط الأطلسى، يحافظ الامريكيون على مظهر هذه البقعة وشوارعها وبيوتها وملبس أهلها وعاداتهم كما كانت من مائتى عام.

كان فى تصرفى حياء الغرباء ، أما عن تصرف الهنود فكان يختلف لاعتقادهم أن امريكا أرض أتاحها الله لعباده وليس لمن حضر أولاً وصاية على من حضر إليها آخراً.. وبذلك المفهوم كانوا يدفعوننى للاحتفاظ بكل حق لى مهما كان تافهاً حتى لو تشخيص لمرض فهذا حق لى لايحق لأحد غيرى امتلاكه ، لذلك فقد ظهرت بعض آثار مناصرتهم لى فى تصرفاتهم مما وضع زميلتى الاسرائيليّة فى حرج فَتجَنبتهم وأصبحت فى شبه عزلة عن طاقم أطباء المستشفى المقيمين فى أثناء مرورها.

رود أيلاند أصغر ولايات أمريكا لكن قربها من ولاية ماساتشوسيتس وعاصمتها بوسطن حيث الجامعة العريقة هارڤارد يُسَّهِل الوصول إليها بالسيارة فى نصف ساعة ، فى أثناء وجودنا كان يقيم بولاية رود أيلاند ستون أسرةً مصريّةً يعيشون فى وفاق وتربطهم

صداقات عمل وحياة ، ولكم استمتعنا برقصة الدبكة فى الحفلات والمناسبات بحضور أسرة لطف الله اللبنانيّة أصحاب مصانع النسيج برود أيلاند على أنغام الرحبانيّة وصوت فيروز فى قاعة الاحتفال بالكنيسة . كانت معرفتنا بأسرة خورى اللبنانى الأصل فى إحدى الحدائق عن طريق سماع حديثنا بالعربيّة.. ابتسامةَ من الطرفين.. ثم.. أنتم من مصر..؟ مرحبا.. كانت صداقتنا برياض خورى - وهو عازف هاوٍ على العود - وزوجته الأمريكيّة برنى (برناديت) ، وطفلته الجميلة (أولبانى) من أخلص الصداقات ، توطدت بتبادل زيارات الزوجات وحضورنا حفلات الكنيسة ومشاهدة عروض الأفلام المصريّة فكان وفاق بين الزوجتين والابنتين..

فى الطريق إلى هارفارد لصلاة العيد فى إحدى قاعاتها زرنا فى العودة مسجد "كوينزى" السورى المنشأ ، صحبنا طبيب سورى جرّاح حديث القدوم مع زوجته ، كان أول دفعته فى طب دمشق ، وقد عانى الأمرّين لعدم معرفته باللغة الانجليزيّة ومن زّى زوجته الإسلامى ، كان موضوع الزىّ ابسطهما لوجود الكثير من الزوجات الهنديات فاندمجَت معهن ، لكن عدم معرفة اللغة التى يتعامل بها الزملاء والرؤساء فى العمل اليومى وفى الندوات والمؤتمرات كانت الطامة الكبرى التى لايجب أن يغفل عن أهميتها أى مبعوث لمثل هذه البلاد. كان الحزن والقهر يفيضان به أثناء مساعدته لكبار الجراحين لعدم فهمه التعليمات.. كيف تسمح بلاده بهذا الموقف..؟ مبعوث جَراح لايعرف حرفاً من اللغة الانجليزية لغة البلد المبعوث إليها..! ياللعجب ، زارنى الدكتور هلال بلوس انجلوس بعد أن تفوّق على ضعفه وكم كان افتخارى به عندما أخبرنى أنه أغلق على نفسه باب بيته لايرى الناس إلى أن أتقن اللغة الانجليزية ووصل إلى مكانة طيّبة بالمستشفى مع تقدير رؤسائه لجهوده وحرفيته الجراحيّة المتميّزة..

"أنتم ياعرب كشيرو الكلام والجعجعة"... قالها هذا الطبيب اليهودى فى استراحة الأطباء فى أثناء جلوسى مع طبيب سورى آخر فاستشطنا غضباً وصرنا نجعجع - كما قال- ونفاخر ببلادنا... فيرد.. "ايه القاهرة دى.. لقد زرتها ووجدت أنها أقذر بلاد الدنيا".. فأكملنا جعجعتنا.. "أنتم القذرون.. وأنتم المعتدون".. ياللّه.. كان ذلك فى

نهـاية ٧٢ ، أى بعـد هزيمة ٦٧ بخـمس سنوات.. أين المنطق فى الإجـابة على هذا المعتدى..؟ لماذا لانتعلّم فى بلادنا موضوعيّة المخاطبة والبعد عن التهديد والادعاء وشرح الأسباب من أن بلادنا بلاد نامية ومحدودة الدخل كثيرة التعداد ومُحَاربةَ من دول الاستعمار والدليل فى حرب الاعتداء الثلاثى من فرنسا وانجلترا وإسرائيل سنة ٥٦ ومقولة ديان وزير الحرب الإسرائيلى أن بلاده كانت أشبه بمن يقود دراجة ويتعلق بيده فى شاحنة تصعد به أعلى التل..

لقد قدم لنا هذا العدو الشرس اللدود تفسيرا لهزيمتنا فى حرب ٥٦ - التى لم نختبر فيها بالفعل - هذا الديان ناكر الجميل والنعمة والحماية التى أسبغناها على آبائه فى حارة اليهود التى نشأوا وتربوا فيها بالإسكندرية.. هم هكذا.. طابور خامس كما وصفهم الألمان وتعرفت عليهم شعوب العالم التى عانت من قوقعتهم داخل مجتمعاتهم المغلقة يبثون خطرهم ويكيدون للوطن الذى يأويهم ، أمثاله كثيرون هؤلاء الذين نمت ثرواتهم فى مصر وأنكروا علينا طيبة القلب وحلاوة المعشر واعطاءهم الفرصة الأولى - قبل المواطن المصرى - ثم حاربونا بثرواتهم ومنشآتهم ودسوا لنا وبثوا سمومهم واختبأت ضفادعهم البشرية بعيادة طبيب أسنان يهودى بشارع منشة عندما غزوا ميناء الإسكندرية لنسف حوضه الجاف واضطرارهم للهروب.. والأمثلة كثيرة منها التخابر مع إسرائيل ونسف المنشآت كحادث سينما ريفولى بالقاهرة والقيام بالاغتيالات وإلصاقها بالمواطنين.. نحن لم ننكر عليهم نعمة الحياة والعمل والكسب ، اذ كان لنا جار فى السكن بالإسكندرية وهو طبيب يهودى ينعم بمزاولة مهنته فى حرية لم يعكرها منا أحد ، وكانت معابدهم مفتوحة للصلاة مكفولة الحماية والرعاية لم يعتد أحد منا عليها فى حرب أو فى سلم ، أسماء كبيرة كانت لهم فى عالم المال والاقتصاد . بنزايون.. وعدس.. وهانو.. وصيدناوى.. أمثلة واقعية للتجارة التى مارسوها بحرية فى بلادنا.. ومنشة وجوهر وقطّاوى وسوارس أسماء تحكى الهيمنة والسيطرة على الحكم وعلى المجتمع المالى فى مصر.

ذلك الطبيب المصرى المسلم بمستشفى رود أيلاند.. كم طعن فى كرامتنا وأهان مصريتنا.. دعانى وزوجتى على العشاء فى بيتةَ..

- بلاش هجص حتحاربوا إمتى وبإيه..؟ هذا الديكتاتور القائم على الحكم فى مصر كثير الكلام قليل الأفعال وعدكم بالحرب خداعاً..

- هذا ليس صحيحاً يا أخى.. تركنا الإسكندرية وهى تغلى وطلبة كلية الهندسة والطب جرحى فى الشوارع، والعمال فى كل مصنع ينادون بخلاص أرضنا ، وأبطالنا على القناة يحمون بلادنا فى شجاعة وإقدام ويهاجمون ميناء إيلات كذلك القنطرة وبالوظه داخل سيناء ، وأغرقنا مدمرتهم إيلات ، وحرب الاستنزاف دائرة والإستعداد والاحلال بجنود مستنيرين على قدم وساقٍ..

- أنتم تخسرون بذلك أكثر مما تكسبون..

- وماله.. مادامت الشعلةُ متِّقده والحماس قائماً للمعركة الحاسمة..

- أى معركة تقول..؟ انتو مش لأيين تاكلوا..

- هذا ليس صحيحاً.. نحن نأكل ونلبس ونتكسب ونتقاضى أجورنا مثل أى بلد فى العالم ، وعندنا فقراء مثل أى بلد فى العالم لايموت أحدٌ منهم فى بلادنا جوعاً أو برداً مثلما يحدث فى الدول المتقدمة..

- طب عندكو تفاح..؟ هل عندكو تليفزيون ملوّن..؟ هل عندكو فستق..؟ قومى هاتلهم فستق..

- ياأخى نحن نأكل الفستق والتفاح من حين لآخر فلسنا زارعين لهذه المأكولات.. وسيدخل التليفزيون الملوّن فى حينه إلى بلدنا.

هذا المارق ترك البلاد هارباً وكان يظن أن على الدولة أن تغمض عينها عن المخربين ونشاطاتهم الهدّامة بعد أن خرجوا عن شرعيتهم المباحة التى آزرناها فى صبانا وشبابنا ولم ندرِ بما يبيتونه من غدر..

چون ياشر هذا اليهودى كبير جراحى المستشفى كان يستدعينى كلما قام بجراحة منظار المنتصف الصدرى ، أو وضع مظلة فى الوريد الأجوف السفلى عن طريق الرقبة مجتازاً أذين القلب الايمن إلى مادون مستوى الكُلى لحبس خثرات (جلطات) الدم السابحة من أسفل الجسم إلى الرئتين ، ويسهب لى فى الشرح والإجابة على أسئلتى ويطلب منى استدعاءه كلما تَعثْرت فى تشخيص أو علاج يمس تخصصه ، وكان حانياً طيب القلب فى معاملاته ومناقشاته.. تعلّمت منه الكثير فى هذه الجراحات التى ترتبط بتخصصى.. وهذه الوسائل التشخيصيّة والعلاجيّة عالية التقنية.

هذان مثلان بهما أعيب على من يحط من قدر أهله خارج بلاده - مهما كان أصل العداء -ومنها أحيى من ينتمى إلى دين يتعلّم منه حسن المعاملة وليس عقيدة متعصبة عدائية فانطباعى عن اليهود الأمريكيين أنه لا غبار على علاقتنا بهم إلا من مسّه شيطان الصهيونيّة ، فما أبعد الهوة بين اليهودى المتحضّر والصهيونىّ المتعصّب .

اختلفت مع چون ياشر فى تشخيص أحد المرضى وكنت مصيباً فقد عانى المريض من التهاب رئوى متكرر بالفص الأوسط بالرئة اليمنى وأجرى له چون ياشر منظاراً صدرياً لتحديد مكان ونوع الالتهاب.. وأَخَذ عينة من الشعب الهوائية وعالج المريض بمضاد حيوى غير نوعى لحين ظهور نتيجة المعمل الميكروبيّة وأصررت أنا على علاجه بعقارات الدرن النوعيّة فرفض ، بعد أسابيع قليلة كانت بادرة نمو ميكروب الدرن ، إستدعانى رئيس قسم البكتيريا وكان فرنسياً يعمل ابنه رئيساً للأطبّاء المقيمين.. هنّأنى على صحة تشخيصى وأخبرنى بأن سجلى للتشخيصات البكتيريّة صحيح مائة بالمائة ومما قاله.. "لا تنصت إلى هولاء الأمريكيين فهم أغبياء وجهلاء فى تشخيص الأمراض القديمة مثل الدرن الرئوى - السل - ويغالطون غروراً من أن بلادهم خالية من هذا المرض ، وأننا أطباء أوروبا - وبها معامل باستير بفرنسا - وبلاد الشرق متمرسون فى نوعية تلك الأمراض" . عندما عرف ياشر بالنتيجة هنّأنى واعتذر عن تأخر شفاء المريض خمسة أسابيع وقام باستدعائه لإصلاح علاجه .

توفى الدكتور "على طرابية" ذلك القلب المخلص الذى سبقنى إلى هنا واختارنى لأخلفه فى عمله ، أصيب بأزمة قلبيّة بعد خمسة وأربعين يوماً من رجوعه إلى الاسكندرية . . مما جعلنى أنهار ثلاثة أيام . . استقبلنى رئيس قسم الطوارىء بالمستشفى وأنا فوق كرسى متحرك يسوقه أحدهم وبيدى الخطاب الذى يحمل الخبر ولا أنقطع عن التشنج والجميع يسألون عن الحدث ثم نطقت بالعربية . . على . . على . . وعرفوا جميعاً أنه رحمه الله ، كان رئيس قسم الطوارىء الذى اعتنى بى هو د. مسعود وهو يهودى مصرى نزح إلى امريكا مهاجراً وكان صديقاً للمرحوم علي.

عدت إلى عملى فى اليوم الرابع إثر محادثةٍ هاتفيّةٍ من ستين إلى زوجتى من أن عملى لايصح أن يتعطل أكثر من ذلك . . انخرطت فى العمل بكل قدرتى ولم يبخل ستين بالمساعدة العلميّة فى الأبحاث وبعض المساعدات الماليّة حين قيامى بالعمل بدلاً منه أيام السبت والأحد . . بل وسمح لى بالعمل الإضافى بطوارىء المستشفى ليلةً كلَّ أسبوع على الرغم من اتخاذ القسم قراراً بعدم السماح لأى طبيب يعمل زميلاً فى القيام بعمل خارجي . .

"إستعد لهذه النهاية عند رجوعك لبلدك" قالها لى زميل كوبى بالمستشفى كان زميلاً للمرحوم على . . "فعليك أن تخطط من الآن لعدم عودتك لبلدك . . أنا كوبى وبلدك مثل بلدى ، ستواجه أحد أمرين إمّا محاولتك أن تفرض ما تعلمته وسيُجهضك الآخرون . . أو الانصياع للأمور ـ كما كانت من قبل ـ وستجهض من داخلك." . .

ساعدت مورين كالاهان فى التخفيف عن الأسرة فوصفت لنا بعض أماكن الترفيه مثل سينما السيارات ، وحضور بعض حفلات الأطبّاء المقيمين بالمستشفى فكانوا خير عون لنا فى ذلك ومنهم – غير الأمريكيين – أطباء من الهند وسويسرا وفرنسا وسوريا وكوبا واليابان. كذلك حفلات الكنيسة والمناسبات . . كانت إحدى تلك الحفلات بمناسبة رأس السنة دعانا إليها طبيب جراحة تجميل مصرى لامع هو د. عبد الله أبادير الذى كان بيته أو بالأحرى قصره مدعاةً لإعجاب الامريكيين الضيوف بما استحضره من فراش ثمين ونفائس مصريّة وفرنسيّة وإيطاليّة. على بوفيه العشاء المفتوح وجدنا فى الصف خلفنا يهوديّة من الإسكندريّة . . ما أن سمعت أننا من هناك حتى تعلّقت بنا من شغاف قلبها وترقرقت الدموع

فى عينيها وهى تحكى عن أيامها السعيدة هناك. كان سكنها فوق صيدليّة الانجلو-سويس بمحطة الرمل.. تعلق صورة فاطمه وعم عبده والأسطى حسين على حائط بيتها فى رود أيلاند.. هؤلاء الذين قاموا على خدمتها.. مدبرة المنزل والسفرجى وسائق سيارتها... فى أثناء مسحها البلاط بالفرشة تتطلّع إلى صورهم ودموع الحسرة تنساب على أيام العز والعظمة والكبرياء عاشتها بيننا فى إطمئنان وسعادة.

ماذا دعاهم إلى خيانتنا..؟ هل هو انتماؤهم الدينى..؟ لا أعتقد.. فقد مارسوا طقوسهم الدينيّة بيننا فى سلام وأمان.. لكنها استراتيجيّة الحركة الصهيونية التى استعدتهم على أوطانهم بدعوة دينية ملفقة فأنشأت دولة عدوانية من نشأتها، وفرضت وجودها ليس على جيرانها فحسب - ولكن على باقى يهود العالم - توجبهم بزيارتها فيما يسمونه "الحج"... فكيف لايكون لهم حج..؟ بينما يفزعهم الحج عند المسلمين.. وتفرض عليهم الاشتراك المنظم فى مساعدتها علمياً وعسكرياً ومالياً وزراعياً وصناعياً بتكنولوجيا عالية التقنية.. لكن الهدف الاستراتيجى هو إقتصادى فى المقام الأول فهذا الوتد يشق كتلة الأمة العربية ويزرع فيها الفرقة وينشر فيما بينها الألم والعجز.. هذا المارد العربى لن يسمح له ببناء قوته أو بالاتحاد من قبل القوى العظمى التى أطلقت أنياب الصهيونية العالمية تنهشه وتدمى جسده..

ماذا لو عاشوا بيننا مثلما عاشوا من قبل فالمقدسات وأرض المقدسات مشتركة ومحترمة من كل الشعوب والأديان.. وتآخى أقباط مصر مع مسلميها خير دليل على ذلك، ولم تفلح وسائل الدس والوقيعة فى التفرقة بينهم.. وإيمانى عظيمٌ بعظمة تلاحم الأديان فى سبيل رفعة الأوطان ورفاهية الإنسان.. وغير ذلك عقبة فى مسار التاريخ ورفعة البشرية وتآخيها، فأستغلال الدين كوسيلة لتحقيق استراتيجية إقتصادية هو جريمة بشرية تفرغه من معناه فالدين ملجأ الروح والنفس البشرية فى الحياة والممات.. وليس هناك شك فى أن مسار التاريخ هذا سيكتسح تلك العقبات، وشواهد ذلك اتضحت فى أنظمة الدول الكبرى التى صارت عظمتها من ولاء أنظمتها لهذا الفكر المتّقد فالدين للديان جل جلاله.. لوشاء ربك وحّد الأقوام... أُنظر إلى امريكا الآن تقود العالم

بأفكارها التى تمس النفس البشرية أولاً بمكنونها وولائها.. هذا الفكر لاشك أنه حجر الأساس في كيانها الاقتصادى المتعاظم.. فالمسيحى مسيحى.. واليهودى يهودى.. والمسلم مسلم.. والبوذى بوذى.. والكنفشيوسى كنفشيوسى.. والهندوسى هندوسى.. بل وانتعشت في أمريكا حركة هارى كريشنا الهندية خارج بلدها الهند.. وكم شاهدت من شباب أمريكى مسيحى ينتظم فى هيئات ومجتمعات حرة العقيدة ولم يؤثر ذلك مثقال ذرة فى العقيدة المسيحية لدى الأمريكيين أو غيرهم.. ولم يعد تحول المسيحى إلى مسلم أو البوذى إلى مسيحى من الانتصارات التى تتباهى بها المؤسسات الدينية فى أى بلد لأى دين على آخر ، بل على العكس أصبحت المجتمعات تشعر فى صميم ضمائرها بالخزى من تلك الوسائل فالدين لله والأوطان للجميع.. ومن المستهجن الآن أن نسمع أن الفاتيكان قاد حرباً صليبية ضد إحدى دول العالم أو أن اليابان قادت حرباً بوذية ضد روسيا ، ولم تعد الانتصارات الدينية سمة للعصر الحديث فتغير التبشير بأى دين إلى مساعدات إنسانية للمعذبين فى الأرض..

الــديـــن ..

إن كل من اقترب من تعريف الدين لم يحالفه التوفيق مهما ناقش من معطيات تاريخ وظاهرة وسلوك.. فكلمة (دين) تستعصى على التعريف على الرغم من وجود العديد من هذا التعريف، ونظريات الباحثين فى هذا الأمر تاريخاً وظاهرةً وسلوكاً أمور تتشابك إلى حد اللا إيضاح، فنظرية الظاهرة استَعدَت التاريخ وعلوم المجتمع لقصورها عن استبيان تفاصيل أديان معينة فى المقارنة والحدس والافتراض. ولقد كان القرن التاسع عشر مرتعاً لدراسات علوم الأديان، ذلك لمحاولة إيجاد حل لعلاقتها بالظاهرة التاريخية وسلوك الافراد وعلوم المجتمع، فعكف العلماء على دراسة علم النفس البشرية، وعلم المجتمع الانسانى - خاصة الأصول الإنسانية - التى شاركت فى تعميق فهم معنى الأديان أو كلمة (دين) أو (الدين) أو (ظاهرة التدين).

ارتقى فى مضمار تحليل معنى التدين الطبيب عالم النفس الامريكى وليم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠) فيلسوف النظرية الواقعية، وسيجموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) الطبيب عالم النفس اليهودى النمسوى فيلسوف نظرية العقل الباطن والتحليل النفسى، وكارل جوستاف چونغ الطبيب عالم النفس السويسرى (١٨٧٥ - ١٩٦١) مؤسس علم التحليل النفسى، الذى أصبح بديلاً متطوراً لسيجموند فرويد. وكانت صعوبة التناول النفسى للدين عند الفرد - محملاً بخبراته، وعند المجتمع - محملاً بخبراته - عقبة كأداء فى فهم كلمة (دين) وناقش هؤلاء الباحثون فى علم الأديان - فيما ناقشوا - صعوبة التحرك والانتقال بين هاتين الكتلتين.. الفرد والمجتمع.

اصطدمت أفكار وعلوم بحوث التناول النفسى هذه بالتقاليد الاجتماعية والأصول الانسانية منذ الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، وقاد المواجهة علماء اجتماع فى تحليل الأديان أمثال وليم روبرتسون سميث وإميل دركهيم وماكس ويبر.. ويعدُّ عام ١٩٢٢ البداية فى أبحاث أصول الإنسان، وصاحَبَ هذه البداية دراسات معقدة للثقافات الموجودة وأديانها التى ساهمت فى استنارة الأفكار السائدة عن هذه الأديان. وفى هذه

السنة نشر برونيسلو مينوسكى وراد كليف براون دراسات ميدانيّة متعمّقة فى الثقافات الاجنبيّة المختلفة وأصبح تناولهم التطبيقى فى تحليل العقيدة الدينيّة مدرسةً سرت منها دراسات تفصيليّة أخرى غير مشكوك فيها...

عن موضوع (الإيمان الدينى) فيما خبرته البشرية يعدُّ لفظ (الجلالة) هو اللفظ الذى يحمل فى طياته معنى التعظيم والحق ويُستَشعرَ منه معنى.. الوجود..الكليّة.. الروح.. القوة السائدة.. رغم أن هذا التعبير قد يكون على المدى ليس إلا الانضباط الاجتماعى أو انطباعاً للعقل البشرى أو نوعاً من الارهاص - إلا أنه على الرغم من ذلك فان الدين يتعامل مع (الجلالة) كقوة بادئة تجىء لحياة البشر وتمسها من لا حولها... نقول : لاحول ولا قوة إلا بالله..

الأديان غالباً ما تعتمد فى أصولها على وسائل منها "الإبداء" أى تصور أحداث متميّزة من خبراتها (للجلالة) ، تجيئ إلى البشر على شكل رؤيا (موسى فى الصحراء) أو وحى (محمد صلى الله عليه وسلم فى غار حراء) أو حدث (خروج بنى اسرائيل من مصر) أو ريح مقدسة (الكاميكاز التى دمرت أسطول المغول عند غزوهم جزر اليابان) أو موت وبعث (عيسى عليه السلام).

عرّف هؤلاء الباحثون الإيمان بأنه رد فعل المخلوق لوجود الخالق ، ولاينبع الإيمان من مجرد اعتقاد فقط لكنه عقيدة عند الأشخاص بها يهبون أنفسهم له، ويوفون دعواه عليهم فى كل عمل يقومون به خلال حياتهم.

الأصـــــدقاء..

كان من دواعي سرورنا تعرّفنا بأسرة مصرية ربّها أخصائي قلب وزوجته أخصائية أطفال ، كانا من أسر معروفة بمصر هاجرا واكتسبا علماً ومعرفة واحتراماً في الوسط الطبي والاجتماعي الامريكي برود أيلاند ، كانت والدة الزوج سيدة من صاحبات القلوب الكبيرة.. كم غمرتنا بالحنان والدعاء والوجبات المصرية الشهية من ملوخية تزرعها لنا بحديقة الڤيللا الخاصة بهم والطعمية والبصارة والمحشي ، الأبناء يملؤن الجو مرحاً ويعوضوننا عن صلفِ ربِ تلك الأسرة التي عندها فستق وتفاح.. كان تعارفي بهذه الأسرة المصريّة الطيّبة يدعو إلى التذكر.. كنت أذهب بسيارتي مساء كل خميس من بوتاكيت إلى جامعة هارڤارد لحضور برنامج محاضرات الأمراض الباطنة الذي يعقد شهري سبتمبر وأكتوبر ، عند دخولي قاعة المحاضرات لأول مرة تمهلت عند الباب أنظر إلى الحضور وأنتقي مكاناً فاذا برب هذه الأسرة يقف من وسط الحضور الكثير.. تعلقت أنظارنا دون سابق معرفة.. تقدم إليّ مادا يده بالتحيّة.. وعرّفني بنفسه وعرّفته بنفسي، تعانقنا واصطحبني إلى جواره.. كان استقباله الدافئ هذا مدعاة لأطمئناني وراحتي فصارت بيننا صداقة حميمة في الغربة الموحشة وفي أيام حرب ٧٣ القاسية..

تعرفنا بأحد أقباط مصر المخلصين ، والده رئيس المكتب الهندسي بمستشفيات جامعة الإسكندرية ، حضر لينهل من العلم في تخصصه الأذن والأنف والحنجرة بمستشفى رود أيلاند أكبر مستشفيات الولاية الاربعة.. كان دمث الخلق.. مصرياً مقاتلاً . أذاقوه مُر المعاملة وعلى رأسهم صاحب التفاح والفستق الذي كان يعمل طبيب تخدير بنفس المستشفى ، يعقد معه حواراته عن الفقر والجهل والمرض والحروب في مصر مستعدياً عليه مجتمع المستشفى من حاقد وشامت ومنتهز حتى ترك صاحبنا المستشفى وسط حسرتنا على فراقه.. لم يعد إلى مصر لكنه كان متحسباً للأمر فرتّب أمر سفره إلى انجلترا حيث حصل على شهادة الزمالة في تخصصه وأصبح "مجدي بهنا" أحد أقطاب هذا التخصص في الإسكندرية.. وصارت عبارته "أشوفك صدفة.." التي ودّع بها صاحب الفستق والتفاح مدعاة لتندرنا .

كذلك كان هناك أحد الزملاء الذى سعى لأحضار المرحوم على طرابية فى بعثته العلميّة إلى رود أيلاند ثم قرر البقاء بأمريكا لاحتياج ابنه إلى رعاية طبيّة.. كان أرمنى الأصل أغراه أستاذى فى الإسكندرية بالحصول على الجنسية المصريّة لكى يستوفى شروط التعيين بهيئة التدريس لتفوقه ونبوغه.. ومن نوادر حصوله على الجنسيّة المصريّة فى بداية التحاقه معيداً بالجامعة أن أُستدعى لأداء الخدمة العسكريّة ، وكان مايثيره من الأستاذ تلقيبه "بالخواجة" فكانت له مواقف متشدّدة معه حتى اعتقدنا أنها أحد أسباب عدم عودته للوطن.. شملتنا أسرة هذا الزميل د. چان اشبع بعنايتها المتحفّظة لكنه كان صادق النصيحة وسبباً لثقة المجتمع الطبى بىَ على الرغم من عمله فى مستشفى آخر ، وكنت أزوره أحياناً كلما احتَجْتُ لنصحة وألعب الطاولة مع والده تاجر الأقمشة بالاسكندرية عند حضوره لزيارته.

تعرفنا بالمهندس سيد سيد أحمد وزوجته المهندسة رُقيّه عن طريق د . أحمد حسن - زميل محاضرات هارڤارد - حضرا للحصول على درجة الدكتوراه فى الهندسة من مركز جامعة براون للتكنولوچيا وهو من أكبر وأعظم مراكز التكنولوچيا الحديثة. كان سيد أول ورُقيّه ثامن دفعتهما من هندسة القاهرة.. تبدو معالم الحزن على وجهيهما دائماً رغم تفوقهما الظاهر وكنا نُرجِع ذلك إلى ضيق ذات يد المبعوث للحصول على درجة علميّة أو لعدم قدرتهما على النسل فى الاغتراب أو لأسباب أخرى مثل القرارات المبكّرة بعدم العودة للوطن كما أثبتت أحداث السنوات التالية ، كذلك لصعوبة إيجاد المنصب المناسب لحامل دكتوراه الهندسة داخل أمريكا فكان سيد ـ بعد حصوله على الدرجة ـ يتقدم بدرجة البكالوريوس للحصول على عمل.. كانت صداقتهما مثاليّة فى الاحتفاظ بكرامتهما وبالروح الدينيّة العالية عند الزوجة.

عن الإخوة المصريين وأسرهم فكانوا يبدون لنا الكثير من المودة والاحترام والمساعدة بقضاء بعض احتياجاتنا لعدِّنا ضيوفاً عليهم حضرنا لمهمة وطنيّة وسنعود إلى مصر يوما ما.. تعرّفنا بشاب مصرى خريج تجارة القاهرة تبدو عليه سمات التربية الحسنة والطباع

الهادئة يعمل صانعاً "للبيتزا" بأحد محلاتها الشهيرة ، وفي انتظارنا لطلبنا كان سعيداً بدعوتنا له على العشاء.. هكذا غلّفت الشفافية تعارفنا وعلاقاتنا بالمصريين وأسرهم لكن الأمر لم يكن يسلم من وجود بعض قناصة الظروف.. قرأت إعلاناً عن تليفزيون مستعمل اتصلت بصاحبه وذهبت إلى عنوانه.. كان مكسيكيا متوسط الحال ولشدة اعجابى بالتليفزيون ذى الدولاب الخشبى الجميل وافقت على ثمنه المرتفع.. ولإدعائه باحتياجه الشديد إلى المال وإلا لما حرم منه أولاده وزوجته.. ترددت فى حمل التليفزيون معى واتفقنا على أن يتركه خارج باب مسكنه على أن أعود فى وقت آخر لآخذه ، أحضرت التليفزيون إلى منزلنا وقضينا الساعات نحاول تشغيله فلم يستجب.. حملته إلى منزله لكنه كان قد غادر المسكن.. تكلفت ضعف ثمنه إصلاحا.. وقبل أيام من مغادرتنا رود أيلاند دُعينا إلى العشاء عند أسرة مصريةّ.. وفي سياق الحديث عرفوا أننا نبيع أشياءنا فتطوّع الزوج بشرائه.. وبعد العشاء اصطحبته إلى مسكننا فحمل التليفزيون إلى سيارته وعدنا لنكمل السهرة ونهضنا بعدها للعودة إلى منزلنا لكنه تجاهل موضوع التليفزيون .. وهكذا تعشينا بثمنه . كما كان لنا من الجيران أسرة من الهنود الحمر دافئة المعشر.. سيدتها بدينة ضحوك طيبة القلب تسمح لنا بقطف ثمار التفاح من حديقتها.

الرحـــــلة..

فى أجازتى السنوية قضينا عشرة أيام فى رحلة بالسيّارة زرنا فيها عشر ولايات بالشرق الأمـــريكى منهـــا ست ولايات تتكوّن منهـــا منطقـــة نيـــو - انجلند هى رود أيلاند ، وماساتشوسيتس ، ومين ، ونيو - هامبشير ، وكونكتكت ، وڤرمونت.. هذه المنطقة كانت بداية المدنيّة الحديثة للأمّة الجديدة وطليعة تقدّمها العلمى وبها جامعة هارڤارد وهى من أعرق جامعات العالم ، تأسست سنة ١٦٣٦ وتحتوى مكتباتها على أكثر من عشرة ملايين مجلد وهى أقدم مؤسسة فى التعليم العالى ومن أكبر المراكز العالميّة فى العلم والبحث فى كل مجالات الحياة والمعرفة ، ومن الغريب أن المرحلة التعليميّة الأولى بها مخصّصة للذكور فقط وبها كليّة راد - كليف للإناث فقط لكن المرحلة التالية للتخرج وكذلك المعاهد المتخصّصة تجمع بين الجنسين.. وهى جامعة بمعنى الكلمة إذ تجمع مراكزَ للدراسات اليونانيّة القديمة ولها فرع بواشنجطن العاصمة الأمريكيّة وبمدينة فلورنسا الإيطاليّة لدراسات عصر النهضة.. كذلك بها العديد من متاحف الثقافة والفنون والعلوم مثل المتحف الألمانى ومتحف علم الحيوان المقارن ومتحف العمارة والأصول الانسانيّة والمتحف النباتى والمتحف الچيولوچى.. أى أنها كعبة للعلم فى شتى أصول وفروع المعرفة فى تاريخ البشريّة قديمها وحديثها.. وتتمثل علوم التكنولوچيا الحديثة فى جامعة براون التى تأسست سنة ١٧٦٤ برود أيلاند.. من معجزات التكنولوچيا بها حمام السباحة الرئيسى فى الحرم الجامعى الذى تصل مساحته وماحوله إلى آلاف الأمتار المربعة.. تقوم معجزته الهندسيّة على بناء سطحه بطريقة الأقواس المحدَبة والمقعَرة المحمّلة على بعضها دون أعمدة .

منطقة الشمال الشرقى للولايات المتحدة تتكوّن من عشر ولايات هى الولايات الستة التى تتكوّن منها نيو-انجلند وولايات أربعة هى نيويورك وديلاور ونيوچيرسى وبنسلڤانيا... بذلك تشكّل هذه المنطقة الشماليّة الشرقيّة أقوى وأكبر تجمّع علمى وتجارى فى العالم إذ بها ميناءا نيويورك وبوسطن وعديد غيرها من الموانئ الواقعة على الساحل الشرقى الأطلسى لأمريكا.. وهى كذلك منطقة الانطلاق للمستقبل الأمريكى كمّا يراها الأمريكيّون .

أخـذتنا سـيـارتنا الدودج الجـديدة إلى غـرب ولاية رود أيلاند عـبـوراً إلى ولاية كـونكتكت ومنهـا شـمـال شرق إلى مـدينة بوسطن على المحيط الأطلسى عـاصـمـة ولاية ماساتشوسيتس التى تمثل الماضى والحاضر فى طابع مبانيها وهندسة منشآتها وشوارعها وهى عاصمة العلم لوجود جامعة هارڤارد بها ، اتجهنا شمال غرب إلى الولاية الجبليّة نيو - هامبشير ذات البلدان الهادئة مروراً بعاصمتها كونكورد ، وقضينا يوماً من أجمل أيام العمر فى "موتيل" يقع على أكبر بحيراتها "وينيباسوكى" ذات الشاطىء المتدرج من ارتفاع شاهق إلى حافتها تحيطها مناظر طبيعيّة تسحر الألباب ، تدير الموتيل صاحبته وهى سيدة تستأثر بالقلوب لشدة لطفها فى معاملة النزلاء ، ثم شمال شرق إلى ميناء بورتلاند على ساحل الأطلسى بولاية "مين" وهو من أكبر موانئ الصيد فى العالم ، به أدوات غريبة لصيد الأسماك الكبيرة والغالية الثمن مثل الاستاكوزا.. اتجهنا بعد ذلك غرباً إلى شمال ولاية نيو- هامبشير وولاية ڤرمونت ثم شمال ولاية نيويورك مروراً بعاصمتها "أولبانى" قاصدين مدينة "بافالو" حيث شلالات نياجرا على الحدود الكنديّة . قضينا فى مدينة بافالو ليلة ليلاء إذ دخلناها فى العاشرة مساءاً واتّجهتُ إلى أحد فنادق وسط المدينة حيث حجزت للمبيت وتركت زوجتى وابنتى فى بهو الفندق وخرجت لأودع سيارتى مكان الانتظار الخاص بالفندق والذى لايبعد أكثر من خمسين متراً ، وفى عودتى كان هلعى من منظر شاب يصب ناراً على زميله المستلقى على الأرض.. لم أعرف ما هذا.. لكننى تنبّهت سريعاً إلى أنها حيلة لتدخلى فأسرعت الخطى فى اتجاه مدخل الفندق فعرفا أننى نزيل به ولست عابر سبيل..

فى زيارة شلالات نياجرا اخترقت بنا السفينة مياه بحيرة أونتاريو الفاصلة عن كندا واقْتَرَبَتْ بنا إلى حد الهلع من مياه الشلالات الهادرة ، تغمرنا المياه إلى قرب الغرق فوق غطائنا الجلدى من الرأس إلى القدم . غادرنا تلك المدينة السيئة جنوباً إلى فيلادلفيا عاصمة ولاية بنسلڤانيا حيث قضينا ليلة فى استضافة أسرة رفيق بيروت.. ثم شرقاً إلى ولاية نيوجرسى فمدينة نيويورك حيث قضينا يومين فى استضافة أسرة صاحب الفضل فى حصولى على موافقة الخارجية ذات الباب الموارب.. كان من أهم زيارتنا بها تمثال

الحريّة هدية الشعب الفرنسى إلى الشعب الأمريكى فى عيد استقلاله الأول سنة ١٨٧٦ ، والتجوّل فى شوارعها المكتظّة شديدة الحركة والنشاط التجارى.. ثم اتجهنا مروراً بولاية نيوچيرسى وديلاور غرباً إلى واشنجطون العاصمة ، قضينا بها يوماً استمتعنا فيه بزيارة المركز الإسلامى العظيم بأفخم شوارعها هو شارع بنسلڤانيا ، أرشدنا خلال المركز شاب من إحدى قرى دلتا مصر يقوم على الخدمة فيه ، بالمركز نفائس إسلاميّة هى قمة فى الفن اليدوى.. فالمنبر من خشب الورد إهداء من مصر والسجّاد الفارسى إهداء من إيران ومشغولات الحوائط والأسقف الأرابيسك إهداء من تركيا.

فى اخر شارع بنسلڤانيا يقع البيت الأبيض مقر الرئيس الامريكى وعلى مقربة منه مبنى الكابيتول مقر الكونجرس ، قمنا بزيارة نصب إبراهام لينكولن الرئيس الأمريكى السادس عشر ومحرر العبيد ، على الامتداد أمام النصب بحيرة صناعية مستطيلة تنتصب عند آخرها فى شموخ إحدى المسلات المصرية.

كان من برنامج رحلتنا الحصول على ڤيزا لزيارة المكسيك ، اتجهنا إلى السفارة المصريّة حيث كان استقبالنا سيئاً إلى درجة المرارة إذ دلفنا داخلين مع أحد السعاة أو الموظفين الذى كان يحضر شيئاً من الخارج ودعانا إلى الدخول معه ، استقبلنا أحد "البكوات".. بنظرات شذرة وكلمات توبيخ لعدم مخاطبته أولاً فى الديكتافون أسفل الدرج .. كانت مشاعرى قبل ذلك جيّاشة لمشاهدة قطعة من أرض مصر وأحدٍ من أهلها لأفتح له الأحضان اشتياقاً فكانت تلك المقابلة كفيلة بإجهاض تلك المشاعر ، وهكذا انتهت رحلتنا السعيدة بنهاية حزينة.

كان مبيتنا فى موتيلات أنيقة رائعة الخدمة يدلّنا عليها كتيّب شركة تأمين سيارتنا "AAA" والتى أتحفتنا بخرائط رائعة الإيضاح لكل طريق سريع وكذلك الحصول على أحسن الخدمات الميسّرة وأماكن الزيارة والمناظر المتميّزة - كان من متعتى مع ابنتى بالموتيلات محاولة معرفة طريقة فتح صنابير المياه المتعددة الأشكال وطريقة الاستعمال.

هذه الطرق السريعة تحبب إلى المسافر الترحال ، تساعده وتبسّط له الأمور خرائطٌ في منتهى الدقة والوضوح ، وقيادةٌ لسيارات مضمونة الأداء واقامةٌ في موتيلات وحانات على الطريق في كل أرض منبسطة وجبلية بأسعار مريحة ونظافة فائقة وخدمة دافئة ومناظر تخطف البصر والعقل يحددون طرقها المتميّزة بالأرقام ويقوم على هذا هيئة سياحيَة عالية الأداء تستطيع أن تبلَغها عن أى قصور. اكتسب الأمريكيون بهذه الآثار المستحدثة بالعلم والمعرفةوالأداء المتميز مصداقيّةً سياحيّةً تفوقوا بها على كل بلاد الدنيا صاحبةالآثار القديمة ذات القيمة التاريخيّة البالغة . هذا الوعى السياحى ليس حكومياً فقط لكنه وعى من المواطن تعاملاً وتصرفاً .

طوال رحلتنا هذه ذات العشرة أيام لم نفقد طريقنا إلا مَرةً واحدة على أحد الطرق السريعة بين الولايات ، لم يكن حولنا أحد نسأله في هذه المنطقة الريفيّة فاتجهت إلى أحد المزارع وتركت سيارتى راجلاً إلى داخل سور الدار فإذا بى أجد الأسرة جميعها رجلها وسيدتها وشبابها وأطفالها يعملون فى إعداد سماد الأرض بآلات ميكنة حديثة ، شجعنى الأب بأبتسامة حين عرف بحيرتى وطلب من أحد شباب الأسرة العديدين إعادتى إلى الطريق الصحيح وهو يقود سيارة المزرعة أمام سيارتنا .

القلـــق..

"انني أريدك أن تصحبني إلى كاليفورنيا ، كما أريدك أن تعرف أننا سنعمل فى مركز طبي يهودى بلوس انچلوس ، واستطيع أن اؤكد لك أنك ستكون أكثر من مرحب بك هناك" ... كانت هذه حَرفية ماقاله ستين .. تذكرت وصية أستاذى عند مغادرتى الاسكندرية أن "تُشَرِّف وتُخلِصَ لمعهدك الذى أنشأك ورعاك" ، أمهلت ستين حتى أرجع إليهم بالاسكندرية وكان الرد بالتشجيع بل واغتنام هذه الفرصة لاستكمال أبحاثى مع هذا الرجل ..

صرت أعد عدتى للسفر وجرت الأمور متسارعة فى أثناء هذه الفترة ، اقترب منى مستر جاليجَر المدير الإدارى للمستشفى وعرض ثلاثة آلاف دولار زيادة سنوية فوق راتبى بدلاً من الخمسة بالمائة التى تقترب من ستمائة دولار مقابل بقائى .. أخبرته شاكراً أننى حضرت لإتمام برنامج بحثى وليس سعياً وراء زيادة مرتبى ..

كنت قد بدأت أبحاثى على حيوانات التجارب من الشمبانزى والكلاب ثم بدأت أول بحث إكلينيكى "سريرى" على المرضى ، ذلك بعد انقضاء خمسة أشهر من بداية عملى .. كان ستين يُذَكرنى دائماً بأننى قد بدأت مبكراً شهرين عن بداية المرحوم على طرابيّة ، لأحفظ الجميل وأداوم على الولاء ... هذا الولاء والرضاء بما يعطونه ، هو والعمل المضنى إلى ساعات متأخرة من الليل ، والعمل أيام العطلات الأسبوعية هى سمة المبعوث المصرى عن مثيله الامريكى الذى يقيّدهم بساعات العمل ، والزيادات المرتبيَة ، والتعويض المادى عن كل دقيقة زائدة ، ولايتنازل عن أجازاته ، ولايرضى بتعكير مزاجه مهما كانت الأسباب... ويتصرّف ويتعامل معاملة الند مع الكبار ، حضرت فى إجتماع علمى واقعة بين طبيب مقيم شاب وبين أحد أساتذته المشاركين.... دارت مساجلة طبيّة بينهما احتدّت بعض الشيء.. إلى أن نطق الأستاذ المشارك بكلمة "يا .. بُنَىَّ Sony" .. وهنا أنقلبت أسارير الشاب وصار كوحش كاسر تخرج من فمه ألفاظ السباب وكان أقلها .. "لعنة الله على لفظك.. أنا لست ابنك.. من الأفضل لك أن تلاحظ ألفاظك أيها المتبجح..

Damn your sony.. I'm not your sony.. You better watch your rudeness.."

ان شعورنا بالالتزام نحو المعلم والأهل والصديق والدولة اى مايعرف مجموعهم باسم الوطن ، يفرض علينا السعى إلى النجاح لنرتقى بالثقة والتقدير فى معاهدنا ، ولانخيب رجاء من علمونا بالاحترام والتبجيل اللازم لهم ، ونفخر بين أهلينا وأحبائنا وأصدقائنا ، ونثبت وطنيتنا لبلدنا ، وندّخر أرباح جهودنا لنحقق لأسرنا وأولادنا حياة أفضل.. وعلى كاهلنا يقع عبء التحصيل العلمى والتقنى لدفع مسيرة تطور شعوبنا ، فالكفاح والجهد طريقنا والاعتزاز بالنفس وحفظ كرامتنا، دعما شرعياً لهذا الجهد والكفاح، يلقى تقدير الجميع. رأيت بعضا من الناس هنا يلعنون أهليهم وشعوبهم وأوطانهم زلفى للمجتمع الجديد .. أعجبنى رد أحدهم على أحد هؤلاء " اذا كان هذا تقديرك لأصلك .. فكيف يكون تقديرك لنا اذا تغيّر موقعك ..؟" .

أصبح القسم خراباً يبابا بعد شحن الأجهزة - التى هى هبات وتبرعات من الهيئات والأفراد - استعداداً لسفرنا إلى لوس انجلوس.. ستين ونحن الاثنان الزملاء وتركنا ريدنج وفاليسنتى ومحمد خان ودى بيليس وجميع الزملاء من الدول الاخرى وكان الزميلان من اليابان قد غادرا لانتهاء أبحاثهما ..

جارى ودانى من معمل تجارب الحيوان التحقا بمصنع للحديد والصلب وكانا سعيدين بزيادة راتبهما وبنوع العمل الجديد ، فى دعوة للعشاء بمنزلى حضرا مع خطيبة أحدهما وصديقة الآخر ... لم يعجب الصديقة ورق العنب وقالت : "كيف تأكلون ورق الشجر" ..؟ علماً بأن ورق الكرنب المحشو وجبة امريكية محببة لديهم ، أعجبتها القهوة المصريَة فصارت تلعق بأصبعها "التنوة" من قاع الفنجان وأسمتها طينة القهوة .. "Coffé-Mud" . صوفَيا لم أعرف أين ذهبت ، كانت غامضة .. مورين كالاهان لم أعرف أنها تسعى إلى عمل إذ كانت مصابة بالربو وأهلكها علاج الكورتيزون وجعلها بدينة غير قادرة ، ولاشك أنه كان يلزمها نوع خاص من العمل تمارس فيه خبرتها الفنيّة دون الجسمانيّة ، چودى فنية معمل وظائف الرئة وزوجها تعاقدا مع المستشفى واستمرا مثل باقى أطباء القسم .. أمّا عن ستيف وزميله الذى لا أذكر اسمه فنيى كمبيوتر وظائف الرئة فقد استمرا فى العمل ، كان ستيف قد ساعدنى فى بداية عملى

فى شراء سيارتى الدودج الجديدة بثمن ومقدم وتقسيط مريح ، إصطحبنى مرة أثناء تجوالنا بين معارض السيارات لرؤية أسرته المكوّنة من زوجة وابن.. وجدتها تعيش فى مقر خشبى بسيط متحرك داخل قطعة أرض واسعة بها بعض هذه البيوت "الشبيهة بالأكشاك" وكان واضحاً أن مستوى الأسرة شديد التواضع.. أهدانى ستيف وصديقه صورة "الموناليزا» أعَدّاها بالكمبيوتر.

تزوّج زميل ستيف هذا وفى صباح يوم عودته صارت بينى وبينه محادثة عرفت منها كيف نعيش وكيف يعيشون ... هنّأته على الزواج فشكرنى وسألته هل تنوى النسل؟.. فقال لا .. قلت كيف لا ولماذا ؟!.. فاستدار إلى الجهاز وأخذ يضع أرقاماً ... هذا مرتبى .. وهذا مرتب زوجتى .. وهذا دخلى من عملى الإضافى .. وهذا دخل زوجتى من عملها الإضافى .. وهذا مصروف بيتنا اليومى .. وهذا مصروف زوجتى .. وهذا مصروفى .. وهذا مصروف سيارة زوجتى .. وهذا مصروف سيارتى .. وهذا متوسط استهلاك الكهرباء .. والمياه .. والغاز .. وهذا قسط المسكن .. وهذا قسط التغطية الصحيّة .. وهذا مصروف أجازة نهاية الأسبوع .. وهذا مصروف رحلتنا السنويّة .. وهذا .. وهذا .. وهذا .. وجمع وطرح ثم أضاف مصاريف المولود من غذاء وملبس وعناية صحيّة وخلافه .. وانتهى به الأمر إلى عدم الموازنة بين الدخل والمنصرف .. قال.. هل رأيت .. ليس "للبيبى" مكان فى حياتنا الآن . كنت على وشك التبرع بالرأى لإصلاح بعض البنود لأضع "البيبى" وسطها .. لكنى آثرت التعقل وأنهيت الحديث بسؤاله .. فمتى تعتقد ...؟ فاستدار إلى الجهاز وضغط بعض الأزرار ... وأضاء بعض الأنوار .. وأخرج من الجهاز كشفا طويلاً به الكثير من الأرقام.. وقال .. بعد أربع سنوات.

.. الدولار .. سوط على الظهور .. لشحذ الهمم ، ومواصلة العمل ، أذكر جارى ودانى - ممن يمثلون الطبقة الدنيا الكادحة - فى المعمل يغلقان بابه عليهما ويلعبان الورق ، وقد علمانى نقرة خاصة إذا أردت الدخول لمتابعة التجارب .. كانت مرتباتهما محدودة .. وعندهما لا مبالاة عكس ماشاهدتهما بعد التحاقهما بمصنع الحديد والصلب .. حماسة ورغبة فى تحقيق الذات .. إنه الدولار أولاً .. المحرك والدافع .. لم أسمع عن

وطنيّة أو قوميّة فهذه أمور تأتى بعد تحمل الدولة مسؤلياتها نحو الفرد .. هذه أمريكا إذا نضب اقتصادها أو اعتلّت دخولها فهبوط فى كل خدماتها.. وظيفيّة وإجتماعيّة وصحيّة وتعليميّة.. لذلك تسارع مؤسسات الدولة العملاقة إلى نظام الاستغناء (Lay-off) فكم عانى أحد أقربائى من هذا النظام إذ لم يعمل أكثر من نصف المدة التى عاشها بأمريكا والتى تربو على عشرين عاماً ، حتى أضطُر للعمل بأحدى الدول العربيّة وقنع آخر بالراتب الحكومى المحدود لكنه ضمن الاستقرار ، لذلك فالحركة والتغيير المستمر والهجرة من شرق البلاد إلى غربها وبالعكس لإحراز السبق والتطوير الكمى والكيفى وراء المركز والعائد الأحسن إينما كان شرقاً أو غرباً ، وسط الثلوج شمالاً أو الحر القائظ جنوباً .

نظام منتج يعتمد على العمل والارتقاء الدائم ... النشاطات العلميّة تعرض وتناقش فى الاجتماعات الأسبوعيّة ، ومناقشات شهريّة بين مؤسسات الولاية االطبيّة المتناظرة ، وبينها وبين المؤسسات الطبيّة لدول العالم قريبها مثل كندا وأمريكا اللاتينيّة .. وبعيدها مثل أوروبا والشرق الأوسط والأقصى من خلال جمعيات طبية عريقة تنشر الأبحاث الشديدة الانتقاء فى دورياتها الطبيّة التى يتخطفها علماء الأطباء من جميع دول العالم لمعرفة أحدث أبحاثها وأكثرها تقدماً ... ومؤتمرات فاعلة تعرض المادة مشفوعة بالعرض والأداء ، وأجهزة متطوّرة لأدق بحث يتعلق بالمرض .. ويالعظمة المبدع فى الاختراع والاكتشاف والبحث تتخاطفه المراكز الطبيّة وتهيئ له أنسب الظروف ، تسابق فى العلم والبحث تحركه الرغبة فى الشهرة والارتقاء وتحقيق الذات وإثبات عظمة الشعوب وحضارتها ، تدعمه ميزانيات ومنح مالية من جميع الاتجاهات .. حكوميّة وأهليّة من مختلف المؤسسات اقتصاديّة وغيرها .. ونظام ضرائبى مشجِّع يحقّق الكفاية لكل من ينفق دولاراً لرفع مستوى البلد .. حتى أن العشاء الذى دعوت إليه بعض الزملاء والأصدقاء فى أحد المؤتمرات الطبيّة رُدّت تكلفته إلىّ بالكامل ولم أكن قد أدرجتها .. أفهمنى الموظف المختص أن العشاء يدخل فى النشاط العلمى مادمت قد اجتمعت بأطبّاء – فى عشاء عمل– نناقش الارتقاء بالمهنة ونتبادل الرأى فى أبحاثنا حتى قيمة سيارة الأجرة من وإلى المطار ، ولا تُرَد قيمة المشروبات الروحيّة ..

لم أكن سعيداً تماماً بهذا الانتقال المبكر ، ذلك لتوقف أبحاثى بضعة شهور فى نقل الأجهزة وإعادة تركيبها هناك ، وانتظار المجهول مع حداثة وجودى ، كنت وأسرتى قد بدأنا الاستمتاع بالألفة بيننا وبين الناس فى العمل والجيرة وفريق البولينج والأسر المصريّة ومناظر الطبيعة الخلاّبة من تساقط الثلوج وازدهار الحدائق بألوان الشجر والورود البديعة المتدرّجة الألوان والتى ليس لها مثيل إلا فى الشرق الأمريكى حيث يخرج الناس جماعات لرؤية بديع هذه المناظر فى الحدائق .. كذلك الاستقرار العلمى وبداية التقدير لجهودى. بعثنى القسم إلى مؤتمر طبى بمدينة نيو - أورليانز بولاية لويزيانا الواقعة جنوباً على خليج المكسيك . اصطحبت معى زوجتى وابنتى كعادتى دائماً وكنت قد اتفقت مع د. خليل أحد زملاء الاسكندرية وأحد أقطاب جامعة تكساس على اللقاء هناك ، قضينا أياماً جميلة فى هذه المدينة شبيهة الإسكندرية ذات البحر والنخيل وعربات الحنطور وعند العودة إلى رود أيلاند كان د. ريدنج شغوفاً بمعرفة آخر أبحاث د. سامى سعيد أحد العلماء المصريين بأمريكا وأحسست بالثقة المتزايدة داخلى فأينما صادفت باحثاً مصرياً وجدته من بين أصحاب التقدير فى محفل الطب هنا .

قضينا الأسابيع القليلة الباقية برود أيلاند فى الاستعداد للرحيل... ومازلت أذكر كلمات مورين كالاهان "لاتعتقد أنك ستجد الوقت للجلوس على كرسى مثلما تجد هنا ، وأنت تعمل فى هذا المستشفى اليهودى الذاهب إليه بكاليفورنيا"... حسناً ..... أثبتنا وجودنا وقبلنا التحدى... وكان شغلى الشاغل هو كيف السفر إذ لابد من زيادة معرفتى بهذه القارة ، فلتكن السيارة.. وشجعتنى تجربة القيادة خلال العشرة أيام بين ولايات الشرق.. فلتكن عشرة أيام أخرى أقسّم عليها مسافة الثلاثة آلاف ميل إلى ساحل امريكا الغربى على ساحل الباسيفيكى.. أى مايقرب من خمسة آلاف كيلو متر أُنظم فيها ساعات القيادة مع الراحة ، والاستمتاع برؤية المناظر وزيارة الآثار واستيعاب معالم أمريكا.... فإذا كنّا قد شاهدنا شرقها طولاً فعلينا الآن أن نشاهدها عرضاً عبر تلك المساحات الشاسعة التى تزيد عن تسعة ملايين كليو متراً مربعاً تنتشر عليها تسع وأربعون ولاية عدا الولاية الخمسون "هاواى" تلك الجزيرة التى تقبع فى عمق المحيط غرباً .

تقطع الطائرة المسافة بين شرق أمريكا وغربها فى حوالى خمس ساعات ويربو فرق التوقيت بينهما إلى ثلاث ساعات ، أى أنك إذا تناولت جزءاً من إفطارك بمدينة نيويورك على الساحل الشرقى فى السابعة صباحاً فتستطيع تناول باقى الإفطار فى التاسعة من نفس الصباح بمدينة لوس انجلوس على الساحل الغربى . . هذه الولايات يجمعها اتحاد فيدرالى أى إتحاد فى الشون الخارجية والعسكريّة والإقتصاديّة لتقوية الحكومة المركزية، يحكمها الرئيس الامريكى والكونجرس الذى يتكوّن من مجلسى الشيوخ والنّواب ، يستوعب بنيان هذا البلد العملاق أقوى وأضخم اقتصاد فى العالم يعتمد -خلافاً لأجهزة الحرب- على آليات ضخمة للإنتاج والتصدير من الفحم والبترول والغاز الطبيعى والنحاس وخام الحديد والإنتاج الزراعى الضخم من قمح وذرة وماشية ومنتجات الألبان والقطن وفول الصويا والتبغ وصناعات الغذاء ووسائل النقل والميكنة الحديثة والأجهزة الكهربائية والمنتجات الكيمائيّة والحديد والصلب وغيرها . . .

الأمة الجديدة ..

هذه الأمة قد تحررت من سجن التاريخ.. وصنعت حقبة من التاريخ الحديث فى حلقات من التجارب لم يكن لها سابقة ، هنا فى هذا العالم الجديد أتيح للإنسان فرصته الثانية.. يجرب قانون المستقبل. هنا يمكن متابعة أثر الفعل الوراثى والبيئى معا... الفعل الوراثى القادم من الماضى مفعماً بالثقافة والتطلع إلى المستقبل، وملقياً وراء ظهره مادون ذلك مجدداً آماله وطموحاته ، والفعل البيئى المستمد من الأرض الجديدة واسعة الثراء ، شاسعة المساحة ، متعددة العطاء .

هنا تستطيع أن تكتشف كيف يستطيع الإنسان حكم نفسه. وكيف يخلق مدنيّة ليست واسعة الغنى فقط لكنها كذلك غنية الثقافة عالية الخُلُق.. معطاء.. حّرة.. إنسانيّة.. عادلة.. هنا استطاع البشر من الرجال والنساء صنع قدرهم بعيداً عن الخرافات والخزعبلات الضاربة فى أعماق التاريخ... والتى أورثت آفات الجهل والفقر والحروب لبنى الإنسان .

فرصة بُعثت من السماء لينتصر بها الإنسان على الماضى السحيق ويشكل المستقبل لآدم الجديد فى الجنّة الجديدة.. كما قال چورچ واشنجطون وتوماس چيفرسون وتوم بين.. كل الأحوال كانت مواتيه... هكذا قالوا.. ماعدا وجود مؤسسة العبيد السوداء المكروهة داخل الأمة الجديدة..

استقر الأمريكيون الجدد فوق أغنى بقاع الأرض التى لم تتح لبشر من قبلهم أو بعدهم.. أرض بكر قال عنها چيفرسون ثالث رئيس أمريكى ، لكل ذريتنا لآلاف وآلاف من الأجيال. أقام الامريكيون الجدد حكومات رشيدة لم تأخذ لقمة العيش من فم الكادح التى اكتسبها بكده وعرقه.. وتحصنوا من حروب العالم القديم.. وتمتعوا بحريّة الأديان واستنارة عالية الدرجة من بين شعوب العالم وتحوّطوا بالمعرفة المستقاة من العلم والتعلم وساهموا بها إسهامات هائلة لكل البشر على السواء أو بالأحرى من كان حراً من هؤلاء البشر... وبفضل قرن ونصف من الخبرة وحكم الذات اكتسب الأمريكيون الجدد نضجاً سياسياً عن أى من شعوب الأرض قاطبة..

استمدت الحكومات قوتها من الدساتير المكتوبة ، والفصل بين الحكومة والكنيسة ، وتثبيت نظام محاسبي بنكي متين البنيان ، وساهموا في مواثيق تنشر العدل بين الناس حتى أنهم اخترعوا الحزب السياسي الحديث لضمان فعالية الحكومات لتساعدها في ديمقراطية الأداء.. وظلت هذه المستحدثات السياسية تعمل بنفس المقدرة حتى أيامنا الحديثة وبنفس المبادىء التي أسست عليها... استمدت هذه الحكومات قوتها من شعوبها حتى أثمرت الانضباط والتوافق في المعيشة والأداء... لكن بوتقة الانصهار للأجناس المتعددة واللغات الشتى تركت بعضاً لم ينله هذا الانصهار والذى لم ينته إلى منتج متجانس بل إلى مجتمع تَفرِقة -رغم إرساء قوانين عدم التفرقة- وأطلت مشكلة السود بظلالها القاتمة على مسرح الحياة الأمريكيَة ، فقد ظل الرجل الأبيض يستغل الرجل الأسود.. وبقيت التفرقة العنصريّة -حتى بعد اندحار العبوديّة- وأصبحت هذه المشكلة المستعصية تجُسِد أكبر فشل للديمقراطيَة الأمريكيّة حتى يومنا هذا..

الديمقراطيـــة..

إن الاستقرار الإجتماعى هو العامل الفاعل فى بناء الوطن ورفعته.. يتأتّى بتأمين لقمة العيش.. ووفاق الأفراد فى مجتمع آمن يحميهم من المرض أو العجز الصحى أو السنى.. ويتيح فرصة التعليم لأبنائهم، وتحقيق تطلّعاتهم إلى مستقبل يهيئ فرص النجاح للمجتهدين منهم فى شتى دروب الحياة.. تُرسَى بذلك قوّة شعوبهم التى هى أساس الحياة الديمقراطيّة... فالديمقراطيّة هى قوّة الشعوب.. أو حكم الشعوب لنفسها... منهم.. ولهم.. وبهم.. يمارسها المواطنون تطلّعاً لتقرير أمور بلدهم بالمشاركة فى حكمها.. أو فى مؤسساتها الحاكمة... ولا يقتصر الحكم فيها على طبقة معيّنة.. إشتراكية كانت.. أو أرستقراطية... كما لا ينفرد فيها شخص بديكتاتوريّته أو بعرشه... يتحقّق ذلك إما بالتصويت المباشر لجموع المواطنين.. لإرساء قواعد وقوانين الحكم..(كما كان يفعل قدماء الإغريق فى حكم ولاياتهم فى القرن السادس قبل الميلاد).. أو كما يجرى فى العصور الحديثة.. من انتقاء من يمثلهم فى الحكم.. أى فى ديمقراطيّة غير مباشرة، تحتّم توفّر الحريّة للمواطنين فى هذا الانتقاء بالتعبير والاجتماعات من خلال قوى سياسيّة معارضة، ليختار الشعب من أفراد حكّامه ومعارضيهم من يمثلونه فى انتخابات منتظمة الحدوث...

إجتذبت الديمقراطية تعضيد الشعوب، منذ عصور اليونان القديمة إلى وقتنا الحاضر لكونها مثلاً للعدالة فى تأسيس كيان حكومى، وتنبع مثاليتها فى الإعتقاد بالحريّة والمساواه بين الناس، والحفاظ على كرامتهم... وهذا الاعتقاد هو توأم لا ينفصل عن ممارستها.. ذلك لأن الحاكم يخضع لاختيار أفراد الشعب له . ولما كان من مقدرة الحاكم الديكتاتورى ضمان أصوات الناخبين من أفراد الشعب.. ووأد أصوات المعارضين بالقهر والخوف.. لذا كانت الحريّة السياسيّة هى عامل الديمقراطيّة المؤثر... أُكتُسِبت بها عبر الأجيال الحريّات التقليديّة مثل حريّة التعبير والأديان والإقتصاد بالمقارعة السياسيّة الحرّة...

المساواه هى الأخرى معتقد قديم.. لا ينفصل عن المعتقد الديمقراطى.. فحق الانتخاب لا يعنى كثيراً إلا إذا تساوى كل صوت مع الآخر... وأن يتساوى للمصوتين نفس التأثير ، وهناك بعض النظريين ممن تنادوا بالمساواة فى الفرص وهذه تتعارض مع حريّة التعامل.. وليس من الصحيح الأخذ بها كمؤشر ديمقراطى...

والديمقراطيّة ليست سهلة التحقيق أو البقاء ، لضرورة توفر قوّتين.. إحداهما تحكم.. والأخرى تحل محلها إذا فقدت الأولى النجاح بالإنتخاب.. وهى لذلك عالية التكلفة.. لا تستطيعها المجتمعات الفقيرة.. كما يحتّم تحقيقها درجة ليست بالقليلة من اللا-أميّة.. والاستنارة.. والوعى . أسوأ ما فى الديمقراطيّة هو تعرض الساسة لضغوط مستمرّة من تجمعات لها مصالح لدعم سياساتها.. وتحقيق متطلبات العامة لجذب أصواتهم فى معركة الانتخاب التى تقرّر مصير هؤلاء الساسة... لذلك كان التنظيم والدعم المادى من وسائل الفوز.. وقد يصعب إرضاء هذه الجماعات فيما يطلبونه من منافع وامتيازات بما لا يستطيعه المجتمع... فقد ساهمت هذه التكلفة الباهظة فى فشل كثير من الحكومات الديمقراطيّة فى أفريقيا وأمريكا اللاتينيّة خلال النصف الثانى من القرن العشرين ، ففى بداية الثمانينيّات لم يتمتّع بحكم ديمقراطى إلا أقل بكثير من نصف سكان العالم...

الاكتشاف..

وطأت قدم كريستوفر كولومبس مكتشف العالم الجديد اليابسة الأمريكيّة فى عام ١٤٩٢ ، هو بحار إيطالى ولد بمدينة چنوا عام ١٤٥١ ، لا يكاد يعرف القراءة والكتابة ، إلتحق بخدمة البلاط الأسبانى بغرض البحث عن طريق بحرى إلى قارة آسيا ... هناك دلائل على أن كولومبس لم يكن أول من عبر الأطلسى فهذه الدلائل تشير إلى وصول الفايكنج " بحارة شمال أوروبا " إلى الأرض الجديدة فى العام الألف الميلادى.. وكذلك هناك دلائل عن وصول بعض سفن الصيد البرتغاليّة والإنجليزيّة خلال القرن الرابع عشر. إشتعلت مخيِّلة كولومبس منذ كان صبياً بأساطير البحّارة عن المحيط الأطلسى فاطّلع على كتب وخرائط وتَحصَّل على معلومات خاطئة من رحلات" ماركو بولو" عن وجود اليابان على بعد ٤٨٠٠ كم غرب البرتغال ، وهى مسافة قدَّر أنه يمكن عبورها بالسفن المتاحة وقتئذ فطلب المساعدة من ملك البرتغال "چون الثانى" للقيام برحلة استكشافية ، لكن طلبه قوبل بالرفض للاعتقاد السائد لدى البرتغاليين بعجز السفن لديهم عن قطع هذه المسافة ، فقضى سبع سنوات فى محاولة الحصول على مساعدة من بلاط الملكة إيزابيللا الأولى حتى حصل على اتفاق بينه وبين البلاط الأسبانى بالقيام بمهمة الاستكشاف .

فى رحلته الأولى عاونه أخواه فى جمع البحارة وغادرت الرحلة ميناء "بالوس" الأسبانى فى الثالث من أغسطس سنة ١٤٩٢ على ثلاث سفن "البنتا "و "النينا" التى قاد كل منهما أحد أخويه والسفينة "سانتا ماريا" . رست النينا فى جزر الكنارى ثم أقلعت غرباً إلى أن وصلت اليابسة فى الثانى عشر من أكتوبر سنة ١٤٩٢ بأحد جزر الباهاما التى أسماها كولومبس " سان سلفادور " .

قوبل الإرساء مقابلة ودود من قبائل الأراواك بأمريكا الجنوبيّة شمال حوض نهر الأمازون الذين أسماهم كولومبس بالهنود ، وبعد بضعة أيام أبحرت السفينة إلى "كوبا" ورست لكى يسعى كولومبس إلى مقابلة الإمبراطور الصينى المغولى إعتقاداً منه بالوصول إلى آسيا... ثم عاد إلى أسبانيا حيث رسا فى شهر مارس سنة ١٤٩٣ بميناء " لشبونه " واستُقبِل من قبل الملكة إيزابيللا وزوجها فرديناند الثانى ، إدّعى كولومبس أنه وصل إلى

جزر على شواطئ آسيا وأحضر معه بعضاً من المصوغات والذهب وعدداً من الهنود ...

كان لادعاء البرتغال المشاركة فى اكتشافات كولومبس أن أصدر البابا ألكسندر السادس وثيقة تقسيم المناطق إلى مستعمرات بين أسبانيا والبرتغال ووقّعت بين الدولتين اتفاقية بالتقسيم سنة ١٤٩٤ .

تولت الملكة إيزابيللا وزوجها الملك فرديناند تمويل رحلة كولومبس الثانية فى أسطول من سبع عشرة سفينة عليها ألفٌ وخمسمائة بحار ... ورست بين جزر الهند الغربيّة ، وفى الإبحار خلال هذه الجزر أطلقت البعثة بعض الأسماء عليها ، وتم الإرساء على شواطئ بعضها واتجهت البعثة إلى "بورتوريكو" ووصلت موقع " نافيداد " حيث دمّر الهنود القافلة وقتلوا من رجالها من استحوذَ منهم على النساء والذهب ، أنشأ كولومبس أول مستعمرة أسماها " إيزابيللا " واستكشف الساحل الجنوبى لكوبا ولم يثبت أنها جزيرة لكنه اكتشف وأبحر حول جزيرة "جاميكا " .. أنشأ كولومبس أول مقرِ استيطانى أوروبى دائم فى العالم الجديد .. أسماه "سان دومنجو" ثم عاد إلى ميناء كاديز بأسبانيا ، واستُقبِل ببرود فى البلاط الملكى لأنه لم يعثر على أرض آسيا الغنية .

أعطيت الفرصة إلى كولومبس للقيام برحلته الثالثة بعد أن بعثت البرتغال بفاسكو دى جاما إلى الهند سنة ١٤٩٧ ، تمكّن من الإقلاع بست سفن ورسا فى "الترنداد" - أرض القارة الأساسيّة - فى يوليو سنة ١٤٩٨ ... وبذلك أصبح مكتشفاً لأمريكا الجنوبيّة.

إطّلَعَ كولومبس برحلة رابعة غادرت أسبانيا فى مايو سنة ١٥٠٢ ورسا عند "المارتينيك" ثم أبحر إلى سان دومنجو ومنها غرباً إلى جزيرة "جواناچا" ثم "هندوراس" فى أمريكا الوسطى وشاطئ "بنما" ..

مات كريستوفر كولومبس فى العشرين من مايو سنة ١٥٠٦ فى أثناء محاولة إثبات حقوقه أمام القضاء الأسبانى وهو على الاعتقاد بوصوله إلى آسيا ، وكان البلاط الأسبانى قد تخلّى عنه . لكن تبقى عظمة كولومبس الحقيقية فى اكتشافه جزر الهند الغربيّة .. وأصبح العالم الجديد جزءاً من العالم الأوروبى بفضل اكتشافات كولومبس .

تعاظمت في أوروبا الروح الاستعمارية ونشطت بعثات الاستكشاف من أسبانيا والبرتغال وأرسلت الأخيرة بعثات فاسكو دى جاما وماجيلان لاكتشاف طريق بحرى إلى الشرق ، وانتعشت هذه الروح في انجلترا وفرنسا وهولندا مع تراجع العظمة الأسبانيَة في أوروبا ، وخرج الإيطالى المولد "چون كابوت" على رأس بعثة إنجليزيّة ليضع صليب "سان چورج" على أحد شواطئ الأرض الجديدة سنة ١٤٩٧ وبهذا جاء العلم الإنجليزى إلى الأرض الأمريكيّة . تعاظم دور انجلترا - التى لم تكن قوة عظمى وقتئذ - بجلوس الملكة إليزابيث على العرش وبرزت شخصيّات عظيمة في تاريخها من الأدباء والشعراء مثل شكسبير ومارلو ، وكذلك العديد من كبار التجّار وروّاد البحار الذين أرسلوا في سنة ١٥٨٧ البعثات الاستكشافية إلى الأرض الجديدة لترسوا على اليابسة التى أُطلق عليها اسم " ڤرچينيا " .. أى البكر .. تيمناً بجلوس الملكة البكر إليزابيث على العرش . وفى سنة ١٦٠٧ تأسست أول مستعمرة إنجليزيّة دائمة بڤرچينيا . تفتحت العقول للأرض الجديدة فأقبل عليها جموع الأوروبيين وأصبحت ملاذاً للجائع والفقير والمضطهد وحطت السفينة "ماى فلور "أى زهرة مايو تحمل مائة وإثنين من المضطهدين من كنيسة انجلترا فى الواحد والعشرين من ديسمبر سنة ١٦٢٠ على مرفأ "بلايموث" بخليج "كيب كود" ليكونوا أول "الحجاج " كما أطلق عليهم.

الأحـــــداث..

توالت الأحداث على الأرض الجديدة لبناء أمّة متّحدة متعاظمة القوّة :

* في سنة ١٧٧٥ بدأت الثورة الأمريكيّة من أجل التحرّر من الاستعمار الإنجليزي بقيادة جورج واشنجطن ومساعدة فرنسا انتهت بتوقيع اتفاق سلام بين بريطانيا والولايات المتحدة في باريس سنة ١٧٨٣ ، وصدّق عليها الكونجرس الأمريكي سنة ١٧٨٤ . كانت بريطانيا قد زهدت في حرب متعددة المواقع على أرض شاسعة طويلة خطوط الإمداد فجنحت إلى استقطاب القوّة الأمريكيّة المتعاظمة في مواجهة فرنسا ، وحصلت الولايات المتّحدة على حرّيتها على الرغم من عدم انتصار أحد الطرفين عسكرياً على الآخر ..

* في سنة ١٧٧٦ أعلن الاستقلال في الرابع من يوليو بولاية فيلادلفيا .

* في سنة ١٧٨١ استسلمت باقي القوّات البريطانيّة بولاية ڤرچينيا وحقّقت الولايات المتّحدة حكمها الذاتي .

* في سنة ١٧٨٩ بدأ الحكم الدستوري بتسلّم چورچ واشنجطن الرئاسة الأمريكيّة

چورچ واشنجطن

الرئيس الأمريكي الأول (١٧٨٩- ١٧٩٧) - فيدرالي

تولى الرئاسة في سن ٥٧ وتوفي عن ٦٧ عاماً.

إبن مزارع.. اشتغل في أعمال مدنيّة كثيرة أولها مسّاح للأرض ثم استدعي ليخدم عسكرياً في قيادة الجيش القاري .. بطل حرب التحرير الأمريكيّة ، الذي قاد بحكمته جنودها المهلهلين الجائعين بلا رواتب إلى النصر ، فلقب بالمواطن الأمريكي الأوّل ، حكم لفترتين رئاسيتين بالإجماع ولم يكمل الثالثة .

* في سنة ١٧٩١ أضيفت " وثيقة الحقوق " إلى دستور الولايات المتّحدة الأمريكيّة .

* في سنة ١٨٠٤ - ١٨٠٦ قامت بعثة لويس وكلارك باختراق شمال أمريكا لاكتشاف الغرب الأمريكي.

* فى سنة ١٨١٢ - ١٨١٤ قيام حرب ١٨١٢ بين أمريكا وبريطانيا العظمى لتحرير التجارة الأمريكيّة عن طريق البحر من سيطرة الأسطول البريطانى .

* فى سنة ١٨٤٥ انضمام ولاية تكساس إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة .

* فى سنة ١٨٤٦ اتفاق الحدود بين أمريكا وبريطانيا ويقضى بضم ولاية أوريجون إلى الولايات المتّحدة .

و بداية الحرب المكسيكيّة - الأمريكيّة بسبب انضمام ولاية تكساس الجمهورية المستقلة لعشر سنوات إلى الولايات المتّحدة ... ولا يعرف على التحديد من البادئ بها .. هل هو التحرّش الأمريكى بالمكسيك لضم ولايات جنوبيّة أخرى أم رغبة المكسيك فى استرداد ولايتها المفقودة تكساس .

* فى سنة ١٨٤٨ نهاية الحرب المكسيكيّة بانتصار الولايات المتّحدة واستحواذها على أراض مكسيكيّة شاسعة شملت ولايات نيو مكسيكو وأريزونا و كلورادو ويوتا ونيڤادا و وايومنج وكاليفورنيا ...

وبداية الاندفاع نحو الذهب بولاية كاليفورنيا .

* فى سنة ١٨٦١ بداية الحرب الأهليّة الأمريكية أو حرب الشمال والجنوب ... إذ أدى العداء بينهما إلى حرب استمرت أربعة أعوام وخرج منها الشمال منتصراً ومحقّقاً قوّة أمريكيّة عظمى بينما خسر فيها الجنوب كل شيئ ... وتعدُ هذه حرب الاتحاد أو حرب الوحدة الأمريكيّة التى كانت لها انعكاسات اقتصاديّة وإنسانيّة واجتماعيّة من ناحية تحرير العبيد وسيطرة الحكومةَ المركزيّة الفيدراليّة على الولايات والأفراد فى شئون الدخل والضرائب ... وكذلك انعكاسات سياسيّة لمواجهة أطماع الدول العظمى فرنسا وبريطانيا وأسبانيا فى الإنتاج الأمريكى خاصة القطن فى الجنوب ومحاولة اجتذاب كل منها الولايات المتّحدة إلى صفّها كقوّة عظمى متصاعدة .

* فى سنة ١٨٦٣ وثيقة إعلان حريّة العبيد .

إبراهام لينكولن

الرئيس الأمريكى السادس عشر (١٨٦١ - ١٨٦٥) - جمهورى

تولى فى سن ٥٢ وتوفى عن ٥٦ عاماً .

من عظماء القادة وأكثرهم إجلالاً وتواضعاً .. قارئ متميّز للكتب والناس ... عُرف بالأمانة بين جيرانه فسمّى "آب الأمين" - درس القانون وخدم لفترة واحدة كعضو كونجرس، رفض تغلغل وانتشار عبودية السود ، وآمن إمّا بالحريّة أو بالعبوديّة ، إندلعت الحرب عقب تسميته للرئاسة وهُددَ الاتحاد بكارثة لكن شجاعته وحكمته تغلبت على العقبات ، بعد خمسة أيام من استسلام قائد الجنوب انتهت حياة لنكولن بطلق نارى على يد ممثل مشهور.

* فى سنة ١٨٦٩ انتهاء مدّ الخط الحديدى عبر القارة الأمريكيَة .

* فى سنة ١٨٩٨ قيام الحرب الأسبانيّة الأمريكيّة تكسب بها الولايات المتحدة الفلبين وبورتوريكو وجوام من أسبانيا .

* فى سنة ١٩١٤ افتتاح " قناة بنما " الموصلة بين المحيطين الأطلسى شرق أمريكا والباسيفيكى غربها .

* فى سنة ١٩١٧ دخول الولايات المتّحدة الحرب العالميّة الأولى .

الحرب العالميّة الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)

كان دخول أمريكا الحرب قراراً اتخذه الرئيس وودرو ويلسون فى الثانى من أبريل سنة ١٩١٧ ذلك لتبنى ألمانيا سياسة حرب الغواصات بلا حدود فأغرقت الغواصات الألمانيَة - بلا إنذار - عابرة المحيطات البريطانيّة "لوزيتانيا" قرب الشواطئ الايرلندية فى السابع من مايو سنة ١٩١٥ المقلعة من نيويورك، وفُقد ١٢٠٠ من ركابها منهم ١٢٤ امريكى.. وفى خلال أشهر كان عدد القوات الأمريكيَة على أرض أوروبا قد فاق المليونين. وازداد عدد القطع البحريَة من مائتين إلى ألفين خلال شهور الحرب..

تكوّنت قوتا الحرب من دول الحلفاء فرنسا - بريطانيا - روسيا - إيطاليا - الولايات المتّحدة الامريكيّة - بلچيكا - صربيا - مونتنيجرو - رومانيا - اليونان - البرتغال - اليابان.. وبلغ عدد محاربيها أكثر من ٤٢ مليوناً... ومن دول المحور المانيا - اتحاد النمسا والمجر - تركيا - بلغاريا... وبلغ عدد محاربيها مايقرب من ٢٣ مليون مقاتل... بلغ عدد القتلى من الجانبين أكثر من ثمانية ملايين مقاتل بالإضافة إلى حوالى مليون وفاة من أمراض التيفوس والإنفلونزا الرئويّة وسوء التغذية والتجمّد الجليدى... وبلغ عدد الجرحى أكثر من ٢١ مليون مقاتل ومن المدنيين ٧ ملايين قتيل منهم مليون سورى وعراقي.

وضعت الحرب أوزارها بانتصار الحلفاء فى ١١ من نوفمبر سنة ١٩١٨، افتتح مؤتمر التفاوض فى ڤرساى بفرنسا فى ١٨ يناير ١٩١٩ . كان المشاركون الرئيسيون هم قادة الأربع قوى الكبرى... وودرو ولسن عن الولايات المتّحدة الامريكيّة وچورچ كليمنصو عن فرنسا ولويد چورچ عن بريطانيا وڤيتوريو أورلاندو عن ايطاليا.. كان ملموساً أن فرنسا قد خسرت الكثير من زهرة شبابها وقوداً للحرب ولحقها الكثير من الدمار والخراب... كان كليمنصو ذلك السياسى الصلب بما يتذكّره من الشروط المجحفة فى استسلام فرنسا لألمانيا فى حرب فرنسا / بروسيا سنة ١٨٧٠ - ١٨٧١ لا يرضى بمعاناة ألمانيا فقط ولكن بمنعها من المقدرة على إشعال حربٍ وإلى الأبد... وكذلك لويد چورچ الذى حضر منتَخباً على مبادىء معاقبة ألمانيا وقادتها العسكريين... ولم يكن ليؤمن أو يسلِّم لوثيقة الرئيس ولسن ذات الأربع عشرة نقطةً فى مثاليتها .

بعد ثلاثة أشهر ونصف الشهر من مرارة المناقشات اتفقت الدول الكبرى الخمس المنتصرة : الولايات المتّحدة الامريكيّة وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان على رجوع الإلزاس واللورين إلى فرنسا بإجماع الآراء ، واحتلال الحلفاء منطقة أرض الراين الألمانية لخمس عشرة سنة أو تزيد على أن تبقى منزوعة السلاح ، وتنازُلات عن مناطق لبلچيكا على الحدود ، وغيرها من أراضٍ ألمانيّة تمنح لبولندا لتساعدها فى الانفتاح البرى على بحر البلطيق.. ووسائل أخرى قطَعت أوصال ألمانيا وفَصلتها عن بعضها ، وكذلك احتلال

ممتلكاتها عبر البحار تحت وصاية عصبة الأمم.. واقتسام بريطانيا وفرنسا مستعمرات ألمانيا بأفريقيا ، واستيلاء اليابان على جزر ألمانيا فى جنوب المحيط الباسيفيكى ، وقبول ألمانيا الاعتراف بمسئوليتها وذنبها فى إشعال الحرب ، وأن يقدّم الأمبراطور السابق وكبار القادة الألمان للمحاكمة كمجرمى حرب وكان الهدف واضحاً من وضع الميزانيّة الألمانيّة فى حالة عجز تام عن القيام بأى جهد عسكرى حتى وإن تدخل فى الحدود الدنيا المسموح بها فى الاتفاقيّة.. وأبقى الحلفاء حصارهم البحرى لألمانيا . أصبح من الواضح أنه ليس هناك لألمانيا إلا أن توافق على شروط الاستسلام ، وفى نفس اليوم قام أفراد الأسطول الألمانى بأعالى البحار باحتجاج مأساوى ، إذ أنه برغم كل احتياطات الإشراف والمراقبة البريطانيّة تمكن أفراد الأسطول الألمانى من اغراقه بكامل عدد قطعه البحريّة الخمسين فى مياه الميناء...

وودرو ولسون

الرئيس الأمريكى الثامن والعشرون (١٩١٣ - ١٩٢١) - ديمقراطى

تولى الرئاسة فى سن ٥٧ وتوفى عن ٦٨ عاماً.

درس القانون وتخرّج فى جامعة ڤرچينيا ولشغفه بالقانون والتدريس فقد أكمل دراسته العليا بجامعة چون هوبكنز الشهيرة واعتلى مناصب تدريسيّة بأكثر من جامعة ، أُختير لأفكاره التحرريّة رئيساً للحزب الديمقراطى فى حملة سنة ١٩١٢ الانتخابيّة تحقّق له فيها الانتصار بالرئاسة.

فى فترة ولاية ولسون الأولى مررت وثائق هامة أثّرت فى معاملات البنوك والائتمان والتعريفة الجمركيّة والعمل وضرائب الدخل. كان لقوّة شخصيّته ومحاولاته المخلصة لتجنب الحرب أثر فى فوزه بفترة رئاسيّة ثانية سنة ١٩١٦ ، وعلى الرغم من مجهوداته كان قيام الحرب حتمياً وكان بعدها مضطراً لتسليم القيادة فى أثناء مهمة الانتصار الكبرى. وكقائد عالمى كانت النقاط الأربع عشرة التى وضعها أساساً للسلام، كما ساهمت فى إنشاء عصبة الأمم.

الفـاشــيّة..

هى حركة سياسيّة نشأت فى إيطاليا وبعض البلدان الأوروبيّة بعد سنة ١٩١٩ فى مواجهة التغيرات السياسيّة والإجتماعيّة التى تلت الحرب العالميّة الأولى مثل الإشتراكيّة والشيوعيّة . يشتق اسم الحركة من شعار رومانى قديم يتكون من فأس وحزمة من العصى .

أسس الحركة بينيتو موسولينى فى ميلانو سنة ١٩١٩ وهو القائد الثورى الإشتراكى عن فلسفة چوڤانى چنتل السابقة. تكون أكثر أتباع موسولينى من المحاربين القدماء الذين نظموا نشاطهم فى طوابير شبه عسكريّة ، واتخذوا زياً متميّزاً فى شكل قميص أسود ، كان بروتوكول التنظيم خليطاً من الأفكار اليمينيّة واليساريّة التى نادت وزكّت روح القوميّة والإنتاجيّة واللا - إشتراكية والعنجهيّة الشخصيّة والزعامة القويّة . كان لمقدرة موسولينى الخطابيّة ، وللأزمة الاقتصاديّة - فيما بعد الحرب - ولانعدام الثقة فى النظام السياسى للدولة ، وتعاظم شعور الخوف من الإشتراكيّة الفضل فى تعاظم الحركة حتى بلغ تعداد أفرادها ثلاثمائة ألف عضو فى سنة ١٩٢١ ، انتخب منهم خمسة وثلاثون لعضوية البرلمان فى نفس السنة ، وأصبح موسولينى رئيساً للوزارة سنة ١٩٢٢ .

بعد ثلاث سنوات من العنف الدموى - أحد مبادئ الحركة - صار موسولينى الديكتاتور الأول لإيطاليا بحلول سنة ١٩٢٦ ، وترأس نظام حكم فاشيستى صورى يقال عنه حكم "الدُمْيَة" تحت السيطرة الألمانيّة حتى عزل سنة ١٩٤٣ . نفذ فيه حكم الإعدام سنة ١٩٤٥ على أيدِ أفراد جناح مناوئ بعد أن فشلت حركته الديكتاتوريّة فى تحقيق الإصلاح أو التقدم المنشود ، وأدت محاولاتة الإنتشاريّة العسكريّة إلى مغامرات استعمارية فى أثيوبيا والبلقان مهدت فى النهاية إلى الحرب العالميّة الثانية .

النـــازيـــة . .

تعود التسمية إلى الآراء السياسيّة التي تبنّاها ومارسها أدولف هتلر وأعضاء حزبه الاشتراكي القومي للعمال الألمان من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٤٥ ، وقد نمت قوته سريعاً في الثلاثينيات ، فاستطاع الحزب منع منافسيه من تكوين أغلبيّة في الرايخستاج " البرلمان " الألماني ، وأصبح هتلر بحلول سنة ١٩٣٣ مستشاراً لألمانيا وديكتاتوراً لها ، وعلى الرغم من أن شعارات النازيّة مثل القوميّة ومحاربة الساميّة قد سبقت في تاريخ ألمانيا ، إلا أن العقيدة النازيّة ككل كانت من أفكار هتلر صاغها في كتابه " كفاحي " .

وللنازيّة عدة عناصر هي :

١ - العقيدة في التفرد بجنس آرى ألماني "الأوروبيون الأصلاء غير المختلطين" يفوق كل الأجناس وتخضع لهُ سدّة الحكم ، بالإضافة إلى كراهية اليهود كراهيةً تتميّز بالعنف ، والتي أدت إلى إنشاء المعسكرات الجماعيّة والهولوكوست أى محارق القرابين أو الأضحية .

٢- قوميّة متطرفة تدعو إلى توحد كل متحدثي الألمانيّة .

٣- الإيمان باشتراكيّة وطنيّة .

٤- جيش خاص سُمّي بجيش الأمان .

٥- منظمة شبابيّة تمارس الرياضات والنشاطات الشبه عسكريّة .

٦- إستعمال الدعاية المكثّفة بتوجيه چوزيف جوبلز .

٧- عرض كل القرارات على القائد الأعلى أدولف هتلر وتعظيم القوّة والنظام .

شابهت مبادئ النازيّة في ألمانيا مبادئ الفاشيّة في إيطاليا فوجد هتلر ضالته في شخص موسوليني . . . وقد أفرخت النازيّة تجمّعات صغيرة متعدّدة في الدول المحتلّة وبريطانيا والولايات المتّحدة .

الحرب العالميّة الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)

بعد أهوال الحرب العالمية الأولى، تطلّع العالم في العشرينيّات إلى الاستقرار والحريّات والرفاهية.. لكنْ يبدو أن مشاكل سياسيّة ودبلوماسيّة واقتصاديّة تُركت بغير حلول ، وطَفت على السطح بحلول الهبوط الاقتصادى العالمي في الثلاثينيّات مما ساعد في خلق جوٍ انتعشت فيه العسكريّة في ايطاليا وألمانيا واليابان التي استحوذت عليها روح الحرب . استولى على إيطاليا الشعور بالغبن فيما كسبته - من قليل الغنائم - في الحرب العالميّة الأولى مقابل مجهوداتها ، بينما كانت على الجانب المنتصر.. أضف إلى ذلك وضعها الداخلي المضطرب ، مع ضعف وهشاشة النظام البرلماني الذى أيّد حركة بينيتو موسوليني في إرساء قواعد دولة فاشيّة. أسهمت الشروط القاسية التي فرضت على ألمانيا بنهاية الحرب العالميَة الأولى "معاهدة ڤرساى" كراهية الأمة الألمانيّة لها ، وانتعشت الحركات المضادة للديمقراطيّة بل وانقلبت يمينّية قوميّة ، وحتى عسكريّة خاصة مثل تنظيم "العاصفة" بقيادة أدولف هتلر بعد الحرب مباشرة... على الجانب المنتصر في الحرب - ومثل إيطاليا - لم يقنع الكثير من اليابانيين بمكاسبها ووضعها الدولي ، وتطلعوا إلى التفرد بالقّوة على منطقة شرق آسيا ، سيطر هذا الشعور على العسكريين الذين بدأ ظهورهم في المناصب الحكوميّة مطالبين ومنفذين سياسةً أكثر عنفاً .

* في سنة ١٩٤١ هجوم اليابان على ميناء " بيرل هاربر " في ٧ من ديسمبر وقرار أمريكا بدخول الحرب ضد دول المحور "ألمانيا - اليابان - إيطاليا " .

بيــرل هــاربــر

في صباح يوم السادس والعشرين من نوڤمبر ١٩٤١ ، أبحر أسطول ياباني مشكّل من ست حاملات للطائرات وبارجتين وثلاث قطع استطلاع وعدّة مدمّرات وكاسحات وشاحنات ... في تعتيم لاسلكي باتجاه ميناء "بيرل هاربر" بجزيرة " أوهو " إحدى جزر هاواى حيث القاعدة البحرية للأسطول الأمريكي الباسيفيكي المكوّن من خمس وسبعين

قطعة بحرية بخلاف حاملات الطائرات التى لم تكن بالموقع ، وأمطرت الميناء والمطارات الحربيّة بقذائف الأسطول والطائرات على مدى ساعتين وثلث الساعة... أسفر الهجوم المباغت عن إغراق وإعطاب ثمانى عشرة قطعة بحريّة أمريكيّة وتدمير أكثر من مائتى طائرة حربيّة وقتل ألفين وأربعمائة من العسكريين وجرح ألفٍ وثلاثمائة وفقد ألف آخرين ... ولاتزال البارجة " أريزونا " راقدة فى موقع غرقها كرمز قومى ومزار سياحى .

* فى سنة ١٩٤٥ الولايات المتّحدة تُسقط أوّل قنبلة ذريّة على جزيرة هيروشيما اليابانيّة فى السادس من أغسطس .

القنبلة الذريّة على هيروشيما (٦ أغسطس ١٩٤٥) وناجازاكى (٩ أغسطس ١٩٤٥)

لا يزال الخلاف يدور حول أسباب تدمير جزيرتى هيروشيما وناجازاكى اليابانيتين بالقنابل الذريّة ، والذى قُتل فيه أكثر من مائة ألف نسمة وجرح عدد مماثل ، فلم يكن هذا الإجراء سبباً فى كسب الحرب لكنه أسرع بقبول اليابان الهزيمة التى كانت حتميّة دون اللجوء لذلك الإجراء .. إدعى المؤيدون أن البديل الضرورى كان فى غزو معقل اليابان وما سينتج عن ذلك من مذابح بشريّة غير محسوبة بين المدنيين والعسكريين ... بينما إدعى المعارضون - ومنهم العديد من العلماء الذين أعدوا القنبلة - أن ذلك الإجراء قد فجّرَ الحرب الباردة .

بعد سنة ١٩٤٥ امتلكت الولايات المتحدة الآلاف من القنابل الذريّة التى يمكن إسقاطها بالطائرات ... إضافة إلى ترسانة من أسلحة ذريّة أو إنشطاريّة تكتيكيّة صغيرة ... ثم تطورت الترسانة الذريّة إلى ترسانة هيدروچينيّة - وهى الأقوى مرات عديدة - وتسيطر على الترسانة النوويّة الأمريكيّة .

إمتلك الاتحاد السوڤييتى هذا السلاح الذرى سنة ١٩٤٩ ..وبريطانيا سنة ١٩٥٢ وفرنسا سنة ١٩٦٠ ..والصين الشعبية سنة ١٩٦٤ ..والهند سنة ١٩٧٤ .. وعلى الرغم من أن معاهدة عدم الانتشار النووى سنة ١٩٦٨ .. التى وقّعها الاتحاد السوڤييتى

مع الولايات المتّحدة وبريطانيا فقد أقدمت دول أخرى على امتلاك القدرة النوويّة .. منها باكستان وإسرائيل وجنوب أفريقيا والأرجنتين والبرازيل . بعض من مواد هذه القدرات قدمته الصين الشعبيّة .. وفرنسا التى أمدت العراق بمفاعل نووى دمرته إسرائيل سنة ١٩٨١ جواً .. ويسيطر الخوف على العالم من امتلاك بعض الدول الأخرى لبعض من هذه القدرات النوويّة وكذلك بعض المنظمات الإرهابيّة ...

نتائج الحـــرب العـــالميّة الثـانية

هدمت هذه الحرب النظام الدولى لأوروبا القديمة الذى سبق أن تلقى ضربة ثقيلة على الرأس فى الحرب العالميّة الأولى ، فقدت فرنسا دورها كقوة قائدة بالقارة الأوروبيّة كما فقدت بريطانيا مصداقيتها فى موازنة القوى وانتقل الثقل من غربى أوروبا وبرزت الولايات المتّحدة والاتحاد السوفيتى كأكبر قوّتين عالميتين .

تعاظمت الشكوك وفقد الثقة بين العسكريين فيما ينتويه كل منهما اقتصادياً وسياسياً ... كان الخوف من أطماع الاتحاد السوفيتى التوسعيّة ، وعدم رضائه عن اتفاقيات ما بعد الحرب فى شرق أوروبا دلائل لحدوث حرب باردة وضعت العالم فى حالة توتر من نوع آخر .

الضحـــايا ..

عُدّتْ الحرب العالمية الثانية أغلى حرب فى التاريخ ، ولاتوجد احصائيات دقيقة عن النتائج وبالتقريب يتراوح عدد القتلى ما بين خمسة عشر وعشرين مليوناً من المقاتلين على الجانبين ، كان أثقلها على الاتحاد السوفيتى بما تنامى إلى سبعة ملايين ونصف المليون قتيل .. تليه ألمانيا التى فقدت ثلاثة ملايين ونصف المليون والصين أكثر من مليونين واليابان فقدت مليونا ونصف المليون وباقى الدول أقل من نصف المليون لكل منها ... وخمسة وعشرون مليوناً من المدنيين .. منهم عشرة ملايين من الاتحاد السوفيتى فقط . ، وستة ملايين من الصين ، وحوالى نصف المليون من كل من ألمانيا واليابان ، أما عدد الجرحى فلم يكن له حصر .

تأسيس الأمم المتّحدة

قامت الدول الخمس الكبرى أمريكا والاتحاد السوفيتى وبريطانيا وفرنسا والصين بتأسيس هذه المنظمة الدوليّة للحفاظ على الأمن العالمى ولتحل محل عصبة الأمم غير الفاعلة. أقترح الاتحاد السوفيتى إعطاء كل من القوى الخمس الكبرى حق الفيتو "الاعتراض" فى مجلس أمن المنظمة واُتفِق على ذلك وعلى إنشاء المنظمة فى إبريل سنة ١٩٤٥ بسان فرانسسكو.

ارتطبت أحداث الحرب العالميّة الثانية بأسماء ثلاثة من الرؤساء الأمريكيين البارزين فى تاريخها وهم فرانكلين روزفلت وهارى ترومان ودوايت ايزنهاور.

فرانكلين ديلانو روزفلت

الرئيس الأمريكى الثانى والثلاثون (١٩٣٣ - ١٩٤٥) - ديمقراطى

تولى الرئاسة فى سن ٥١ وتوفى عن ٦٣ عاماً .

تلقى تعليمه المبكر على أيدى مربيات فى منزل العائلةإلى سن ١٤، التحق بجامعة هارڤارد العريقة ولم يكمل بعد ذلك دراسة القانون بجامعة كولومبيا لانخراطه فى السياسة بمدينة نيويورك.. انتُخب عضواً بمجلس الشيوخ للحزب الديمقراطى وعُين مساعداً لوزير البحريّة واستقال لقبوله منصب نائب الرئيس، أصيب بشلل الأطفال وتميّز بشجاعة نادره أثناء فترة العلاج وعاد لمزاولة السياسة إلى أن عُيّن حاكماً لولاية نيويورك لفترتين متتاليتين.

كان هذا السجل المشرف دعوى لانتخابه رئيساً للولايات المتّحدة الأمريكيّة فى أثناء فترة الكساد الاقتصادى سنة ١٩٣٢، وأعيد انتخابه سنة ١٩٣٦، وفى سنة ١٩٤٠ - ولأول مَرة فى تاريخ الرئاسة الامريكيّة - تجدّدت فترة رئاسته الثالثة..

استطاع روزفلت استيفاء متطلبات الحرب العالمية الثانية من الإنتاج الامريكى والاشتراك فى المؤتمرات العالميّة مع قادة دول الحلفاء، ثم توفى فجأة فى ١٢ أبريل ١٩٤٥ بنزيف فى المخ إثر إرهاقه الشديد..

هـــارى تـــرومـــان

الرئيس الأمريكى الثالث والثلاثون (١٩٤٥ - ١٩٥٣) -ديمقراطى

تولى الحكم فى سن ٥٦ وتوفى عن ٨٨ عاماً .

اختلطت نشأته الريفيّة بالتعليم المدرسي. ثم درس القانون بجامعة كنساس وتقدم للالتحاق بأكاديميّة وست بوينت العسكريّة إلا أنه رُفض طبياً لعيب فى بصره ثم التحق بأعمال عديدة صغيرة . اصطبغ نشاطه السياسى بأفكار ديمقراطيّة وماسونيّه ووطنيّة. تطوّع فى الحرب العالميّة الأولى وخدم بفرنسا ، رشح لمجلس الشيوخ وأمضى عشر سنوات عضواً به ورئيساً للجنة تبحث فى فساد الإنفاق فى أثناء الحرب وأبلى بها بلاء حسناً كان من دواعى اختياره على تذكرة نائب الرئيس ثم رئيساً بعد وفاة روزفلت .

باستسلام ألمانيا فى الحرب فى ٨ مايو سنة ١٩٤٥ أخذ ترومان على عاتقه التعامل فى مشاكل الحرب الباردة مع روسيا وتحجيم الانتشار الشيوعى بشرق أوروبا عن طريق مشروع «مارشال» وبآسيا عن طريق مشروع «الباسيفيكى» ، ثم قام بتوقيع معاهدة استسلام اليابان غير المشروط فى ١٤ أغسطس سنة ١٩٤٥ بعد قراره بالقاء القنبلة الذريّة على هيروشيما « ٦ أغسطس ١٩٤٥ » وناجازاكى « ٩ أغسطس ١٩٤٥ ». إعترف بدولة إسرائيل بعد دقائق من إعلان قيامها فى ١٤ مايو ١٩٤٨ .

قضى فترة رئاسته الثانيّة (١٩٤٩ - ١٩٥٢) فى مواجهات سياسيّة خارجيّة وداخليّة عنيفة . بقيام الحرب الكوريّة فى يونيو سنة ١٩٥٠ تعقّدت الأمور بالنسبه لترومان وتعاظم ضعف حكومته باكتشاف فضائح فساد عديدة فأعلن عدم رغبته فى التجديد للرئاسة .

دوايــت ديڤــيد ايــزنهــاور

الرئيس الأمريكي الرابع والثلاثون (١٩٥٣ - ١٩٦١) -جمهورى

تولى الحكم في سن ٦٣ وتوفى عن ٧٩ عاماً.

الرئيس الأمريكي الثاني المتخرّج في أكاديميّة وست - بوينت العسكريّة. من أكثر الأبطال المحبوبين في وقتهم . تَرقىَ سريعاً حتى نُصّب قائداً عاماً لقوات الحلفاء بشمال أفريقيا وقت دخول الولايات المتّحدة الحرب ، وقاد إنزال قوات الحلفاء على شاطىء "نورماندى" ثم تولى منصب القائد العام للجيش الأمريكي وقيادة قوات الاحتلال الامريكي بألمانيا ، أعتزل الحياة العسكرية وأصبح رئيساً لجامعة كولومبيا ثم قائداً عاماً لقوّات حلف الأطلنطى "الناتو"واستقال ليَجرى إنتخابات الرئاسة التى فاز بها ثم أجرى الانتخابات الرئاسيّة الثانيّة تحت شعار "السلام والرخاء" فأكتسحها بأغلبيّة .

بالرغم من عدم حماس ايزنهاور الشخصى لحركة الحقوق المدنيّة للسود إلا أنه صاحبُ قرار تنفيذ إنهاء التفرقة المدرسيّة بين البيض والسود بالقوّة العسكريّة في ضاحية "ليتل روك".

في الشئون الخارجيّة اتّبع سياسة التشدّد في الحرب الباردة مع الحفاظ على السلام ، فوعد بإنهاء الحرب الكوريّة ليَحُدَّ من الإنفاق العسكرى ووقّع معاهدة سلام سنة ١٩٥٣ دون تحقيق أى انتصار ، كما رفض إرسال قوات أمريكيّة لمساعدة فرنسا في حرب الهند الصينيّة وكذلك امتنع عن مساعدة بلغاريا عسكرياً عندما سحقت القوّات الروسيّة ثورتها.. كما أملى سرعة إيقاف حرب العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ .

بعد مؤتمر چنيف سنة ١٩٥٤ ، الذى تسبّب في انشقاق ڤيتنام ، أسست حكومة ايزنهاور حكومة ڤيتنام الجنوبيّة المناوئة لحكومة ڤيتنام الشماليّة الشيوعيّة ، ثم منظمة

"سياتو" سنة ١٩٥٤ كأول سلسلة لإنشاء منظّمة متحالفة موجهة ضد الامتداد الشيوعي في البلاد النامية ، ودعمت كذلك معاهدة العراق سنة ١٩٥٥ لنفس الغرض. في سنة ١٩٥٧ نتيجة لطلب ايزنهاور مساندة الكونجرس له للتدخل العسكري في الشرق الأوسط فيما عُرف "بمبدأ" ايزنهاور ، أُنزلت القوّات الامريكيّة في لبنان في سنة ١٩٥٨ بعد سقوط الحكم الملكي الموالي لأمريكا في العراق ، وانسحبت بلا حروب بعد ثلاثة أشهر . وانتهت حياته بعد أن هَدَّه المرض أثناء تقاعده بمزرعته بولاية بنسلفانيا.

الحادث ..

سبقتنى كلارا زميلتى الإسرائيلية إلى كاليفورنيا بصحبة زوجها واتصلت هاتفياً تحذرنى من الحضور بالسيارة حيث وادى الموت بولاية نيڤادا وحدود كاليفورنيا قائظ الحرارة فى أغسطس.. لكننى كنت مصراً على اكتشاف أمريكا من جديد ؟! فاشتريت مكيفا لسيارتى وعكفت على دراسة خرائط الطرق جيّداً ووضعت متاعنا فى الحقائب فوق السيارة وأحكمت رباطها ثم ودعنا الاصدقاء والزملاء وانطلقنا صباح يوم حار غائم السماء ، ابنتى فى المقعد الخلفى وزوجتى بجوارى.

على بُعد عشرة أميال (١٦ كم) بدأ المطر رذاذاً تصاحبه ريح خفيفة وبدأت أربطة الحقائب تتفكّك ويحدث تطايرها صوتاً مقلقاً ، أوقفت السيارة على جانب الطريق السـريع واعتليت سطحها أُعيد إحكام الأربطة.. ثم دلفت إلى مقعد القيادة وأغلقت باب السيارة وقبل إدارة محركها كان القدر يخبئ لنا صداماً رهيباً من الخلف بسيارة تقودها إحدى السيدات الأمريكيّات التى خرجت عن الطريق... تبعثرت أشياؤنا وحقائبنا فى نهر الطريق وحوله فى مشهد مخيف وفى دقائق حضرت سيارات البوليس والإسعاف والمطافئ...

إطمأننت على سلامة زوجتى وابنتى كذلك السيدة التى صدمتنا والتى كان ذراعها يقطر دماً لتهشم مقدمة سيارتها وزجاج القيادة الأمامى... ألقيت نظرة سريعة داخل حطام سيارتنا لحصر الثمين من أشياء قد نكون تركناها خلفنا... رأيت المصحف الشريف الذى أهدته لنا المهندسة رُقيّة قبل مغادرتنا بلحظات يحتضن بصفحاته أثمن هذه الأشياء.. حقيبة صغيرة منحشرة بين المقعدين الأماميين فالتقطته وقبلته وأنا أردد "والله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين"...صدق الله العظيم .

أركَبوا زوجتى وابنتى عربة الأسعاف وعندما سألنى ضابط البوليس عن حالتى أخبرته بأنى فى حالة جيّدة وأستطيع ركوب سيارته ولاداع للإسعاف.. ثم سألنى عن وجهتنا.. فلما أخبرته أن وجهتنا كاليفورنيا.. برقت عيناه وطلب منى ركوب عربة الإسعاف على الفور .

رجعنا إلى قسم حوادث المستشفى.. وحضر ستين للاطمئنان علينا.. وحمدنا الله على

السلامة فكانت إصابة زوجتى وابنتى بعض الكدمات بالعين والجسم وملخ شديد برقبتى، فتحوا لنا مسكننا وقضينا به أسبوعين فى العلاج... وفى مباحثاتى مع شركة التأمين -التى حاولت التنصل من دفع باقى أقساط سيارتى - التى دُمِّرت.. ما كان منى إلا أن أعطيت مندوبها علقة كلامية على الهاتف فى أدب الالتزام بالمسئوليّة فالأمور واضحة وسيارتى مؤمن عليها ضد الحوادث من طرف آخر.. وكان أحمد حسن صديق محاضرات هارڤارد المعين والصاحب.. اصطحبنى إلى مركز التأمين على السيارات لمعرفة موقف صاحبة السيارة التى صدمتنا وحصلنا على موقفها التأمينى لقاء ربع دولار.. كان واضحاً أن سيارتها مؤمن عليها وأن بيدنا "قضيّة كسبانه..." هى تعويض مناسب عن ضياع الوقت والسيارة والمعاناة النفسية والألم الجسدى للحادث، مع دفع كافة المصروفات العلاجيّة واستئجار سيارة وأجرة السفر بالطائرة وعهدت بالقضية بناءاً على نصيحة د. ڤاليسنتى إلى عمّه المحامى مسيو دى -لوكا الذى لم أره إلا مَرة واحدة وطمأن أطماعى فى تعويض كبير.

كنت متحفّظاً فى تصرفاتى الماليّة من ناحية الإنفاق فيما يخص القضيّة لقّلة مدخراتى.. إلى أن قال لى أحمد حسن "إدّلع بأه.. معاك قضيّة مضمونه"، إستأجرت سيارة متواضعة لقضاء احتياجاتنا وعندما قالت ابنة ڤردان الطبيب الهندى جارنا لابنتى أن سيارتهم أحسن من سيارتنا صرت أستأجر أفخم السيارات وأكبرها كل بضعة أيام!

حجزنا تذاكر الطائرة إلى لوس انجلوس واتصَلْت بأقرباء لى هناك لإنتظارى، أخبرنى ستين أنه سيلحق بى بعد فترة ينهى فيها أعماله برود أيلاند وأنه أوصى زميلتى كلارا التى سبقتنا إلى هناك بمساعدتى فى البحث عن سكن.. وبدا لى أنه مبالغ فى هذه التوصية التى لا لزوم لها أو أنه يعرف عن ذلك شيئاً لا أعرفه.

بدأنا استعدادنا لمغادرة هذه المنطقة - نيو إنجلاند - التى تحمل عبق التاريخ الأمريكى الحديث، والتى وطأتها أقدام المهاجرين من أوروبا "الحجاج" منذ مئات قليلة من السنين، ويحمل لها الشعب الأمريكى تقديراً ومشاعر متميّزة عن أية أرض أخرى فى القارة الأمريكيّة، فهذه الأرض الجديدة كانت مركزاً للأحداث التى وضعت الخطوط والشكل للحياة الأمريكيّة، ولا يباريها مكان آخر على وجه اليابسة فى العلم والتجارة...

الإنتقـــــال ..

استقبلنا أقاربنا بمطار لوس انجلوس واصطحبونا بسيارتهم إلى مسكنهم بمقاطعة "أورانج - كاونتى" التى تبعد حوالى ساعة بالسيارة عن مقر عملى ، قابلنا هناك باقى الأقارب وبعض الوجوه السكندريّة. وطالت ضيافتنا لديهم إلى أسبوعين ذلك لصعوبة إيجاد مسكن بين حى هوليوود حيث تقع مستشفى أرز لبنان "Cedars of Lebanon" وحى بيڤرلى هيلز حيث تقع مستشفى جبل سيناء " Mount Sinai " - ذلك لرفض أصحاب المساكن أُسَراً لديها أطفال .

كنا نجد اللافتة أمام المبنى "لا أطفال - لا كلاب" وأحياناً "لايهود - لاأطفال - لاكلاب" فكنت أقضى مع قريبى بعد ساعات عمله وفى العطلات أوقاتا طويلة فى البحث . . تذكرت توصية ستين لزميلتى بمساعدتى فى البحث عن سكن . . لم يكن ذلك من باب المبالغة إذ كنت أخرج أنا وكلارا وزوجها مارسيل نمشط الشوارع . . فنضع السيارة على ناصية أحدها ونترجل للسؤال بكل مبنى على هذا الجانب إلى أن نصل إلى آخره فنعبره إلى الجانب الآخر ونعيد الكَرّة رجوعاً إلى حيث السيارة . .

لم نوفق طوال هذه المدة التى لم أتسلّم عملى فى أثنائها ، بدأ الضجر يتسلل إلىّ فعزمت على النزول فى أوتيل قريباً من العمل إلى أن يفرجها الله . . تذكُر قريبى أنه كان يسكن فى مبنى يشرف عليه "رجل طيّب" اسمه "مستر لارى" فتوجهنا إليه ، كان مستر لارى هذا فى حالة سكر وسلطنه . . . ينَهْنه وهو يحتضن ابنتى "يامسكينة . . ياحلوه . . ياصغيره َ. . ماحدش عاوز يسكّنك . . لارى حيسكّنك . ." وقد كان . . حرّرنا العقد وتسلمنا المفاتيح إلى أن أفاق فى الصباح فوجدنا داخل المسكن . .

كان ستين منشغلاً وهو لايزال برود أيلاند يحاول بيع منزله هناك ، ويسوّى باقى متعلقاته القانونيّة والوظيفيّة والماليّة . . وتنبّهْت إلى أن رصيدى المالى فى تناقص مخيف ، فطلبته هاتفياً وأخبرته أن بحوزتى نقداً ما يكفى لثمن تذاكر الطائرة عودة إلى مصر أنا وأسرتى ، وسأقوم بذلك إن لم أتسلم عملى فوراً ، كان ذلك يوم الثانى من سبتمبر سنة٧٣ واليوم التالى أجازة قوميّة ، فأجرى اتصالاته وتسلّمت عملى فى الرابع من سبتمبر ١٩٧٣ .

كان موقع سكني ممتازاً بين المستشفيين ، يبعد أقل من كيلو مترين عن المستشفى الأولى وحوالى ستة كيلو مترات عن الثانية. في اليوم الأول توجهت إلى مستشفى "أرز لبنان" ، وجدت مبناها قديماً متسعاً بارتفاع دورين أو ثلاثة، والدخول إليها من خلال درج طويل ممتد على جانبيه حدائق... تشغل الحديقة يسار الصاعد نجمة داوود السداسيّة مرسومة نقشاً بالورود والأغصان.. يلي باب الدخول الزجاجي الضخم بهو متسع على جانبيه حجرات مكاتب الإدارة.. ثم عدة أقسام طبيّة مسمّاهَ بأسماء قدامى الشخصيات.

صعدت الدرج إلى الدور الثاني حيث مقرنا ومكتب د. لستر- روو ، وهو زميل مثلى أمريكي يهودى، استدعته من داخل مكتبه السكرتيرة "نينا" فخرج ماداً يده مرحّباً... كان في الثلاثينات من عمره ، طويل القامة ، عريض الصدر ، ممتلىء الكتفين ، أبيض اللون ، أشقر الشعر... ما أن وقعت عيناى على رأسه حتى هتفت "أنت زارع شعر ، إزاى وفين؟" .. كنت أُمّني نفسي وأنا في أمريكا بلد الطب المتقدّم خصوصاً في هوليوود معقل نجوم السينما حيث جراحات التجميل الحديثة بإخفاء صلعتى التى انتصفت رأسى.. فما كان منه إلا أن وضع يده فوق فمه ليسكتنى.. ونحن وسط عديد من السكرتيرات.. جَرّنى من يدى إلى داخل حجرة مكتبنا.. وقال.. "لا أحد يعرف ذلك.." أى موضوع الشعر.. "ولايصلح مثل شعرك القصير المجعد لمثل هذه الجراحة إذ يلزم الشعر الإيطالى الطويل الناعم لكى تنتشر الخصلة المنزرعة وتغطى مساحة من الرأس.. والجراحة قاسية ينتزع فيها الجراح تلك الخصلات من مؤخرة الرأس ويزرعها فى الجزء الأمامى الأصلع"... هكذا كانت بداية تعارفى مع لستر-روو.. أحسست معها بالأطمئنان إلى شخص هذا الرجل الذى صار لى نعم الصديق النصوح.. أستشيره وأعمل بتوجيهاته كلما تعرضت لموقف صعب أو احتجت لمشورة... عرفت فيما بعد أنه توأم متماثل لشقيق آخر طبيب أيضاً.. كان أحدهما يقضى عاماً في الدراسة.. والآخر يعمل لينفق عليه..

كان عملى إلى العاشرة صباحاً بهذه المستشفى على أن أكمل اليوم بالمستشفى الآخر الذى كان يختلف عن الأول فى مبناه الحديث ذى الأربعة طوابق ومساحته المحدودة نسبياً، تحيط به أرض شاسعة يعدونها لإنشاء المركز الطبى الكبير الذى سيجمع بين

المستشفيين... ومبانٍ أخرى ملحقة ذات طابق واحد أو طابقين يقع مقرنا فى أحدها ويفصلنا فناء واسع لانتظار السيارات عن مبنى المستشفى وخلفنا مركز كبير للأمراض النفسيّة من أربعة طوابق له أسم لا أتذكّره... تقع تلك المساحة الهائلة على شارع "لاسيينيجا" المشهور على مشارف حى بيڤرلى هيلز مقر نجوم السينما والمليونيرات.. وعلى بُعد حوالى كيلو متر تقع "السوق الريفيّة" التى تحتوى على كل أصناف المأكل والمشرب والملبس من النوعيّات الغاليّة الثمن لخدمة حى بيڤرلى هيلز ، خاصة المأكولات اليهوديّة "الكوشر" ولحوم الماشية المذبوحة "أى المشابهة للطريقة الإسلامية" ، ووجدت بالسوق بعضاً من يهود مصر ساعدونى فى البحث عن بعض المأكولات المعروف وجودها فى مصر مثل الزيتون الخليلى وبعض الفواكه المحبّبة لدينا مثل القشدة..

على رأس المستشفى المستطيل المبنى وبالشارع الرئيسى ينتصب تمثال "النبى موسى" وسط حديقة مسوّرة.. وهو تمثال مهيب.. عظيم المنظر.. طبق الأصل للنحت الذى أبدعه "مايكل أنجلو" سنة ١٥١٥ والموجود حالياً بكنيسة سان بترو بروما...

في تنقلاتي كنت أستعمل سياره مستأجرة "على حساب صاحب المحل... " -كما توهمت - أى قضيّة الحادث ، إستنفذت في هذا الاستئجار ما بين رود أيلاند ولوس انجلوس ما يقرب من سبعة آلاف دولار إلى أن قرأت إعلاناً في الجريدة عن بيع سيارة ، إتصلت بصاحبها الذى حضر بها إلى مسكنى... كانت سيارة "كوجر " سبور فضيّة اللون ذات باين فرشها من الجلد الطبيعي الأسود عليه نقش بارز لهذا الفهد " الكوجر " بظهر كل مقعد .. صاحبها شاب "طلياني عايق" يبدل سيارته بمجرد أن تحتاج لأى إصلاح .. إشتريتها بآلاف قليلة من الدولارات وفرحنا بها كثيراً .

أول مخالفة مرور كانت غريبة بعض الشئ .. أوقفني ضابط المرور وأفهمني أنني لم أتوقف عند منطقة عبور المشاة رغم أن أحدهم نزل عن الرصيف ولمس قدمه الطريق، فأفهمته أني لم أرَ أحداً لوجود سيارة أمامي وعن يميني .. قال أنه كان عليَّ التوقف لتوقف هذه السيارة .. ما أعظم ذلك .. أمور واضحة وسهلة وتعامل إنساني مع ضابط المرور المسئول الذى يقدّر الظروف بموضوعيّة وتسامح إذا كان الظرف ملحّاً سواءاً لعمل أو لطارئ، لكنهم لا يتسامحون في الأخطاء سواءاً العمد أو الخطأ غير المقصود ذلك لتأمين سلامة العبور ولانضباط الشارع وتنفيذ القانون على الجميع دون استثناء .. تحضرني واقعة مطاردة سيارة المرور لسيارة حاكم كاليفورنيا ممثل السينما المشهور رونالد ريجان لسرعتها وإيقافها ومخالفتها.

هذه المخالفات المروريّة ذات تأثير في مستقبل أصحاب الوظائف القياديّة فالتاريخ المروري جزء من سيرتهم الذاتيّة ومخالفة المرور معناها الاستهتار بالمقومّات الإجتماعيّة .. فإشارة " قف " عند المفارق تحتم التوقف التام وليس التهدئة .. في أحد المرّات ونحن في سيارة يقودها قريبي داخل الحرم الجامعي ليلاً لم يكن هناك أى حركة حولنا أو أى سيارة على القرب أو البعد في أى إتجاه .. عبر قريبي المفرق مُهَدِّئاً وفي الحال برزت سيارة ضابط المرور من مكمنها في الظلام وخالفه ، وفي أثناء حمل زوجتي عَبَرت بالسيارة

مُهَدِّئاً دون توقّف فبرز ضابط المرور لمخالفتى فقلت له إننا فى طارئ بسبب حملها فأفسح لنا الطريق دون مخالفة .. أتذكّر أحد الأطبّاء الهنود فى امتحان القيادة حين أشعل سيجارة فحجبت عنه رخصة القيادة وفى المرّة الثانية حجبت عنه أيضاً لوضع ذراعه على النافذة وقيادته بيد واحدة وكادت أن تحجب عنى الرخصة كذلك لأنى أغيّر حارات الطريق دون ضرورة .

- إذا تقابلت سيارتان أو أكثر عند مفترق طرق بها إشارات "قف" فتعبر التى توقّفت أولاً وإن حدث لبس فتعبر التى على اليمين أولاً ..

- إختبار موتور السيارة " Gas Test " باختبار نسبة غازات العادم متاح مجاناً .

- لإصلاح السيارة تذهب بها إلى مُحَكِّم لتقدير الأتعاب مجاناً وهو يحمل ترخيصاً بذلك من السلطات حتى لاتدفع أكثر .. وبإمكانك الرجوع إليه بعد الإصلاح لاختبار جودة العمل ..

- الطريق السريع ليس ملكاً للسائق البطئ وعليه أن يترك الحارة اليسرى للسائق السريع .. ويستعمل الحارة اليمنى أو الوسطى حسب سرعته ..

- ليس للسائق أن يملى عبوره على من يسبقه إذا كان السابق يقود بالسرعة القصوى للطريق ..

- العبور من اليمين مخالف فالعبور يجب أن يتم من اليسار ..

- لايحق لك أن تتجاوز السيارة التى أمامك داخل نفق أو فوق كوبرى صاعداً أو هابطاً ..

- أمان الطريق مكفول تماماً ، فلا قطعة حجر أو حفرة أو بالوعة عالية أو منخفضة ..

- لا تخطية للخط الأبيض الصلد " غير المتقطّع " فكأنه حائط ، لكن التخطى عند الخط المتقطّع ... رأيتهم يقودون السيارات بأقصى سرعة صعوداً إلى أعلى وهبوطاً إلى أسفل الجبل فى منحنيات حادة لايلمس أحدهم بسيارته الخط الصلد أو يعبره وإلا سقط الاثنان فى الهاوية من أعلى الجبل ..

- أماكن الانتظار متاحة بكل مبنى بعدد سيارات ساكنيه ، ومتاحة كذلك فى الطرقات حسب كثافة المرور بها بوسائل شتى منها ما رأيته فى إحدى ضواحى لوس انچلوس كى لاتنتظر السيارة أكثر من ساعة ، إذ يمر رجل المرور راكباً "تريسكل" وبيده حزام جلدى يغمسه فى دهان أبيض ويؤشر به الإطار الخلفى لكل سيارة على الرصيف ، ثم يعيد مروره بعد ساعة ليرى إن كانت مازالت مكانها فيخالفها..

- توجد آلات انتظار نقديّة فى الشوارع المزدحمة بتوقيتات مختلفة ..

- هناك أماكن خاصة بسيارات المعوقين يخالف وتسحب سيارته كل من يستعملها..

- إذا أصيبت سيارة واقفة ليس بها صاحبها فتَترُك ما يدل على رقم تليفونك وعنوانك لكى يتمكّن صاحب السيارة المصابة من استدعائك للاتفاق على إصلاحها ..

- هناك متطوّعون لإيقاف المرور لعبور التلاميذ عند خروجهم من مدارسهم يحملون علامات" قف " ويلبسون صديريات فسفوريّة ولهم كل الاعتبار والاحترام ..

- الإضاءة المتقطّعة الحمراء "فلاش" فى أعلى أتوبيس المدرسة عند نزول التلاميذ أو صعودهم معناه توقف المرور فى الاتجاهين ومخالفة ذلك شديدة..

- لراكبى الدراجات حارة خاصة أو قيادتها على يمين الطريق ولهم نفس حقوق راكب السيارة ..

- التوقف التام على جانب الطريق حتمياً إذا انطلقت " سارينة " سيارة مطافئ أو إسعاف أو بوليس ..

- عبور مزلقانات السكك الحديدية تحكمه وسائل أمن قاسية ومخالفتها شديدة الغرامة ..

- لعربات المطافئ مناطق وقوف على الرصيف تدهن باللون الأحمر ، تسحب من أمامها أى سيارة فوراً مع المخالفة الشديدة ..

- لكل طريق ساعات محدودة لتنظيفه ، لا تقف سيارة فى أثنائها و إلا سحبت مع المخالفة ..

- لبعض الطرق السريعة إضاءة تحكميّة فى عدد السيارات الداخلة إلى الطريق أى ضوء أخضر واحد لسيارة واحدة تتغيّر حسب كثافة المرور فوق الطريق السريع ..

- توجد حارات على الطريق السريع تحمل راكبين أو أكثر ومخالفة من يقود فيه بمفرده ..

- توجد حارات على بعض الطرق السريعة - باشتراكات - لضمان القيادة السريعة دون تعطل أو بالدفع عند آخر الطريق..

هكذا ضوابط "خطورة" يقدِّرها ويُطيعُها المواطن بمنتهى الحرص عليها والرغبة فى أدائها ، ترتفع بها القيمة الحضاريّة للمجتمع فالانضباط المرورى من أحد أهم المظاهر الحضاريّة للشعوب.

المواجهـــــة..

تكوّن فريقنا الطبى من د. ستين ود.ستيف ليفى الذى تعاقد مع ستين لينضم إلى فريقنا.. هو أستاذ بطب جامعة كاليفورنيا بلوس انجلوس.. وبقى مرتبطاً بالجامعة ثُمن الوقت "ساعة يومياً".. يميّزه معمل أبحاثة التجريبى المتطور والذى يشرف عليه شاب مصرى خريج علوم القاهرة هو نبيل السيّد.. تعرّفت على طبيعة ستيف ليفى شديدة العنصريّة اليهوديّة من خلال نبيل السيد فى أثناء تدريبنا بملاعب التنس العامة، فكان يخبرنى بأشياء تثير الأعصاب وتلهب المشاعر منها أنه يرسم لنبيل السيد خريطة مصر ويحدد عليها خمس مواقع هى القاهرة.. والسد العالى.. والإسكندريّة.. والدلتا.. وقناة السويس... لتُسقط إسرائيل قنبلة ذرّية على كل منها... ياللهول.. هذا الرجل قد فقد إنسانيته وتحضّره بتأثير صهيونيّته.. كنت أتحدى نبيل أن يتلفظ ستيف ليفى أمامى بمثل هذا الجنون.. أو أن يلَمّح إلى أى عداء يثير مشاعرى.. لأن ستيف ليفى كان شديد الكياسة معى.. لا أعرف هل كان وجود ستين مانعاً من أن يتجرأ على ذلك؟ أو حرصه على ألاّ تُمَس سمعة المستشفى الكبير الذى نعمل به أو إحساسه بأنى سأرد له الصاع صاعين..

هؤلاء هم نوع الصهاينة الذين اقتطعوا من أرضنا أغلاها، فقتلوا شبابها، ويتّموا أطفالها، وشرّدوا شيوخها، وبقروا بطون الحوامل من نسائها، واستباحوا حرماتها، وهدموا بيوتها، وجرّفوا أرضها، وشوّهوا تاريخها... كيف لبشر إن كان لديهم رغبة فى الحياة السويّة.. أن يكون دينهم وديدَنهم إبادة البشر من حولهم، وتدمير مؤسساتهم، ووأد طموحاتهم، واغتيال آمالهم..؟ لم تكن فكرة تفجير السد العالى من أفكار ليفى ولا هى جديدة عليهم.. فمنذ أعوام قرأت كتاباً عنوانه "أسوان" لأحد الغربيّين الموغلين فى العنصريّة يحلم كيف أن موجة مدٍّ واحدة تغرق مصر من أدناها إلى أقصاها بانطلاق مياه بحيرة السد من معقلها إذا امتد الشرخ الموجود فى جسم السد وشقه نصفين... يالهول الحلم الشيطانى العظيم.. إن هؤلاء قد انطلقوا من معاقل جهنم ليسعوا فى الأرض مفسدين.. لكن الله غلبهم وأفسد حيلهم وكتب عليهم "الشتات" أينما حلوا.

ستيف ليڤى هذا ، هو توأم العصر الحديث لساباتاى زيڤى ، هذا المسيح المزيّف فى القرون السابقة الذى ادّعى أنه سيعيد اليهود إلى بيت المقدس بعد أن شُتتوا من بابل على يد نبخذنصّر (٥٨٦ ق.م) ، فآوتهم مصر وأعطتهم مستقراً وأمناً . . . كما طردتهم روما لمؤامراتهم فى القرنين الأول والثانى ليعودوا إلى موطنهم الطبيعى والتاريخى ألا وهو "الشتات" مثل الذى أدّبهم به الله سبحانه وتعالى فى تيه سيناء أربعين سنة لشقاقهم نَبيّه موسى . . وبنفس الفشل كانت محاولة أسرة المحور الإيطاليّة الألمانيّة حين حصلت على تصريح من الدولة العثمانيّة بإنشاء مجتمع يهودى فى الجليل بنهاية القرن السادس عشر ، وكما أشرأبت أعناقهم فى أثناء الثورة الفرنسيّة تريد أن تلتف على من حولهم . . فباؤا بغضب من الله . . فهم أعداء لمجتمعات إيوائهم وسم زعاف فى محيطهم وطابور خامس بين جيرانهم .

ارتفعت روح التعاطف مع القوميّات فى أوروبا فى القرن التاسع عشر فتشجّع منهم موسى هيس وديڤيد لوزاتو وليوبينسيكر وزڤى كاليشير ويهودا الكالى لإذكاء روح التعاطف مع يهود "الجيتو" بإيطاليا وجاءت المساعدات من المتعاطفين مع الحركة مثل موسى مونتفيور وادموند روتشيلد وموريس ديهيرش لإذكاء دعوة عودة اليهود إلى الشرق الأوسط . . وتكونت حركة عالميّة نشطة لهذا الغرض حتى عام ١٨٩٧ بانعقاد مؤتمر هيرتزل الصهيونى العالمى فى مدينة بال السويسريّة ، على الرغم من معارضة اليهود الاصوليين والاندماجيين لهذه الحركة ورفض بعض أعضاء مؤتمر سنة ١٩٠٥ عرضاً بريطانياً بإنشاء وطن قومى لهم بأوغندا . . .

جمّعَت المنظمة الصهيونيّة قواها حتى ضمنت موافقة الحكومة البريطانيّة على برنامج إنشاء وطن قومى لليهود بفلسطين بإعلان "وعد بلفور" وزير خارجيتها سنة ١٩١٧ . . فأعطى من لا يملك . . من لايستحق . . قضت عصبة الأمم بفرض الانتداب على فلسطين سنة ١٩٢٢ الذى وكِّلت به بريطانيا . . بدأ العنف بين اليهود المستوطنين والعرب المواطنين بفلسطين وصوتت الأمم المتّحدة أخيراً فى نوڤمبر ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين ، وأُعلنت دولة اسرائيل - مسئولية الحركة الصهيونيّة العالميّة - فى ١٤ من مايو ١٩٤٨ .

من دَعاوَى ستيف ليفي في القرن العشرين - توأم المسيح المزيّف ساباتاي زيفي في القرن السابع عشر - أنه يعترض على إعطاء الأمم المتّحدة الدول الصغرى من أعضائها حق التصويت في قضايا العالم ومشاكله.. وأن يقتصر ذلك على الدول الكبرى.

دَعَوْته وأسرته إلى العشاء في بيتي يوم عيد "الإستر".. فاغتنمت الفرصة وأحضرت لابنته هدية عبارة عن آلة يدويّة صغيرة لتلوين البيض كالعادة في هذا اليوم.. ما أن رآها حتى انقلبت سحنته في حنق ظاهر فأسرعَت زوجته بكلمات المجاملة حتى صفا الجو ، لم أعرف إلا بعد ذلك أن هذه المناسبة هي احتفال عند قدامى المسيحيين في ذكرى يوم صلب اليهود للمسيح عليه السلام..

في بداية عملي بالمستشفى شعرت بالعداء لفريقنا الطبي ككل.. تعرّفت على بعض الأطباء المقيمين عقب فحصي لأول مريض أبلغوني عنه.. وقفنا نتناقش في أحد الأركان حين حضر أحد كبار الأطباء - القائم على علاج هذا المريض - فأخبره الطبيب الذي استدعاني بأن هناك فريقا طبياً للصدر حضر حديثاً من الشرق ، وأنه طلب الاستشارة لشكوكه في إصابة المريض بخثرة "جلطة" بالرئة.. فإذا به يشتط وأخذ يزبد ويعربد بكلمات الغضب حتى بادر أحد الأطباء بتقديمي إليه فأطفأ حدة غضبه.. وانصرف.

"شَهِّيللي يابت".. سمعتها أثناء اندفاعي من باب مبنى مقرنا المؤدي إلى فناء انتظار السيارات الفاصل عن المستشفى.. تسمّرت قدماى أعلى الدرجات الأربع المؤدية إلى الفناء استطلع... كان عجوز بدين منحن يجمع الأوراق من حول صندوق للقمامة.. وعلى بُعد خطوات منه تنحنى فتاة صغيرة تقوم بنفس العمل...

- "إنت مين؟.." قلتها بالعربيّة.. فانتصب واقفاً والتقت نظراتنا..

- "إنت مصرى.." قالها وكأنه يعرفنى..

- "أيوه.." ..

- "أنا يهودى من مصر.. كنت أعيش في القاهرة.." ...

- "وإيه إللّى جابَك هنا؟"



شَهَّيللى يابت ...

قلتـهـا فى تلقـائيّـة وأنا أنزل الـدرجـات إلى الفنـاء قـبل أن يقـولهـا هو . . . تحـاكـينـا عن ظروفنا وكان حديثه ذا شجون وكلماته يلفّها الأسى . .

- "كـان بيتنا بالـقـاهرة تقطنه الأسر اليـهـودية . . أقـام بينـنا وحيـداً يقـوم على خـدمة نفسه . . لم نشـعر بوجـوده فى مجيئه وإقـامتـه ورواحه لشـدة أدبه وانطوائه . . . كان البـيت يعج بالفتيات اليهوديّات . . جمال أخّاذ . . أنوثة طاغية . . جاذبية وطراوة . . . "

- "تعرف عن البنات اليهوديات . . ؟ "

- "أعرف . . فأنا أعيش بينهن الآن"

فـأكـمل حـديثـه . . "لـم يرفـع بصـره مـرة واحـدة نحـو أىٍّ منهنّ حتى صـار بيننا كـالأخ والابن . . وتطوّعت كل أسرة لأداء بعضٍ من حـاجـاتـه . . غـسـيل مـلابسـه . . طهى طعـامـه . . شـراء لوازمه من السـوق مع لوازم الأسـرة . . ولكـى يبـدى لنـا اعتـرافه بالجـميـل . . فـقـد نظّم سـاعـات تدريس للغة العربيّة لأبناء أسـر البـيت . . حـتى حـفظ بعـضـهم سـوراً من القـرآن . . هذا هو عبد القادر عودة الذى أعدمتموه . . . "

تعاطفت عن شعور صادق منى مع عواطفه إذ استحضـرت الحنق المكبوت داخلنا على بعض تصـرفـات المسئـولين فى أول الثـورة . . مـثـل "إقـرأ الفـاتحة بالعـكس " . . "وأنـا أسـتطيـع القراءة والاسـتمـاع إلى اعتـرافاتك فى نفس الوقت" . . والبـهلوان صـاحب الرقصـة السـوداء التى قلّبت علينا السـودان . . وإعدام عمال كفر الدوار فى محاكمات صوريّة . . وحكايات عـشق المطربات والممـثلات . . وحـرب تقـوم ووزيـرها معلق فى الهـواء . . . ومـراكـز قـوى فـتّـاكـة . . وزيارات مـقلقـة عند الفـجـر . . وسـجـون مـكتظّة . . وهتك أعـراض . . وتعـذيب حيوانى . . وتجسس خسيس . . وجعجعة صبيانيّة . . وقيادة جاهلة . . .

إنتظمت فى استكمـال عـلاجى الطبـيعى لإصـابة رقبتى فى حـادث رود أيلاند بعـيـادة أحد أسـاتذة المسـتشفى . . يهـودى اسمـه "والبين" فاجـأنى فى أول زيارة لى بقوله أنه يـعالج كـثيـر من المصـريين ممن يدّعون الإصـابة فى حـوادث السـيارات ليـتقـاضوا تعـويضـات . . لم أعلق إذ أننى أعرف أن فى هذا القول شيئاً من الحقيقة وليس إدعاءاً كله . . إستمر علاجى

أسابيع - بوسائل مختلفة - لم تتحسن حال رقبتى فى أثنائها كثيراً وأخبرنى الشاب اليهودى الذى يقوم بالعلاج أنه لايعتقد بفائدة هذه الوسائل.. كنا نتجاذب أطراف الحديث في مواضيع شتى أثناء الجلسات.. في إحدى المرات أخبرنى أن نادى لوس انجلوس للجولف يمنع انضمام اليهود لعضويته.. لم أستكمل علاجي بعيادة والبين لاحتياجى لوقت الثلاث جلسات أسبوعياً أُضْطَرُ فيها لمغادرة المستشفى صباحاً والعودة.. لكنه لم يتقاض منى أجراً..

كان بالمستشفى بعض يهود مصر ، تعرفت على سيدة تعمل فنيّة للأشعة زوجة طيار مدنى كانا يعيشان بالقاهرة .. تدفع جهاز الأشعة الثقيل المتنقّل لأداء عملها بين حجرات المرضى .. ظلّت تتذكر كلمة " تاهينى .." أى سلطة الطحينة .. ورَجتنى أن أحضر لها بعضاً منها .. وصار كل من يعرف ذلك يطلب بعضاً من سلطة تاهينى التى كنت أقضى وقتاً ليس بالقليل فى أثناء الإجازة الأسبوعيّة فى إعدادها وتعبئتها ... ويهودى آخر من مصر كان فنياً بمعمل التحاليل يلقى النكات المصريّة التى كنا نتبادلها ساعة الغداء ونقهقه بصوت عال ولا يصدق مَن حولنا أن نكاتنا تثير كل هذا الضحك... كانت بعض هذه النكات عن بخل اليهود...

(نينا) السكرتيرة فتاه يهوديَة تمتلئُ أنوثةً ودلالاً تشبه النجمة السينمائية المشهورة "باربرا سترايسند" وتتمتّع بأنوثة "مارلين مونرو " .. كان مكتبها محطة لشباب الأطبّاء يحضرون للدردشة بدعوى الاطلاع على جدول مناوباتهم ومحاضراتهم .. فى صباح أحد الأيام وأنا بحجرة مكتبي سمعت أحدهم يسألها .. "هو ده الجدع المصري؟.." ويبدو أنه كان يقرأ اسمي من ورقة إذ انقطع النقاش فجأة كأنها نبّهته إلى وجودي بالداخل .. أحسست أن طاقم الأطبّاء المقيمين "النواب" قد بدأوا يشعرون بوجودي .. هذا ما كنت أعمل له ألف حساب، لأنه لو صار بيني وبينهم سوء تفاهم أو جفاء فسينقطع نشاطي عن الأقسام ، وأصاب بعزلة تنتهي بي إلى الفشل حتى لو ساندني الكبار مثل ستين وليڤي ، فالطبيب المقيم هو العمود الفقري للنشاط اليومي بالعنايات المركزة وأقسام المعالجة ومن خلاله نتلقى التبليغات للاستشارة والرأي عن المرضى ..

غـادرت إلى المسـتـشـفى الآخـر وأثناء مـروري وجـدت رئيس النواب يبـحث عني لاستشارتي في أمر يخص مرض حماته .. توجهنا معاً إلى غرفتها حيث وجدت جمعاً من الأطبّاء المقيـمين ... كانت السيدة المريضة في حوالي الستين من عمرها .. أنيقة تصفيف الشعر و "الماكياج" ، تبدو عليها نعمة الغنى والثروة والمجتمع الراقي .. قمت بفحصها ومراجعة أبحاثاتها .. أصابها مرض خبيث بعد إجراء جراحة تجميل للثديين بحقن مادة "السيليكون" وانتشر الورم إلى الرئتين من قمتيهما إلى قاعدتيهما في شكل كرات عديدة نسميها في تخصصنا كرات المدفع " Cannon balls" إذ أنها تشبه في شكلها وأصغر في حجمها كرات البارود المستعملة في المدافع القديمة ..

تحيرّت في إبداء الرأى واخترت أكثره واقعيةً فانتحيت به جانباً وحادثته في لطف ... إنكم تصفون في تناولكم لمثل هذه الحالات ما يعرف بنوعية الحياة - أى نوع الحياة في الزمن الباقي من عمر المريض سواءاً طال أو قصر - وبناءا على هذه الفلسفة العميقة ولعدم قيمة أى إجراء جراحي ، أو شعاعي في هذه المرحلة المتقدّمة فلم يعد إلا العلاج بالكيماويّات الذى يجعل المريض أقرب إلى الممات منه إلى الحياة .. لذلك فأنا أختار عدم إجراء أى علاج يتناول الأورام .. وأفضل علاجاً للأعراض المرضيّة التى تنتابها ذلك لراحتها قدر المستطاع.. طأطأ برأسه مستوعباً كلامي جيّداً ، ثم رفعه في مواجهتى قائلاً "هل تحسب نفسك في مصر..؟ هذه بلد التكنولوچيا.. " .. إعتذرت له وغادرت الغرفة.

ما حدث لهذه السيدة - بأمر الله - كان وسيلة إنقاذى .. كنت في أثناء مرورى أتلصص النظر إليها من خلال باب غرفتها وهي طريحة فراشها ، وكان واضحاً أننى كنت محقاً في تقديرى ومخلصاً في نصيحتى ... تساقط شعرها الجميل تدريجياً ، واقتربت من الصلع ، وأصابها الهزال وشحوب الموت ، وارتعشت يداها ، وصارت تتحسس ما حولها لضعف بصرها ... إلى هذه المرحلة تجنبت أن أنظر نحو غرفتها إلى أن توفيت وجائنى يعتذر لما تفوّه به في لحظة يأس...

أكسبنى هذا الموقف مصداقيّة بين النواب فصاروا يستدعوننى للاستشارات الطبيّة

المتـابعة ، وأحـسـست بقيـمتى فإن كـانوا يتـحكّمـون فى الاسـتـدعـاءات . . إلا أنهم لا يستطيعون التصرّف بالرأى دون الرجوع إلينا خاصة الزملاء منا . . فنحن معهم فى العنايات المركّزة ، وأقسام المرضى ، والأشعة ، ومعامل التحاليل ، ومحطات التمريض ، ولا يستطيعون التحصّل على مثل ستين أو ليڤى طوال الوقت ، فنحن متواجدون معهم فى المطعم والمحاضرات والندوات ، ونقوم بالأعمال التشخيصيّة والعلاجيّة التى تعتمد على الخبرة والمهارات اليدويّة . . مثل منظار الصدر وأخذ العيّنات وإجراء اختبارات وظائف الرئة وخلافها . . وكما قالت لى مورين كالاهان "سوف لاتجد الوقت للجلوس" . .

إنهم كخليّة نحل تحدوهم الرغبة والتصميم على التعلم واكتساب الخبرات ولا يضير أحداً منهم استدعاء أى تخصص فى أى وقت ولأبسط استفهام لكى لايقع أى محظور يؤاخذ عليه . . فالمؤاخذة خطيرة . . إما لاتجديد للعقد أو الفصل فوراً وليست "وظيفة ميري يتمرّغ فى ترابها" ، فالمستشفيات تدفع الملايين من الدولارات سنوياً تعويضاً عن أخطاء المهنة التى لاتسمح بحدوثها خوفاً من المساس بسمعتها المهنيّة ، والمريض لايناقش كفاية الطبيب لكنها مسئوليّة المكان فى اختياره ، ويتعامل مع المكان بمستواه العلمى والأدائى الذى تقيّمه السلطات الطبيّه المسئوله بوسائلها الفنيّة العديدة . .

حضرت واقعة بطلها ستيڤ ليڤى . . إذ قام بفصل أحد الأطباء المقيمين شفاهه فى حضورى . . كانت الواقعة وفاة مريضة حضرت إلى قسم الطوارئ "الاستقبال" فى الليلة السابقة ، فقام بعمل الأبحاث السريعة لها ومنها الأشعة وتحليل غازات الدم . . ولخطورة حالتها تسرّع فى حقنها بعقار المورفين معتقداً أنها تعانى من ضيق تنفسى راجع إلى هبوط حاد بالقلب " أوزيما رئويّة " ولم ينتظر باقى الأبحاث ، وكانت المريضة تعانى من ضيق تنفسى رئوى " أزمة ربويّة حادة " وليس هبوطاً حاداً بالقلب . . . هذا الطبيب المقيم اليهودى المتعصّب وقفت أدافع عن موقفه وضياع مستقبله فى مواجهة ستيڤ ليڤى الذى أسكتنى بإشارة من يده . . أن ليس هناك تسامح فى مثل هذه الأمور ، فالطبيب الذى يقضى مدة مرانه فى مؤسسة طبيّة يهوديّة سيمارس مهنته فى كل مكان ، يَحُط من كرامة المؤسسة التى علمته إذا ارتكب أى خطأ ، فَتعَلُّمه وأداءه إنعكاس لمستوى المكان الذى

تعلم به . . . يا إلهي . . أنا نفسي تسرّعت في مثل ذلك الموقف في أثناء عملي طبيباً مقيماً بالإسكندريّة . . أصاب هبوط قلبي حاد إحدى مريضاتي بأوزيما رئويّة فأسعفتها بالمورفين عن طريق الوريد وليس العضل - وهذا إجراء صحيح طبياً - لسرعة إنقاذها فتوفيت وكان جزائي كلمة نصح من الأستاذ . . هؤلاء الأطبّاء اليهود يؤدون عملهم بروح إنتماء عاليّة داخل مؤسساتهم الطبيّة التي تحمل مواصفات عقيدتهم ، ولايسمحون أن يمس سمعتها سوء حتى صارت المستشفيات اليهوديّة في أمريكا تتمتّع بسمعة واقتدار لاتدانيها فيها أي من المستشفيات الأخرى . .

أثناء المرور مع بعض الأطبّاء المقيمين أطلعوني على أشعات الصدر الخاصة بأحد المرضى وتاريخ مرضه لاستشارتي وتحديد أي وسائل تشخيصيّة أخرى . . كان قراري أن هذا المريض مصاب بورم خبيث بقمة الرئة ناشئ عن تليّف قديم بها . . وبتحليل العيّنة كان قراري صحيحاً . . لم يقنعوا أو يشكروني بل اجتمعوا واتخذوا قراراً بمقابلة ستين . . وضعوه في قفص الاتهام بأسئلتهم واستفساراتهم عن كيف تكون الأمور بهذه البساطة ! وأن القسم مقصّر في تعليمهم . . فما كان منه إلا أن عقد اجتماعاً لمناظرة الحالة أمام جمع نواب المستشفي والأساتذة المشاركين وطلب مني استعراض كل ما اعتمدت عليه من أعراض وعلامات مرضيّة وأبحاثات في الإلقاء بمثل هذا التشخيص . .

ألا شكراً لمن علموني من هؤلاء الأطباء العظام من أساتذتي بالإسكندرية . . حليم زكي وعلي رضا الهنيدي ومن القاهرة عبد العزيز سامي ومصطفي الجمّال وغيرهم من الأجيال اللاحقة . . يوسف جميعي ومحمد فودة وچان أشبع ومحمد خليل وعلي طرابية . . .

هذه الواقعة كان رد فعلها نوعاً من التمّرد بين أطبّاء المستشفي . . بعضهم يرحب بقراراتي والبعض الآخر يبدى عناداً وتحفظاً حتى أني سمعت أحدهم يناقش زميلاً له بصوت عال لكي يصل صوته إلى أسماعي "نحن بلد مرتبط بالمعمل . . We are a country geard to the lab." ، وبات واضحاً لي أننا نتعامل مع المريض والمرض في بلادنا بنماء قدراتنا الذاتيّة ، والتعرف على

التشخيص بالخبرة السريريّة "الإكلينيكيّة" قبل المعمل ، وأنهم على العكس من ذلك يعتمدون على الأبحاثات والأجهزة المتقدمّة.. وظهر مما حدث بيني وبين ستيف ليڤي في واقعة تالية فلسفة كل من المدرستين وأنه لاغنى عن الجمع بينهما مادامت الوسائل الحديثة متاحة..

أُستدعيت لمناظرة مريض كان تشخيص حالته واضحاً من إصابته بصْمّامة " جلطة " رئويّة.. وضعت استشارتي كتابةً بتذكرته العلاجيّة من ضرورة البدء فوراً في العلاج بمسيلات الدم ، نفّذ الأطباء العلاج فوراً لخطورة حالته.. في اجتماع القسم لمناظرة الحالات إذا بستيف ليڤي يكرر الجملة المأثورة " هل تحسب نفسك في مصر..؟ كان عليك عمل أشعة تنقيط ذرّى للرئتين لكي تتأكد من هذا التشخيص.." وهنا كانت يد الله غالبة، إذ انبرى أحد الأساتذة المشاركين في نقاش طبي حاد مع ليڤي " هل تعني أنه يجب علينا الانتظار في مثل هذه الحالات لنتائج المعمل..؟ هذا إجراء غير واقعي لأن تشخيص مثل هذا المرض يعتمد في المقام الأول على الشواهد الظروفيّة المحيطة ، وأنه علينا البدء في العلاج فوراً ثم التأكد المعملي سواءاً كان تحليلاً معملياً أو بالأشعة ، فذلك يقتضي وقتاً لا يحتمله المريض.."

بعد تلك الواقعة صرت أتحدّى ليڤي علانيةً وبدأ الخوف يزول عني تدريجياً ، حتى أنني من شدة ثقتي بنفسي أوقفته مواجهاً له في الفناء الفاصل بين مقرنا والمستشفى في جمع من الأطبّاء ونحن رجوع مساء أحد الأيام من مناظرة حالة مريض وقلت له في تحدّ "لقد أخطأت في انتظارك نتيجة المعمل.. وكان يجب عليك البدء في العلاج بمركبات الكورتيزون فوراً فهذه حالة واضحة من الالتهاب البيني الحاد بالرئتين.." وكانت حجته أن اختبار وظيفة الرئة بالسعة الحيويّة لها قد لا يكون قد تأثّر إلى هذه الدرجة وسألني "كم تعتقد نسبة السعة الحيويّة عند هذا المريض..؟" وكانت إجابتي.. حوالي الستين بالمائة.. ظهرت النتيجة وكانت ثلاثاً وستين بالمائة...

الحـــــرب..

فى مساء أحد الأيام وعند عودتى إلى بيتى من العمل بين الساعة الخامسة والنصف والسادسة طرق أسماعى تصريح إذاعى أو تليفزيونى عن أحد القادة العسكريين الأمريكيين فى إحدى القواعد العسكريّة بكاليفورنيا يقول فيه " أن القائمين على الحكم ، والقادة العسكريين فى هذا البلد قد أصابهم الجنون.. " ولأنى لم أعرف عمّا يتحدث فلم أعِر هذا التصريح كثيراً من الانتباه.. بعد مضى بعض الوقت كانت هناك مكالمة هاتفيّة من رود أيلاند ، وأحمد حسن على الخط يقول " لقد عبرنا القناهَ وبدأنا الحرب.. " أصابتنى رجفة وقلت "سمعت لتوى تصريحاً عدائياً من أحد القادة العسكريين هنا.. " فقال.. " لا تصدق ، أنا أتسمّع لجميع محطات العالم الإذاعيّة من جهاز الموجات القصيرة الذى تعرفه فى بيتى ، وتبدو الأحداث الأولى مطمئنة ، وسأكون على اتصال بانتظام.. فلا تقلق.. "

تفرّغت كل الأسر المصريّة والعربيّة للتصنت الإذاعى ومشاهدة التليفزيون وانتظار رنين الهاتف ، حتى أن أى حدث كان لا يستغرق دقائق لينتشر لدى الجميع.. وباتت الأعصاب المتوتّرة يجافيها النوم طوال الليل فى انتظار تتابع الأحداث.. يارب.. الجميع يصلى طلباً لعونك وقدرتك أن تنصرنا فى جهادنا الحق.. وتبعد عنا غدر الأحداث.. وتسدد خطى قادتنا وتنزّههم عن الأخطاء..

ماذا فى استطاعتى هنا فى معقل الأعداء..؟ كان حلم شبابى منذ حرب ٦٧ الخاسرة أن ألقى بجسدى على ضفة القناه عند العبور.. ياحسرتى.. أين وكيف نستطيع المساهمة فى حرب انتظرناها بصبر يعجز عنه الصبر نفسه؟. هل يكفى وجود شقيقى رضا الطبيب المكَلّف..؟ وابن عمى عصمت المجنّد وابن عمى محمد.. الرائد بالجيش.. ماذا لو استشهد أحدهم أو جميعهم..؟ لاشك أنى سأكون فخوراً وأطوى أحزانى وأحتسبهم عند الله سبحانه وتعالى.. ضريبة الدم التى تُطَهر نفوس الشعوب ، تحتاجها من زمن لآخر لتغسل بها آثامها وانخراطها فى اللهو والاسترخاء والارتكان إلى التواكل والكسل ونسيان تعاليم دينها " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم " صدق الله العظيم .. هذه حربنا الحقيقية.. غير ملهاة ٦٧ .

في الصباح انتقيت أجمل ملابسي.. بدلة داكنه زرقاء اللون.. ورباط عنق أحمر.. وكأني "عريس" في زفافه.. رأيت هول الحرب في عيون كلارا المنتفخة بالدموع والمحتقنة بالدم.. وقد حضر معها زوجها مارسيل ليرعاها في انهيارها ، وليشد من أزرها المفكك الذى كانت تدّعى أنه متين البنيان الجسدى والمعنوى كضابط بالجيش الإسرائيلي.. كان نقاشنا عن مجريات الحرب حتمياً من وقت لآخر ، على الرغم من حرص كل منا على تجنب الصدام.. يعلق زوجها مارسيل بجملة أو كلمة بلغته الإنجليزيّة الركيكة ذات اللكنة الفرنسيّة "والخنافة" اليهوديّة ، وبلاهة وقصور ثقافي يشكك في أنه مهندس كما أفهمتني عند أول لقاء لنا برود أيلاند.. وليس إلا بائعاً لقطع السيارات المستعملة بإسرائيل.. إذ كان يبدى في مناقشته معي سخريته بل وكراهيته للدراسة والتعلّم.. في ساعة الغداء كنت أستقطع بعض الوقت للنزول إلى بدروم المستشفى لمتابعة أحداث الحرب من مذياع سيارتي.. بينما كان المذياع "الترانزيستور" ملتصقاً بأذن زميلتي الاسرائيلية كلارا حتى في أثناء مرورها على المرضى الذين كانوا يتعاطفون مع هذا المنظر الشاذ.

كنا نحصل على جدول المحاضرات الشهرى من مسز "ج" التي لا أتذكر إسمها.. هي سيدة مسنّه لطيفة المعاملة كانت توليني اهتماماً خاصاً.. فإذا بها تعتذر عن وجود جدول محاضرات باسمي.. توجّهت إلى قاعة المحاضرات ، ووقفت خارجها أشاهد الحضور من الأطبّاء وأنا في حالة استغراب.. حضرت كلارا ووقفنا نتحادث.. عرفت منها أن المحاضرة تبدأ بالصلاة والدعوات لإسرائيل.. وصب اللعنات على العرب ، وتنتهى بجمع التبرعات وتوزيع كوبونات التزام كل فرد أو جماعة بأداءٍ معيّن لصالح إسرائيل.. وقالت.. " لا أعتقد أنك ترحّب بحضور مثل هذه الاجتماعات.. التي لم تعد محاضرات..! " .

إجتمعنا نحن العربَ وكثيراً من الأمريكيين المتعاطفين مع قضيتنا في أكبر قاعة اجتماعات بالمدينة.. قام بعض الخطباء بإلقاء الكلمات الحماسيّة عن ضرورة مشاركتنا بكل ما نستطيع لصالح قضيّتنا وحربنا ، فكان كل من في الجمع يفرغ جيوبه بالتبرّع النقدى ويحرر الشيكات لاستكمال تبرعاته.. حتى أن بعضاً منا أفرغ ما بدفتر شيكاته إلى آخر

سنت من مدخراته.. خرجنا في تظاهريّة حارة إلى فناء قاعة الاجتماع استكمالاً للمناقشات والكلمات الحماسيّة.. كانت دهشتي لوجود جمع من الشباب الأمريكي يحمل لافتات التأييد للعرب وعليها صورة العقيد القذافي بتوقيع " شباب القذافي ..!"..

تعرّفنا ببعض أفراد عائلة " الفرا " بلوس انچلوس واشتدت الصداقة بيننا وبين باسل الفرا وزوجته - ابنة عمّه - فاطمة الفرا.. كذلك تعرّفنا على إخوته وكل منهم يشرف على نوع من النشاط التجارى بعض منه في مصر مثل مصنع للسجاد بالإسكندريّة.. وكبيرهم د. صبرى الفرا عمدة الفلسطينيين بلوس انچلوس لشهرته ورفعة مركزه الاجتماعي وعرفنا أن أباهم كان عمدة مدينة غزّة موطنهم الأصلي بفلسطين. كان نشاط أفراد هذه العائلة بزعامة صبرى الفرا مثار تقدير من كل العرب.. كان مقرّهم محلاً كبيراً لبيع الآثار والمشغولات الجلديّة المصريّة والغربيّة بشارع هوليوود ، لذلك كان لهم من الحضور ما يشجّع أى عربى على الارتباط بهم..

بدأت الحملات المسعورة بكل وسائل الإعلام على اختلاف أنواعها.. تليفزيون وإذاعة وصحافة ومنشورات وملصقات تندد بمصر والعرب.. وإن أنس فلا أنسى - ولا ينسى أى مصرى أو عربى - ذلك المذيع التليفزيوني.. كان يشن حملات العداء بالتشهير والشتائم كالثور الهائج ويقدم المساجلات بين اليهود.. ينتقيهم من السيدات اللاتى يكتسبن احترام وتعاطف المشاهد في نقاشهن الهادئ المنمق الذى تغلفة الكياسة الأمريكيّة.. وبين بعض المصريين الذين يُحْسن اختيارهم تماماً ليخدم أغراضه الخبيثة.. كان ذلك الشاب المصرى.. أهوج الحديث.. عصبياً بلا تفكير.. حتى يبدو عنصرياً.. يكيل الشتائم لليهود والصهاينه بلا أدنى موضوعيّة في شرح ساذج لقضيّة أصحاب الحق.. ويختتم مناقشاته بصيحات جنونيّه "يلزمكم هتلر.. يلزمكم هتلر.. you need Hitler, you need Hitler. "

كنا نشاهد مثل ذلك.. ونحزن على ضياع قضيّتنا بين وسائل الإعلام وحتى بين المتعاطفين معنا من الأمريكيين..



يلزمكم هتلر .. يلزمكم هتلر ..

وقف عمر السقّاف.. مندوب السعوديّة لدى هيئة الأمم وقفة الأسد الهصور يعلن قرار الملك فيصل على دول العالم من أن السعوديّة ستشارك بحرب البترول.. سمعتهم في الإذاعة يضحكون استخفافاً.. فردَ على سخريتهم بسخرية الواثق.. وانبرى هذا التليفزيونى الهائج يعلن على المشاهدين أن حرب البترول هذه حرب فاشلة.. فليس يزيد ما تستورده الولايات المتّحدة من بترول العرب عن أربعة بالمائة من جملة ما تستورده..

رأينا العجب العجاب فى محطات وقود السيارات.. صفوف طويلة تنتظر الحصول على وقود سياراتهم.. واستحكم الوضع إلى معارك بالمدي والمسدسات.. ونظَمتْ السلطات أياماً للسيارات زوجيّة الأرقام وأياماً لفرديّة الأرقام.. وسمعنا عن سيدة تبلغ السلطات أن جارتها تحتفظ بجالون من الوقود فى بيتها.. واضطرب الشارع الأمريكى.

ساقتنى الظروف قبل الحرب إلى محطة وقود سيارات قريبة من المستشفى التى أذهب إليها فى الصباح.. وجدت صاحبها أرمنياً مصرياً يدير عمله ويصيح" بالعربيّة "..

تعارفنا.. كان صاحب شركة نقل كبيرة بالقاهرة ومن "شطارته " كما يعتقدها ، أنه كان يزيد من لحامات " سُسَت" سيارات النقل ليزيد من حمولتها ويخدع بذلك السلطات.. لا يضيع لحظة عمل من بيع وقود إلى إصلاح إطارات وموتورات ومبيت لسيارات الممرضات يعاونه عدد من أبنائه فتيه وفتيات.. كنت أغادر المستشفى لملء خزان سيارتى بالوقود.. تقول السكرتيرة.. " لكن هذا ليس يومَك.. " فأقول لها " هذا لا يهم.." .. وأتوجَه إلى مسيو " آرا " الذى يشير إلىَ أن أتجه إلى خلف مبنى المحطة لأحصل على ما أريد من وقود سيارتى فى أى يوم..

يفرض قانون العمل على المؤسسات ومنها المستشفيات استخدام نسبة عمالة من السود الأمريكيين.. تعمد القائمون على ذلك بالمستشفى إنتقاءهم فى الأعمال الخدميّة البسيطة مثل ماسحى البلاط ومنظفى الزجاج وموصلى البريد والتحاليل وبعض السكرتيرات وعاملات التليفون.. فكان شعورهم بالظلم والمهانة يبدو أحياناً فى بعض تصرفاتهم.. فى إحد المَرات اقتحمت حجرة مكتبى فى عصبيّة وخوف مسز ستار –هى

سكرتيرة أمريكيّة بيضاء - تستغيث بى من قول زميلتها الأمريكيّة السوداء..
"حطلّع على جتتِك كل اللى طلّعه جدودك على جدودى.."

أثناء سيرى بإحدى طرقات المستشفى استوقفتنى سيدة وابنها الشاب تستفسرنى عن حالة زوجها المريض.. فى أثناء الحديث انطلق ميكروفون النداء فى صوت قوى ينطق إسمى المسلم "محمد" تعلنه هذه الزنجية بنبرات متحدية حتى تنبه ثلاثتنا - فى نفس اللحظة - إلى مصدر الصوت الذى تبعه رنين الهاتف اللاسلكى "البيچر" المعلق فى حزامى.. فقلت.. هذا أنا.. لكى أتمكن من سرعة الاتصال.. وأَسكَتُ الجهاز بضغطة من إصبعى.. وهنا رفع الشاب يديه محيطاً بهما وجهه فى نظرات فزع قائلاً " ..ياإلهى.. ياإلهى.."وأخذ يتراجع بضع خطوات ثم استدار جارياً وأمه تهتف باسمه قائلةً" ..يجب أن تخجل من نفسك..هذا طبيب والدك..يجب أن تخجل من نفسك.."وانطلقت خلفه..

..رحماك يارب.. ماذا وضعنى فى مثل هذا المكان وفى مثل هذه الظروف.. ولماذا.. هل ضاقت أمريكا إلا من هنا..؟ إنى أتلفت فزعاً من أى غدر يحيق بى فى أثناء سيرى فى الطرقات وأشعر أحياناً كأن أحدهم يجذبنى من كتفى.. كيف أتقن عملى وأنا أهتز بمشاعر الوطنيّة وسط هذا الجمع العدائى وفى مثل هذه الظروف القاسية.. فأنا أقضى الليل ساهراً مسهداً فى انتظار أحداث الحرب ومفاجآتها.. ماذا يدعو اليهودى ستين إلى استقدام ثلاثة أجيال من مصر ومثلهم من إسرائيل.. چان أشبع من مصر وزميله أكاى من إسرائيل.. ثم على طرابيه وزميله تشاى.. ثم أنا وزميلتى كلارا جيلبارد.. ماذا يقصد هذا الرجل..؟ ما هى نيّته..؟ حميدة.. أم خبيثة.. لم أستطع الإجابة على هذا السؤال ، لكنه كان ينأى بنفسه عما يقع أحياناً من مواجهات بيننا فكان يبدو أن كل اهتمامه هو فى الأداء الأمثل للعمل.. ذهبت فى أحد المرات إلى أحد المؤتمرات الدوريّة بطب لوس انچلوس التى تعقد شهرياً فيما بيننا وسبقنى إلى هناك ثم طلب منى انتظاره لنعود معاً بسيارتى.. أين سيارته..؟ هل تعمّد ذلك ولماذا..؟ أثناء قيادتى فى العودة أخذ يثنى على السيارة.. وأحسست بالإجابة داخلى من أنه يريد الاطمئنان على جودة أدائها لكى لا



رفع الشاب يديه قائلا "ياإلهى .. ياإلهى" ..

يصيبها أى عطل يمنعنى من سرعة الاستجابة لأى استدعاء.. لاأنكر أن عديداً من الخواطر قد راودتنى عن نيّته.. السيئ منها والحسن.. حتى إعتقدت أحياناً أنه يريد أن يرسى قواعد للسلام فى أجيالنا للمستقبل، وفى أحيان أخرى اعتقدت أنه يحاول إجراء " غسيل مخ " لمشاعرنا بمعاملته الطيبة وتقديمه أحسن الفرص للتعليم واكتساب الخبرة وإجراء الأبحاث..

كان چان أشبع من مريديه المعترفين بفضله.. ويقول عنه المرحوم على طرابية " يهودى إبن.. ك.. " لم أتأثر بالرأيين عملاً بنصيحة من بعثونى إليه.. عندما سألنى أستاذى بالإسكندرية قبل مغادرتى لها فى ١٩٧٢ عن ما أنوى فعله.. كان ردى انعكاساً لمشاعرنا لأحداث ما بعد حرب ٦٧ " سأشج رأس أول يهودى أقابله.. " وهنا قفز الرجل قفزته المعروفة عنه قائلاً " يامجنون.. عليك بالالتزام فيما بُعثت له.. لاتنخرط فيما ليس لك فلست سياسياً أو عسكرياً ولا رجل دين.. وأداؤك وتعلمك هو جهادك فى سبيل وطنك.. وإيّاك أن أعرف عنك غير ذلك.. " .

بتوالى أحداث الحرب وما بعدها.. أحببت هذا الرجل " ستين" واعتبرته أباً ثانياً لى فى العلم وأن أفعاله حميدة المقصد كيهودى أمريكى.. يحظى عمله بكل اهتمامه.. وصرت أعقد المقارنات بينه وبين ستيف ليڤى الصهيونى الشرير شديد العداء، وصاحب نظريّة إلقاء القنابل الذريّة الخمس على مصر، وخرجت بحل المعادلة من أن ستين يهودى من نوع آخر..

كنت أجلس فى المكتبة للإطلاع وعلى بعد قليل منى تجلس شلّة من أطبّاء المستشفى حول مائدة مستديرة يطّلعون.. جرى حديث مسموع بينهم عن أحداث الحرب، قال أحدهم " هل سمعتم عن الطابور السورى الذى اعتقد أن الطائرات العراقيّة هى طائرات إسرائيليّة فأطلق عليها النيران.. ويقهقه الجميع.. يرد أحدهم.. لقد سمعت أن الطائرات العراقيّة هذه اعتقدت أنه طابور إسرائيلى فهاجمته ودمّرته.. وتكرّرتْ القهقهة.. " . حرّرت ورقة استقالتى فى التو وتوجهت إلى مكتب ستين وحادثته بهدوء بأنى شاب مصرى أحتفظ بوطنيتى وسط الأحداث.. ولن أسمح لأحد بالانتقاص من هذه

المشاعر أو السخرية منها.. ولهؤلاء الشباب الحق في الاحتفاظ بمشاعرهم كذلك.. وبيننا ستكون أنت كبش الفداء.. ولن يضيرني رجوعي إلى بلدى فقد أمضيت حوالى خمسة عشر شهراً استوعبت فيها الكثير.. وقد أدّيت رسالتك نحوى مشكوراً.. وقدمت له ورقة استقالتي.. قرأها ثم طواها أمامه.. وسألنى " هل يعرفك هؤلاء الأطبّاء..؟" قلت "لاأعتقد.. يبدو أنهم من تخصّصات أخرى لم أتعامل معها أثناء الأسابيع الخمسة التى مضت على وجودى هنا".. فقال.. " اسمعنى جيداً.. إن كان هؤلاء قد فعلوا ما فعلوه عن عمد ومعرفة بشخصك لإيذاء مشاعرك.. وسأعرف.. فتأكّد من أن استقالتى ستسبق استقالتك.. فاطمئن لذلك.."

وهبنا الله فى سكننا جيرة حسنة فالأسرة عن يميننا تتكوّن من " هلجا "الأرملة الألمانيّة الأصل وابنتها "جابى" فتاة طيّبة ودود ترعى ابنتى وتلاعبها.. والأسرة عن يسارنا تتكوّن من " بَدّ" المنفصل عن زوجته التى تعيش فى لاس فيجاس وتقيم معه ابنته الجميلة " فرانسيس" وهى فى عمر ابنتى ، وقد صارتا صديقتين حميمتين لا تفترقان ليلاً أو نهاراً ، ثم أسرة أمريكيّة من "تشاك" وزوجته " أوليفيا" يعملان فى التليفزيون و يصحباننا إلى استديوهاته لمشاهدة بعض تسجيلاته ، وبالطابق أسفلنا تعرّفنا على السيدة " خيرو" وزوجها "مازن" وهى فلسطينيّة كانت فرحتها لا تقدّر عند حصولها على الجنسيّة الكويتيّة.. تجاورها أسرة أمريكيّة تعمل فى توريد أنواع مختلفة من الحيوانات مثل " الراكون " وأنواع من الثعابين وغيرها إلى استوديوهات السينما بهوليوود ، وكانت زيارتنا لهم تثير فزعنا.. وصادقت زوجتى سيدة يابانيّة شديدة المودّة وكانتا تقضيان أغلب أوقاتهما معاً ، ابنتها " ناومى" صارت من صديقات ابنتى.. وكان الأطفال يداعبونها بإطلاق اسمها مثل مواء القطط.. بالمجمع السكنى الذى نقيم فيه حمام سباحة كبير مسوّر بسور خشبى لمنع وصول الأطفال إليه.. كنت أقضى به بعض الأوقات مع إبنتى أعلّمها السباحة.. أولانا " مستر لارى" مشرف المبنى، الذى تجاوز الثمانين من عمره، وصديقته " سيلڤيا" كثيراً من الاهتمام.. عندما عرف "مستر لارى" أننى طبيب وأحتاج إلى مكتب قضى الليل يصنعه وانتهى منه فى الصباح وكان يفاخر بقوته الجسديّة، رغم سنه، بأن يرفع المقعد بيمناه إلى مستوى كتفه..

هذه الصحبة أعطتنا بعض السلوى كذلك وجود أقاربنا وكنا نزورهم كثيراً ونقضى بصحبتهم سهرات دافئة ودود ونستمتع بموائد أطعمتهم الشهيّة.. كذلك العديد من الأسر المصريّة التى تبادلنا الزيارات معها.. كانت أسرة " سيد الشرقاوى" وزوجته اليونانيّه "مارو" أخفهم ظلاً ، كانا ثنائياً مثيراً فى تطابق قامتيهما القصيرة البدينة المتكوِّرة ، وتصرفاتهما المنطلقة بلا تحفظ. كان سيد الشرقاوى يمتلك محلاً للتصوير بعمارة سكر فى شارع سعد زغلول بالإسكندريّة قبل هجرته لأمريكا ، وكانت معرفته وثيقة بأساتذة كليّة الطب القريبة من محله ، خاصة قسم التصوير الطبى بها.. وكم تندّرنا معاً على دعوات العشاء بأحوال وظروف الحياة بينهم.. إشترى سيد الشرقاوى منزلاً قديماً من طابقين بآلاف قليلة من الدولارات.. وصار يقوم بإصلاح كل شيئ فيه من سباكة ونجارة وكهرباء وحديقة.. إذ من المعتاد قيام رب الأسرة بهذه الأعمال فيشترى لفافة من الأدوات تحتوى على كل ما يساعده فى أداء هذه الأعمال فى سهولة واستمتاع. كان يضع سلماً على واجهة المنزل ويبدأ إصلاحاته بملابسه المصريّة الداخليّة بعد عودته من عمله .. غيرَ مبالٍ بأحد.. حتى أعجب به سكان الشارع فكوّنوا فريقاً منهم لمساعدته إلى أن تم تشطيب المنزل وارتفعت قيمته الشرائيّة إلى ما يقرب من الضعف.

"أنت الذى وضعت القنبلة على سلّم المستشفى الخلفى.." صدمتنى العبارة التى واجهتنى بها إحدى الممرضات وأنا بين أطبّاء العناية المركّزة.. دارت الهواجس فى ذهنى بسرعة البرق واستوعبت كل شيئ فى لحظات.. فى ظل الظروف الحاضرة.. "يعملوها.." ويتهموننى بمحاولة تخريبيّة "أروح فيها.." نظر إليها أحد الأطباء المحيطين بى فى استنكار فتضاحكت وانصرفت.. كانت إدارة الأمن بالمستشفى تجرى بعض اختبارات الطوارئ، ومنها الإعلان المفاجئ عن وجود قنبلة على السلّم الخلفى للمستشفى، لكى تختبر درجة الاستعداد والإنضباط فى هذه الأحوال..

يالهول ما نشاهده على شاشة التليفزيون.. طائرات فى حجم الجبل.. لا تكاد تفارق سطح الأرض من تحتها فتطير فى انخفاض مخيف وكأنها تزحف لا تستطيع الإقلاع وستحط على الأرض ثانية من عظم حملها من عتاد حربى.. أين "سيندلق" هذا الموت؟



أنت الذى وضعت القنبلة على سلّم المستشفى الخلفى ..

لاشك فوق رؤوس إخواننا وأبنائنا على الجبهة.. طائرة تلو طائرة.. هدية الخمسين ولاية.. ويتشنّج ذلك التليفزيونى - ربيب جهنم - نشوةً وفرحاً وافتخاراً.. هذه من ولاية كذا.. وهذه من ولاية كذا.. كل هذا الأمداد ولسنوات طويلة قبلها..

لماذا.. لماذا تفعل أمريكا ذلك.. هل قتلنا أبناءها ؟.. هل إستعمرنا بلادها..؟ إنهم يسيطرون على مقدرات أرضنا بكل السبل ، ومع ذلك ينكرون علينا بناء السد العالى من أجل كفاية شعوبنا ورفاهية أبنائنا ويزرعون كتلة سرطانيّة فى جسد أوطاننا يمدونها بالمال والعتاد لتحطيم قدراتنا وكتم أنفاسنا.. لا يراعون مواثيق حرب أو سلام إلا ما خدم منها أطماعهم.. هل تناسوا كيف نشأت بلادهم.. أين العهود ومواثيق الحقوق التى حاربوا من أجلها ، وبنوا أمة لم يشهد التاريخ مثلها.. أم هى أطماع الصهيونيّة التى تسرّبت إلى مجتمعاتهم وسيطرت على أفكارهم.. كنت أستغيث بأحمد حسن كلما شاهدت هذه القلاع الطائرة.. نقضى ساعات الليل على الهاتف يُهدّأ من روعى ويبعث الطمأنينة والهدوء إلى نفسى بكلماته المشجِّعة..

خفّف هذا المذيع الشيطان من هوجائه بعد أن أحس بعظمة قتالنا على الجبهة ، وتأثير حرب البترول على المجتمع الغربى والشرقى، وصار يدلّس فى برامجه التليفزيونية بعرض مشاهد مصطنعة عن الحرب مثل مشهد بعض الجنود المصريين يقلهّم قارب فوق مياه القناه ويعلن " لقد ابتلعوا كبرياءهم وأتو إلى الجنود من أعدائهم فى طلب بعض الماء" .. ومشاهد أخرى أخبرنا أقرباؤنا أنها من حرب ٦٧ ..

إفتضح التدخل الأمريكي السافر فى الحرب بظهور أسلحة الترسانة العسكريّة الأمريكيّة المتطوّرة لضرب قواعد الصواريخ المصريّة بقنابل الليزر شديدة إحكام التوجيه.. يأتون على شاشة التليفزيون بمشاهد كاملة لالتفاف الجنود الإسرائيليين حول هذه القواعد وتسلّلهم من بين الأشجار.. ثم إحكام التصويب.. وينبه المذيع المشاهدين إلى قرب الانطلاق.. وإذا بعمود هائل من دخان شديد السواد يقتلع الأحياء ويتصاعد إلى السماء كالمارد كأننا نشاهد أحد لقطات الأفلام..ثم التقاط الأقمار الصناعيّة الأمريكيّة لموقع " الثغرة" فكان الخبراء العسكريون الأمريكيون يشرحون بالرسم على شاشة

التليفزيون كيف سيجرى اختراق القناه بالقوات الإسرائيليّة وكأنهم يقولون : هذا من عملنا وسيتم دون مقدرة أحد على التعرض له ويرسم المقدم للبرنامج خطين على القناهَ في شكل مخروط رأسه فى الضفة الغربيّة لها وقاعدته فى سيناء شرقها . يأتون بمشهد لجولدامائير وموشى ديان يشير بإصبعه تجاه غرب القناه . . نحن ذاهبون إليهم لتكسير عظامهم . . أصيح . . "يجب علينا أن نخبرهم فى مصر بذلك . . يبدو لى أنهم غير مدركين لأبعاد هذه الثغرة . ." فيرد أحمد حسن " هذا حديث المتخوّف البعيد عن الأحداث . . كيف لك بهذا الاعتقاد . . لم يعبر القناهَ من الثغرة إلا ثلاث دبابات إسرائيليّة جارى تصفيتها من قِبَلِ قوّاتنا . . وقد سمعت ذلك من إذاعتنا . ."

إقتربت منى كلاراً بعَينيها الدامعتين وطلبت الحديث معى فى أمر يخص الحرب . . قالت أن أستاذها "برادرمان" قد حادثها من إسرائيل عن سقوط طائرة ابنه المقاتل على الجبهة . . وأن جميع أفراد عائلته هناك يُصلّون ليل نهار أن يكون سقوطه على الجبهة المصريّة . . وليس الجبهة السوريّة . . لذلك فهى ترجو منى أن أتحرّى عنه فى مصر . .

ياللعربدة . . ماذا أقول لهذه السيدة ؟ . . هل أبحث لهم عنه ماداموا يعهدون فينا هذه الإنسانيّة والطيبة . . ؟ ولماذا تكون إنسانيّة وطيبة ولا تكون عبطاً وبلاهة . . ؟ كيف تعتقد أننى لن أضلّلها . . وهل يجب على ذلك أم لا . . وهل يعتقدون أن فى وجودى بينهم إلتزاماً من نوع ما ؟ لقد طاف بخاطرى وللحظة صديقى وزميلى الطبيب فى الجيش المصرى صاحب الرتبة الكبيرة . . من أنه قد يستطيع مساعدتى فى ذلك الأمر . . لأنه راجل طيّب وإنسان وأنا راجل طيب وإنسان وكلنا راجل طيّب وإنسان . . كيف نتخلص من جلودنا الطيّبة هذه . . وهم يحرقونها بالنار . . ؟ نعامل أسراهم بطيبة وإنسانيّة وهم يهشمون عظام الأسرى منا . . ويطلقون على رؤوسهم النار فوق حافة المقابر الجماعيّة كما يطلقون كلابهم تنهشهم أحياء . . ويمزقون أجسادهم تحت جنازير الدبابات . . فلأكن طيّباً إنساناً فليس لمشاعر الإنسانيّة إرتباط بعداء الحروب . . لكن ماذا لو أَقدمت على ذلك ؟ هل أضمن سلامة موقف صديق عمرى إذا قام بهذا العمل ونحن فى أتون الحرب ؟ قد تشتبه فيه السلطات . . هذا الرجل الطيّب وتحاكمه .

كل ذلك من أجل كلارا الضابط فى الجيش الإسرائيلى وأستاذها هناك.. ألم أشعر بالحنين لأكون مقاتلاً فى حرب العبور المقدّسة؟ هل من الإنسانيّة أن أغرق نفسى وبلدى فى المجاملة إلى هذا الحد ؟ أليس هذا من الأسرار العسكريّة ؟ لقد جمعتنى بالفعل طائرة الحضور من مصر بطبيب إسرائيلى قمنا معاً بإنقاذ حياة إحدى راكبات الطائرة.. لكن هذه حرب.. فلتكن إنسانيّتك داخل حدود مهنتك ولا تتعداها إلى حدٍ إيذاء الوطن.. فكيف أعرف ما قد يصير..؟. قد سبق أن سمعنا عمن قدَّموا خدمة أو مجاملة أثناء تواجدهم خارج مصر بدعوى زمالهَ أو صداقة فإذا بهم يغرقون إلى آذانهم فى أعمال تجسسيّة..

هذه الكلارا تعبّر عن اشتياقها لمشاهدة الأهرامات.. هل لعشقها مصر وأهلها؟ أم لإعتقادها أن جدودها قد بنوا الأهرامات سخرة وعبودية لفرعون مصر؟.. ، رغم اعترافها أن مئات السنين قد مضت بين بناء الأهرامات ودخول اليهود مصر لاجئين ومعوزين..

الشـهـيـد..

سقط الشهيد.. سقط الشهيد البطل.. سقط أغلى الثلاثة الذين يحاربون على الجبهة والذين استودعتهم عند الله من قبل.. سقط الهمام الشهم صاحب الابتسامة الحلوة.. والصوت الحنون ، والملامح المصريّة الجميلة ذات السمرة الخمريّة كماء النيل.. سقط الرجل الشاب الذى قاتل فى ٦٧ ، وقضى شهراً فى كهوف سيناء مع ثلاثة عشر من أقرانه بلا زاد ولا ماء.. يسترشد بالنجوم فى عودته إلى القناة . أُستُشهد ابن عمى الرائد البطل ومعه ستة وعشرون من صحبه الشهداء بصاروخ أمريكى غادر فى الرابع عشر من أكتوبر ٧٣ ، وترمّلت زوجته وتيتّمت بنتاه.. قبلها بثلاثة أيام حضر إلى القاهرة ومعه رهط من الأسرى الإسرائيليين، وقطعة من طائرة للعدو يحتفظ بها للذكرى، وليشاهدها أهله وإخوانه . إتصل بأبيه معبّراً عن فرحته بالعبور ، كما اتصل بزوجته ليعرف أن الله رزقه بمولودته الثانية فأسماها – دون أن يراها – " هدية الله ".. كنت فى عملى عند وصول الخبر.. خفْت أن أنهار وأبكيه أمامهم.. أسرعت إلى حيث سيارتى أغلقها على نفسى فى الظلمة وأنطلق أناجى شبابه الراحل فى مثواه الأخير.. رمال سيناء على ضفة القناة بالسويس..

أُستُشهد عمّى فى صباى على أيدى الإنجليز بمنطقة الكاب فى بورسعيد عام ٤٦ .. بذلك يكون العم وابن أخيه شهداء مصر من عائلتنا.. نحن أبناء هذا الوطن نشعر لذلك بالفخار.. نحن أبناء الطبقة المتوسّطة وقود حربها ودعامة مجتمعها.. لانسعى إلى الاختباء فى مواجهة واجب أو أداء عمل ، كما تسعى بعض الطبقات.. فكم سمعنا عن طائرات مروحيّة هبطت على الجبهة لتنقل أحد الأبناء بعيداً عن ميدان المعركة.. لاأتصوّر كيف يواجهون أنفسهم وأبناءهم وأصدقاءهم ومجتمعهم بعد سنوات.. لم يكن شهيدنا البطل مجبراً لخوض حرب ٧٣ ذلك لخوضه حرب اليمن و٦٧ والاستنزاف.. لكنه تقدّم بفدائيّة ووطنيّة مخلصة ليدفع عن وطنه الأذى، ويعلى برجولته شرف أهله ووطنه وافتخار مجتمعه وأصدقائه به..

حمل الشهيد الرائد محمد على عبد الرسول حياته فوق كفيه مقتدياً بصحابة الرسول الكريم ﷺ .. وأسلمها إلى بارئها فى اطمئنان، وحملت نجمة سيناء ذكراه فوق صورته فى المتحف العسكرى بالقلعة.. بين أحباء له استشهدوا فى ريعان شبابهم.. إثنا عشر من صحبته فى كهوف سيناء فى حرب ٦٧ ، وستة وعشرون غيره اقتلعهم ذلك الصاروخ الغادر فى حرب السويس ٧٣ ..(ولا تَحسَبَنَّ الذين قُتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربِهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألاّ خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) .. (من المؤمنين رجالٌ صَدَقوا ما عاهدوا الله عليه.. فمنهم من قضى نحبة ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) ..صدق الله العظيم

. ما أعظم القرآن ربيع القلوب.. لم يغادر كبيرة ولاصغيرة إلا أحصاها.. يُرطِّب نفوس المؤمنين بالصبر والاحتساب.. يلهمهم الحكمة ويهديهم إلى الصواب (وبشر الصابرين.. الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) صدق الله العظيم.



الشهيد ..

رمال سيناء بالسويس ١٤ أكتوبر ٧٣

الجهـــــاد..

التف حولى طلبة كليّة الطب فى انتظار بدء محاضرتى.. إنطلق أحدهم ملقياً هذا السؤال.. هل ستعلنون الجهاد..؟

لم يكن سؤاله مباغتاً لى فقد كانت مشاعرى طوال سنوات المعاناه ومنذ حرب فلسطين ٤٨ متعطشة لهذه الكلمة.. " الجهاد ".. تصورتها فى كل حرب مرّت على البلاد، حتى حسبت أنها تمس شغاف قلب كل مؤمن عاش أحداث هذه السنوات الطويلة، وكنت أقتفى أثر الكلمة إلى منشأها الحديث فى كتائب المجاهدين خلال حرب فلسطين التى شوهتها الجيوش.. ونجحت كتائب الجهاد فى الإبقاء على أثرها فى قلوبنا، فبعثت قضيّة الوطن العربى حيّة حتى وإن لم نستطع إنقاذها بالأيدى، فاستشعرناها فى كتائب الفدائيين مرّة بعد مرّة وطردنا الإنجليز من بلادنا وفى حرب الاستنزاف بعد هزيمة ٦٧ فمهّدت إلى حرب العبور فى ٧٣ .

الجهاد.. إذكاء لروح المقاومة، والانتفاض للحق فى عقل وجوانح كل مواطن، حتى تهب جموع البشر حاملة ما تستطيع من عدة فى اتجاه خط التماس مع الغاصب للأرض والعرض، لتظل شعلة الكفاح متّقدة لا يغمض فى نورها جفن ولا يهمد فى نارها جسد.. حتى وإن فنيت الحياة رخيصة لوجه الله والوطن.. فالجهاد إنكار عظيم للذات وما تملك.. به تنهار قوى الغاصب يأساً وقلة حيلة، وبه نقتدى برسول الله ﷺ وصحبه الكرام.. فالإجابة على مثل هذا السؤال ليست بالإجابة السهلة، فليس يتأتى الجهاد بالإعلان عنه لكنه استشعار بتراكمات يشعر معها المؤمن أنه قد حان الوقت.. فيهب مع أقرانه لانتزاع الحق ودحض الباطل .. وقوده الإيمان القوى الثابت الذى لا يتزعزع بأحداث الدنيا التى امتلأت بالمغريات والأهواء والمتعة وباللعب على مستوى الفرد والجماعة. تأكد لى من هذا التساؤل ما كنت أشعر به مسبقاً فى داخلى من عظم معنى " الجهاد" وفعله فى نفوس الأعداء.. ترتجف قلوبهم وترتعد فرائصهم بذكره وذكراه.. وصرت أمنّى نفسى متى يكون هذا الوعد إن كنتم صادقين؟..

كان أداء العمل لا مناص منه، حتى وإن أجبرني الواجب للعمل مع زملاء لاتجمعني بهم أرض مشتركة.. بل تفرّقنا أرض مشتعلة، أغلبهم من الشباب اليهودي متأجّج العداوة عدا قليل منهم.. صرت أبحث عن أسماء مسيحيّة أقضي وقت فراغي بينهم خاصة ساعة الغداء، التي طالما قضيتها وحيداً بين الجموع الغفيرة من العاملين يتحادثون ويتضاحكون.. تكوّنت بدافع الظروف شبه صداقات بيني وبين بعض الأطبّاء المقيمين الذين يتدربون فترة شهرين بقسمنا منهم يهودي خفيف الظل مسالم.. ومسيحي جاد صارم، وفشلت الصداقة الثالثة مع آسيوي يتملّق الجمع المعادي..

بعد أن غادرنا مبنى إقامتنا الأوّل.. كان لي مقر مؤقت يجاور معمل أبحاث التنفس، وبجواره فنيّو العلاج التنفسي، فكنت أحاول التعرف إليهم وبناء صداقة معهم.. أغلب هؤلاء من الزنوج الأمريكيين أو من المكسيكيين متحدثي اللغة الأسبانيّة.. أحدهم من هاواي.. لا يتحدث طوال وقته إلا عن الجنس ولا يفقه من أمور الحياة إلا متعتها.. إحتقرته وأهملته والثاني أمريكي مسيحي كما يبدو من اسمه.. شكوت له عدم استساغتي للطعام اليهودي والطعام المجمّد بالمطعم.. أشار بمصاحبته للغداء بالكافيتريا حيث الطعام طازج.. ساخن.. متنوّع.. خاصة ساندويتش "الكورنبيف" يكلّف ضعف ثمن وجبة المطعم.. صرنا نجتمع معاً على الغداء نستمتع بالوجبة الساخنة واحتساء القهوة الأمريكيّة مع السيجارة.. في كل مرّة كنا نتجاذب أطراف الحديث، وعرفت أنه من أب مسيحي وأم يهوديّة.. خلال أسابيع قليلة من تعارفنا وجده ستين يدخن بمعمل وظائف الرئة.. ففصله في الحال..

أمّا الثالث فكان إيرانياً يدعى "محمود" جمعتني به بعض الجلسات القصيرة، تساءلت خلالها عن الشيعة.. وعدم إيمانهم برسالة محمد والخلفاء الراشدين.. فكان يعبّر عن مرارته لعدم فَهْمنا، وتجاهلنا الشعب الإيراني وجهلنا بمعتقداته، وقال أنه مسلم موحد بالله مؤمن برسالة محمد مثله كالكثير من الشعب الإيراني وأن المذهب الشيعي يتفاوت في معتقداته مثله مثل باقي المذاهب الإسلاميّة.. كان محمود هذا منطوياً متزمّتاً.. فتركته لحاله.. كذلك لعدم إتساع ثقافتي في أمور المذاهب ثم إحساسي بوجود فارق إجتماعي كبير في المجتمع الأمريكي بين فئة الأطبّاء ومثل هذه الفئات..

دفعنى الحديث مع محمود هذا الشاب الإيرانى إلى الاستزادة من معرفة المذهب الشيعى.. لم أندم على معرفة قدر معرفتى بالمذاهب فى الإسلام، ولا أعنى المذاهب الفقهيّة الأربعة، وإنما أعنى الفِرَق والتمذهب المغرض.. فهى معرفة غثّة تعافها نفس المؤمن بدين الله الحنيف وبالله الواحد الأحد ورسوله الأمين محمد ﷺ .. ولعلى قد تفهمت أن المخلوق المتعلّم.. أو المثقف.. أو المستنير قد وهبه الله بذلك ما يستطيع به الاهتداء إلى طريق الصواب فى اختيار دينه.. وأن الفقر والجهل والحروب والاضطهاد هى آفات إنسانيّة تضلل الناس عن طريق الهداية..

الشيعـــــة..

هى عقيدة يعتنقها جمهور المذهب لمشايعة - أى مناصرة - أحقية سيدنا على بن أبى طالب فى خلافة الرسول محمد ﷺ فهو الإمام الأكبر ، لذلك جعل الشيعة الإمام - فى هذا المذهب - ركن من أركان الإسلام .

الإماميّة الشيعيّة هذه هى التى تعيش بيننا الآن فى أغلب دولة إيران والعراق وبعض من لبنان والهند والجمهوريات الإسلاميّة فى روسيا . ليست الإماميّة الشيعيّة فرقة واحدة فمنها التى تؤمن بعودة الإمام بعد موته الذى هو أحد اثنى عشر من سبط على بن أبى طالب وابنيه الحسن والحسين ثم على زين العابدين بن الحسين ونسله محمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعلى الرضا ، ومحمد الجواد ، وعلى الهادى ، والحسن العسكرى ثم محمد المهدى المنتظر وهو من ينتظره الشيعة للإمامة لذلك سميت بالإثنى عشريّة .

عند أغلب جمهور المسلمين يُعْدُّ التشيّع أحد ثلاثة : إما تشيّع عاطفة وتعصب وحب وغضب لعظم ما أصاب أهل بيت على بن أبى طالب من تقتيل ونفى ومهانة ، وإما أن يكون التَشيّع مذهباً سياسياً لأن جمهورَ الفرس قد أخذ به بينما لم يأخذ به جمهور المسلمين ، فالفرس أنسباء الحسين الذى تزوّج من شهربانو " سلافة" ابنة الملك الفارسى "يزدجرد" بعد أن أُسِرت فى حروب المسلمين ، فتعصّب الفرس لعلى زين العابدين ، لكونهم أخواله ، لذلك فالمذهب أقرب إلى العصبيّة السياسيّة .. أما كون الشيعة عقيدة دينية فذلك عند جمهور المسلمين إعتقاد خاطئ لتأويل بعض من أحاديث الرسول ﷺ لصالح هذا الاعتقاد ، فإمامة على عندهم حتميّة ، وخلافة أبو بكر وعمر وعثمان باطلة بل هم الجبت والطاغوت أى الكفرة .. يدعون فى صلاتهم بذلك ..

فى الشيعة توافق مع السنّة فى أمور الدين الكثيرة غير أن موضوع الإمامة هذا قد خلق من الفرقة ما يهز أركان الدين .. بل يذهب بعض الغلاة منهم إلى أمور تشوّه بعض المناسك .. فصلاة الجمعة معطّلة عند بعضهم لغياب الإمام وكذلك صلاة العيدين ويفضلون الصلاة فى بيوتهم .. وأيضاً فى بعض نواحى الزكاة .. ويبيحون زواج المتعة وهو زواج مؤقت على أنه ضرورة للمسافر الذى يطول سفره ففيه عصمة له .. ويرتكنون فى ذلك إلى بعض الروايات التى تقول أنه كان معمولاً به فى أيام النبى ﷺ ولما قيل أن النبى

قد نسخه وأن عمر بن الخطاب حرّمَه لما فيه من مهانة وعملاً بنسخ النبى له ، قالوا أنه ليس لعمر أن يحرم ما سمح به النبى.. ومسائل أخرى فى الطلاق مثل عدِّ الطلقات الثلاث فى عبارة واحدة بمثابة طلقة واحدة.. (وقد أخَذ بهذا علماء السنّة أخيراً..) كذلك أنه لابد من شاهدين لوقوع الطلاق..

ثم هناك أمور أخرى يستبيحها الشيعة، ومنهم أكبر أئمتهم فى العصر الحديث "آية الله خومينى" فى موضوع "التـقيَـة" (أى النزعة الباطنيّة أو المداراه التى فرضت على العبادات مثل الصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد وآيات القرآن الكريم فيصبح لها بدلاً من المعنى الواضح المحدد معنيان ، معنى ظاهر وآخر باطن) ، ففيها إيقاع الفرقة بين المسلمين.. وكثير من البدع الأخرى مثل الشهادة الثالثة "أشهد أن علياً ولى الله"، ثم موضوع الرجعة ومفاده رجوع الأئمة الاثنى عشر فى آخر الزمان تباعاً لكى يحكموا الدنيا عوضاً عما ضاع من أهل بيت على بن أبى طالب ، وأن أولهم سيكون الإمام محمد الثانى عشر الذى سيخرج من السرداب الذى اختفى فيه بمدينة "سامَرّا" ليحكم المسلمين، وينشر العدل فى أرجاء الأرض ، ويمهّد لبعث أجداده الأحد عشر تباعاً من جديد .

من المغالاة فى الشيعة تقديس تراب كربلاء ، حيث قبر الإمام الحسين ، والكوفة والنجف عن أرض الوحى نفسها، وسب الصحابة والمحصنات من أمهات المسلمين كعائشة وحَفْصة.. وإقامة مجالس عزاء فى كل مكان خلال شهر محرم من كل عام، وعدّها أصولاً دينيّة يعرضون فيها لأهل السنة ، ويطلقون عليهم أصحاب المذاهب الباطلة مثل كتب الحديث كموَطأ الإمام مالك ومُسند الإمام أحمد والصحيحين وكتب السنة الأربعة وهى المصدر الثانى للتشريع فى الإسلام بعد القرآن الكريم .

تبوّأ بعض علماء الشيعة مكانتهم بين علماء المسلمين، وأخلصوا فى دعوى التقارب بين المذاهب الإسلاميَة ، وتنحية الغث منها مثل" التقيّة" وغيرها ، معتمدين فى دعواهم على ما سبق من أحداث تاريخيّة ووقائع إسلاميّة مؤكدة، ومنهم العالم الإيرانى موسى الموسوى الذى يلغى مبدأ أن الإمام منصب دينى سماوى إلغاءاً تاماً.

الزيديّة أكثر الفرق تسامحاً عن غيرهم من الشيعة، ودامت خلافتهم فى اليمن حتى زوال حكم الأئمة فيها سنة١٩٦٢ . ومن المغالين فى هذه الفرق الإسماعيليّة ، والبُهرة ، والدروز ، والعلويون.

كان د. جيلبرت مبعوثاً إسرائيلياً إلى أحد المراكز الطبيّة التابعة لجامعة لوس انجلوس والتى تشترك فى المؤتمر الشهرى الذى يعقد فيما بيننا ، إستقبلنا أطبّاء المستشفى هذه وفى مقدمتهم الباحث العالمى اليهودى د. وذر مان.. كنت أسير فى المقدمة معه ود . ستين ود . ليڤى.. و تتأخر كلارا فى حديث خاص مع جيلبرت الذى التقطت أذناى قوله لها.. " نحن على بعد خمسة عشر كيلومتراً من دمشق.. " ، إلتَفَتُ خلفى فجأة إذ أثارنى القول فلمحتها تلكزه بمرفقها مشيرة نحوى.. فتوقف عن الحديث.. هكذا سارت الأمور.. ونحن لا نعرف عن أخبار الجبهة السوريّة إلا من أعدائنا.. ثم انطلق التليفزيون يعرض مشهد تسلّق الجنود الإسرائيليين أحد الجبال السوريّة وكأنه يعرض مشهداً سينيمائياً بكل التفاصيل.. فلم يكن هناك إحساس عندى أن هذه معركة بين طرفين.. كان حديث الخائب مارسيل زوج كلارا " نحن توقفنا عن دخول القاهرة..لما سنواجه من مشكلات إطعام هذا العدد..من.. البشر.. " ، حتى أنت أيها الطفيل الذى يرتع هنا بلا عمل بنقود زوجته..!

إتسع نطاق معارفنا من المصريين فكان د . محمود البيّار مدرس الجراحة بالإسكندرية وزوجته د . ماجدة منتصر مدرس الطفيليّات وولديهما يقيمون بفيللا فاخرة بأحد أحياء غربى لوس انجلوس الراقية " لونج بيتش" ويقتنون أفخم السيارات الامريكيّة والالمانيّة.. وكان لماجدة منتصر معملان للتحاليل أحدهما قريب من مستشفى أرز لبنان فى حى هوليوود الذى أذهب إليه فى الصباح ، كانت المستشفى تتعامل مع معملها بإرسال بعض تحاليل المرضى إليه لحداثة أجهزته عن أجهزة المستشفى..

كذلك اتسع نطاق تحركاتنا فى قضاء بعض أجازات الأسبوع فى مرصد هوليوود حيث الحدائق بأعلى قمة جبل بها ووسائل الترفيه.. ومن مأكل ومشرب ومشاهدات فلكيّة من تليسكوب المرصد.. وقضاء يوم بمدينة ديزنى.. ويوم باستوديوهات يونيفرسال.. ويوم فى عالم البحار.. وزيارة لبعض الشواطئ القريبة مثل سانتا مونيكا.. ونيو بورت ، ورودندو.. وكانت زيارة ميناء سان دييجو من أمتع النزهات حيث تطير بنا طائرة مروحيّة " هيليكوبتر" لقاء خمس دولارات.. وتتمتّع ابنتى فى حديقة حيوانات

خاصة بالأطفال بها حيوانات فى سن طفولتها مثل الفيل والغزال.. يسمحون باختلاط الأطفال بها واللعب بينها وملامستها.. ومداعبتها.. والحديث إليها وتقبيلها.. فكانت سعادة الأطفال بها كبيرة حتى يظل الطفل هادئ النفس لعدة أيام يردد ما قاله للحيوان الطفل فى اعتزاز وحنان..

كنا نقضى بعض سهراتنا فى ملهى "الفز" أى الطربوش وهو ملهى ليلى عربى بأحد شوارع وسط هوليوود الكبيرة ، يقدّم ضمن برامجه رقصات شرقيّة تؤديها راقصات أمريكيّات شقراوات ، تدربن على الرقص الشرقى لمدة عامين بشارع محمد على بالقاهرة.. كنت أتعجب من إقبال الأمريكيين على مشاهدة هذا الرقص ، وتقديرهم إن كان أداء الراقصة حسناً أم سيئاً ، وكأنهم خبراء فيه ، ذلك لامتعاضى وخجلى من أن هذا الفن هو فن منحط ، يداعب الغرائز الجنسية عند الإنسان..

كنت أتطلّع إلى رقصة مصريّة ، تثير النخوة والوطنيّة ، تحكى فى زيها وأدائها معان قوميّة من الكفاح والمعاناة منذ الفراعنة قديماً ، مروراً بالسيطرة الإستعماريّة فى تاريخنا الحديث ، بديلاً عن هذا الفن الذى يحكى تاريخاً عثمانياً استعمارياً.. يُعتقد أن أصله فارسى ، قدّمته فى أمريكا سنة ١٨٩٣ راقصة سوريّة فى معرض شيكاغو للفنون العالميّة ، ووصفه الأمريكيون بأنه حركات دائرية حلزونية متتابعة للبطن والحوض ، وأسموه "هوتشى كوتشى".. كانت روحى تمتلئ بالفخار وصدرى بالكبرياء حين مشاهدتى رقصة الدبكة اللبنانيّة الهادئة والسوريّة والفلسطينيّة الأكثر حماساً.. كذلك الرقصات السعوديّة التى أنشأ لها أحد الأمريكيين - ممن قضوا حياتهم بالسعوديّة - فريقاً من الفتيات والفتيان الأمريكيين يقدمون رقصاتهم فى الحفلات العربيّة ، منها حفلات الزفاف وتتمتّع بإقبال منقطع النظير ، حتى أنى كنت أقضى نصف الساعة فى القيادة لحضور "بروڤات" رقصاتهم فى أحد الفنادق البعيدة من شدة إعجابى وإعجاب كل العرب بفنهم الراقى .

الاستعراض..

سار الاستعراض العظيم بشارع هوليوود فى إحدى المناسبات.. أحسبها عيد الزعف.. يتقدّمه حامل " الدبوس" يؤدى به ألعاباً غاية فى الجمال والإتقان.. يليه ذلك التليفزيونى المهووس ممتطياً جواداً أشهب رائع المنظر.. يسير بخطوات راقصة فى خيلاء وشمم.. تليه فرق موسيقية شجيّة الألحان.. ثم مركبات الورود رائعة التصميم فى مقدّمة كل منها وعلى جانبيها الحسناوات من الفتيات يلوحن بالزهور والأغصان للجمهور الغفير على جانبى الطريق وقوفاً وجلوساً يصيحون إعجاباً ومرحاً.. وصفوف الحسناوات بين المركبات راجلات فى خطوات رشيقة وأزياء مبهرة على ألحان فرق موسيقى القرب والنحاسيّة فى لوحة رائعة تختلط فيها ألوان الأشرطة والبالونات..

كنت وزوجتى وقوفاً وابنتى بين أرجلنا وعن يميننا أسرة أمريكيّة المظهر من زوج وزوجته وطفلين وعن يسارنا أسرة مكسيكيّة المظهر من سيدة وطفلتها.. أقبلت إحدى المركبات المزينة فى مقدّمتها مساحة يشغلها تمثال المسيح عليه السلام راكباً حماره يحيطه الزعف فى طريقه إلى أورشليم.. يقود الحمار ممسكاً بمقوده تمثال رجل يعلق على صدره نجمة داوود.. وهنا انفجرت الأمريكيّة قائلة فى إنحناء بوجهها نحونا " ياللكذبة الكبيرة .. What A big lie " فَرَدّت المكسيكيّة عن يسارنا "نعم لكانوا دهسوه بعربة نقل .. Oh yes , they would struck him with a truck " .

هذه المشاعر الدفينة لدى الأسرة الأمريكيّة المسيحيّة.. لا يجاهرون بها.. لكنهم يوارونها فى صدورهم.. فالمصالح متشابكة.. والزيجات مختلطة.. والسيطرة اليهوديّة على المقدّرات المعيشيّة مثل الوظائف فى كبرى المؤسسات طاغية.. والتخطيط محكم من تنظيم سيادى صهيونى يتغلغل لأدق المناصب حساسية وسطوة..

لم يكن الاستعراض لينتهى فى سلام لولا سيطرة رجال البوليس الحازمة.. فقد تابعناه ونحن نتوجس شراً من اقتراب صاحبنا التليفزيونى من محل عائلة الفرا.. كان شبابهم يستعدون لمقدمه فمنهم فريق بدأ بالصياح ، وفريق يتبادل الشتائم الصامتة بالأذرع والأيدى والإصبع مع صاحبنا.. عرفنا بعد ذلك أنهم كانوا يستعدون لجذبه وجواده إلى الفناء خلف المحل لتلقينه درساً..

الـــزيـــــــارة..

في نوفمبر ٧٣ ، حضر إلى مدينة شيكاغو وفد من طب الإسكندريّة.. أستاذى المباشر عميد الكلية وأستاذى فى الأشعة وكيل الكليّة.. كان حضورهما للاشتراك فى مؤتمر عن التعليم الطبى، وللاجتماع بأكبر عدد من المصريين مبعوثين ومقيمين للتوعية بالحرب ونتائجها، ومناقشة أحوال بلدنا فى الفترة التالية لها.. وأحوالنا فى المهجر والاغتراب.. توجهت بأسرتى إلى هناك وأقمت بالفندق الذى يقيمان فيه، وكانت مقابلتنا فياضة بالمشاعر عندما عرف د. جمال مسعود وكيل الكليّة – ولأوّل مرّة – أن زوجتى هى ابنة صديقه وقائد كتيبته فى حرب الفالوجا بفلسطين أثناء خدمته طبيباً مكلفاً بها..

إتصلت إجتماعاتنا بالفندق.. وفى ولائم المصريين.. شغلتها مناقشات دافئة غلبت عليها روح الاشتياق والحنين للوطن والأهل.. وما صارت إليه الأمور أثناء الحرب وبعدها ، إنعقد الرأى على أننا قد استرددنا اعتبارنا الذى ضاع فى ٦٧ ، وأن العالم أجمع يحترم كفاحنا فى مواجهة دول كبرى استعدت علينا دولة إسرائيل.. وأن أموراً كثيرة قد تعرّتَ فى العلن كانت تجرى فى الخفاء منها جسر الإمداد العسكرى الدائم بين أمريكا وتل أبيب.. ودخول أحدث تقنيات الترسانة العسكريَة الغربيّة فى حرب مباشرة ضدنا..

كان الجميع شغوفاً لمعرفة لماذا لم يستمر العبور ليكون عبوراً لمضايق سيناء خلال الأيام الأولى للحرب..؟ وكان الرد : أنه لاتخاذ الغرب قراراً باستحالة غلبة السلاح الروسى ، وحتمية الحد من انتصاراتنا لعدم جرح كبريائهم العسكرى ، كذلك لنضوب إمدادنا بالسلاح ، وأننا قد استبسلنا مصريون.. وسوريون.. وأردنيون فى المواجهة.. وتقاعسَ البعض من الأخوة العرب عن المساعدة إما لخوف من العقاب أو شماتة شخصيّة وسياسيّة.. وشهامة البعض الآخر فى المعاونة العسكريّة والمعنويّة قدر الاستطاعة المحدودة.. وفى المواقف السياسية والدبلوماسية.. ودخول البترول سلاحاً فى الحرب أُكتُشف فعاليته لأوَل مرّة.. فعاد على أمتنا العربيّة بمعرفة قدرها وعائد بترولها الحقيقى.. وأنه بخسارة إسرائيل إثنى عشر ألف مقاتل لطمة أدارت برأسها.. وأخلت

باتزانها.. بعدما قيل عن خط برليف الذى اقتحمناه بجسارة.. واليد الطولى التى قطعناها انتقاماً لأطفال مدرسة بحر البقر.. وأن إستفادتنا من هذه الحرب لاتقدّر.. إذ أننا ولأوّل مرّة ندخل معترك الحرب الحديثة بين الدول.. تَفَهّمنا واختبرنا فيها ما أُدخِل عليها من تكنولوچيا طَبّقناها على أرض المعركة.. من أدوات حرب.. واتصالات ومخابرات وتنسيق فى الداخل والخارج وعلى الجبهة.. وفى تحرّك الجيوش ومناوراتها.. وسبر غور جديّة المتعاطفين معنا من الدول الصديقة.. واستقصاء أبعاد العداء بيننا وبين الدول المنحازة لمعسكر العدو على العديد من الجبهات، وأهمها الجبهة الدبلوماسيّة فى هيئة الأمم المتّحدة وغيرها من المنظمات الدوليّة.. وكانت النكتة المصريّة لا تفارق الاجتماعات والموائد من أننا أحرزنا ثلاثة أهداف فى شبكة المرمى الإسرائيلى وأحرزوا فى مرمانا هدفاً واحداً .. سجلوه آخر المباراة.

بعد يومين من الاستمتاع بصحبة هؤلاء القوم الأعزّاء.. ناقشت مع الأستاذ ضيق الوقت المتاح لإتمام أبحاثى بعد أن قارب العام الثانى - المسموح لى به من الجامعة- على الانقضاء نتيجة انتقالنا من رود أيلاند إلى كاليفورنيا وأحداث الحرب.. فأذن لى بالبقاء عاماً ثالثاً ، ووعدنى أنه سيسعى لضمان هذا الاستثناء من الجامعة.. علمت بعد ذلك.. أن رد رئيس الجامعة كان "..على جثتى.."

بدأت أحداث فض الاشتباك بين القوّات المتحاربة.. وكان هنرى كيسنجر وزير خارجية أمريكا فى حكومة الرئيس نيكسون ضابط الإيقاع خلال هذه الأحداث.. لم نتأكّد إن كان هذا اليهودى الداهية قد ورّطنا عسكرياً على أرض سيناء.. من خلال دبلوماسيته الذكيّة فى بنود الاتفاق ، أم أنه قد أرسى قواعد مهزوزة لسلام مؤقت بين الفرقاء.. لاسترجاع مرارة الحرب.. والجلوس إلى مائدة المفاوضات.. لذلك كانت الأحداث التالية مغلّفة بالضباب ، فى عقولنا نحن المصريين فى الاغتراب..

تجاذبت مشاعرنا رغبة فى الإبقاء على حالة الحرب لتظل المعركة قائمة والقضيّة حامية.. فلن تكون الأمور أسوأ من ٦٧ .. أو نقنع بالاستكانة لهذه الاتفاقيات لالتقاط الأنفاس.. كان إحساسى بمشاعر الإسرائيليين والصهيونيين من حولى

مماثلاً.. أى شعورى بعدم اقتناعهم أو قناعتهم بما صارت إليه الأمور فى اتفاق فض الاشتباك هذا.. فقد أطلق ستيف ليفى إسم هنرى. ك على أحد كلاب التجارب.. وكان يمعن بمناداته أمامى بهذا الاسم ليتأكّد من وضوح ما يقصده ، فكنت أظهر عدم مبالاتى إمعاناً فى كيده..

من المواقف المحتّدة.. ما صار بينى وبين أحد المرضى ، الذى أشرف على علاجه ، هو محام كبير فى شهرته كذلك فى تعصبه وصهيونيّته، وكان قد استطاع إنقاذ حياة اليهودى "روبنشتين" قاتل "لى هارفى أوزوالد" الذى اغتال الرئيس الأمريكى چون كينيدى عام ٦٣ .. إذ به يواجهنى وقد إرتسم الأسى البالغ على وجهه قائلاً " ..

"حسناً.. إن أولادنا ينسحبون من الطريق إلى دمشق"..

"Well mo ,our boys are pulling back from the road to Demuscus"

كانت إجابتى مفحمة "حسناً يا سيّد.. من الأفضل لهم ذلك.. قبل أن يفقدوا إثنى عشر ألفاً آخرين.. "Well sir, they better do before they loose another twelve thou-sands..

وأحسست بعظم ما ألقيت فى وجهه ، إذ انثنت رقبته وسقطت رأسه على صدره قائلاً فى ضعف وأسى " نعم.." وراح فى غيبوبة طويلة.. كان ستين يصاحبنى فى هذا المرور فوضع ذراعه بينى وبين الرجل.. أن كفى..

توالت الأحداث على هذه الوتيرة.. غضب.. وكمد.. مثل قول أحدهم.. " لقد تعلّم هذا فى مصر.." عندما استطعت إصلاح جهاز العرض "البروچيكتور" بقطعة نقود معدنيّة من جيبى فى أثناء إحدى المحاضرات..أو مثل استخفافهم وسخريتهم ونحن وقوف نتضاحك مع نينا السكرتيرة من قولى أن جنس الجنين تحدّده الأم ، وليس كما هو معروف من أن الأب هو المسؤول عن ذلك.. (تثبت الأبحاث الحديثة أن للخليّة نشاطاً هرمونياً وإنزيمياً تؤثر به على ذاتها "أوتو كرين.." ، وعلى ما حولها "باراكرين .." ، وعلى الجسم الإنسانى ككل "إندو كرين .." ، هذه المواد تؤثر بنشاطها هذا فى اجتذاب



من الأفضل لهم ذلك قبل أن يفقدوا إثنى عشر ألفاً آخرين ..

الخلايا الأخرى عن طريق الجذب الكيمائى الحيوى " Chemotaxy " باختلاف أنواعها، فالأعضاء الأنثوية تحدد نوع الجنين حسب ما تمليه إرادة الله .. باجتذابها نوع الحيوان المنوى ..حسب هذا الافتراض ..) .

جمعني بهم حمام السباحة في منزل كبير أطباء المستشفى" د . كلايننبرج " فى دعوة على غداء شواء.. وصرت أحمل طفلتي على ظهرى فى أثناء السباحة وهم وقوف فى جانب منه يتغامزون.. ولم لا وأنا أحد أعضاء فريق السباحة في كليتي سنتي ٥٩ و ٦٠ .. فليكن عدم اكتراثي وبعض الاستخفاف بهم مدعاة لبناء ثقتي بنفسي.. خصوصاً وأنا في موقع المعلم لهم وحظيت بتقدير الكبار فى المجتمع الطبّى بينهم. فى أحد أركان الحديقة دارت المناقشة في احتداد.. قال أحدهم وسط جمع الأطبّاء " أنتم معتدون بحربكم على إسرائيل.. " أجبته "إن هذه الحرب من مصلحة إسرائيل..فإن لم تكن.. لما جلست إسرائيل إلى مائدة المفاوضات.." ، إنطلق في غضب تجاه " كلايننبرج " .. الذى كان مشغولاً في الشواء.."إنه يقول.. أن هذه الحرب كانت من مصلحة إسرائيل.." لم يعره الرجل أذناً وكأنه اقتنع بهذا الكلام.. فعاد صاحبنا كي لا يعيد النقاش..

كان الغموض يكتنف ذهنى عن سبب أحزان هؤلاء القوم.. فلدى إسرائيل التخطيط والتكتيك والعدّة والعتاد والتكنولوچيا ووسائل العلم المتقدّمة والدعم المالى والسياسى والدبلوماسى الذى رسمه لها الغرب كي تتفوّق به على كل جيرانها مجتمعة.. بل أن أحدث هذه المعطيات تطبّقه وتطوّره إسرائيل قبل بلده المنتج.. بل ويجعلون منها ترسانة للتخزين والتصدير.. ويفتحون لها الأسواق في أفريقيا وأمريكا اللاتينيّة بل وكل دول العالم.. غزواً بالعتاد الحربى وفى الزراعة والتجارة والصناعة بكل وسائل العلم والتكنولوچيا الحديثة.. ماذا إذاً يقلقهم هكذا..؟ إن فقد اثنى عشر ألفاً من جنودها وضباطها وخبرائها في هذه الحرب قد جعل معركتها خاسرة.. فالخسارة لا تقاس بمجموع العدد فقط.. لكنهم ركيزة استودعتها إسرائيل كل ما في العالم وما فى جعبة يهود العالم وصهيونييه من خبرات وتقنية بحيث أصبح كل فرد منهم مَرْكزاً مُركَّزاً.. فإسرائيل - لصغر مساحتها - قد اختطّت من بناء الوحدة بناءاً قوياً ضارباً فلسفة

وجودها.. فالحركة سريعة والمناورة محكمة داخل تلك المساحة.. وضرباتها مؤثرة معَجَزة فيمن وفيما حولها.. أما عن جانبنا فالأرض شاسعة قاحلة غير مستغلّة.. وتأسيس الفرد تأسيس ضحل.. فبناؤهم فى العمق.. وبناؤنا أفقى على السطح.. خسارتنا فى الأرض والفرد يعوضها معين لا ينضب.. لذلك فهى خسارة موقعة نستعيض عنها بمواقع أخرى..وليست خسارة حرب..

يتأتّى لنا الفعل الفاعل بالضرب فى العمق.. أى فيما يكلف وقتاً فى الإعداد كالأفراد.. أو فى الأرض لقلة مساحتها.. فمعينهم من البشر محدود ويضمحل يوماً بعد يوم مهما هَجَّروا من يهود العالم إلى أرض الميعاد.. أو بالأحرى أرض الفناء إن لم يتفهّموا ضرورة العيش فى سلام مع جيرانهم وتَخلّوا عن كذبتهم الكبرى التى صدقوها.. من أنهم شعب الله المختار.. وليس المنهار.. المغضوب عليه من الخالق بما أتوا من معاص وافتراء عليه - جل جلاله- فنازعوه وتحدّوه فى مواقع كثيرة ، وكذّبوا وقتّلوا وصلبّوا أنبياءه إليهم.. وما اقترفوه فى حق شعوب الأرض من دنس وخسة.. فهم محترفو الكذب.. والادعاء.. والتجسّس.. والقتل.. والمكائد.. والشر.. حتى لمن آوَوهُم وأظلوهم بالحماية فى أرضهم.. والتاريخ منذ فجره شاهد على ذلك منذ بعث موسى وهارون.. وعيسى عليهم السلام إليهم ومن بعدهم محمد ﷺ.. إلى وقتنا الحاضر. هل فى مراجعة مثل هذا التاريخ الملوّث بوجودهم وأفعالهم وأفكارهم ما ينبئ بخير فى مستقبل أيامهم فلنقرأ ولنستقرِء رسالات الأنبياء الذين أرسلوا لهديهم وما يُسَطِرون هم بأقلامهم من شر أفعالهم..

يقدم اللواء الركن حسن البدرى لكتاب "التمرّد" لمناحم بيجن.. الإرهابى الصهيونى عن قصة عصابته الإرهابيّة "الأرجون" بقوله إن دعائم قيام العقيدة الصهيونيّة ثلاث:

- دعوى التفوّق العرقى
- التوسّع لتحقيق إسرائيل الكبرى
- اعتناق العنف كهدف ووسيلة لتحقيق هذا التوسع

من وسائل ذلك تبنى مبدأ القوة فوق الحق ، وأن الغاية تبرّر الوسيلة ، وأنه لا وسيلة

لتحقيق الغاية الصهيونيّة سوى العنف وحمل السلاح بصفة دائمة.." ومن يمت منكم وهو يحارب العرب. .فسوف يبقى خالداً فى مخيِّلة اليهود.."

يقول بيجن فى هذا الكتاب الغث " أنتم أيها الإسرائيليون يجب ألا تأخذكم شفقة أو رحمة عندما تقتلون عدّوكم.. يجب أن تقضوا عليه حتى ندّمر ما يسمى بحضارة العرب ، التى سوف نشيّد على أنقاضها حضارتنا اليهوديّة"

يكشف ذلك الإرهابى وجوديّته الإرهابيّة بقوله " أنا أحارب. .إذاً فأنا موجود.." و" كن أخي وإلا قتلتك.. !"

ومن وجهة نظره " أن الأساليب الإرهابيّة قد أشبعت رغبة جارفة مكبوتة لدى اليهود.."

ويعترف صراحة " فعنصر العنف والقوة جزء لصيق بالحركة الصهيونيّة ، والعدوان مسألة جوهريّة وليست عارضة.."

ويؤكد " لن يكون هناك سلام لشعب إسرائيل ، ولا فى أرض إسرائيل ، ولن يكون سلام للعرب أيضاً ، مادمنا لم نحرر وطننا بأكمله ، حتى لو وقّعنا مع العرب معاهدة صلح.."

ويستخلص كذلك " هل حدث أن تخلّى شعب ما عن أرضه برغبته الخالصة ؟.. إذاً فلن يقبل العرب ذلك. .إلا تحت ضغط. .الإجبار والقسر.. ؟!"

ويتفاخر بقتل الأطفال والنساء والشيوخ فى جريمة عصابته الدمويّة على قرية دير ياسين التى كان يقطنها فى سلام أربعمائة عربى يجاورون المسجد الأقصى الشريف قائلاً " لقد أسهمت مذبحة دير ياسين مع غيرها من المجازر الأخرى فى تفريغ البلاد من ستمائة وخمسين ألف عربى" .

يقول "چاك دى رينييه" - ممثل اللجنة الدوليّة للصليب الأحمر - الذى رأى بعينى رأسه ما حدث فى دير ياسين "كان يوجد فى القرية أربعمائة فرد.. هرب خمسون وبقى ثلاثة أحياء ، أما الباقى فقد ذبحوا بطريقة علميّة منظّمة مع سبق الإصرار وإرادة كاملة ، إذ إنى لمست بنفسى كيف كان هؤلاء الجنود تحت السيطرة التامة لا يفعلون سوى ما

يؤمرون به ، إستوقفتنى شابة من الجنود ، جميلة ولكن فى عينها نظرات المجرمين، لأشاهد سيفها الذى مازال يقطر دماً وهى تحمله فى أثناء سيرها كما لو كان كأس الانتصار".

كان لنجاحنا في معركة العبور ، وصلابتنا في الاحتفاظ بأرض سيناء ، أكبر انتصار استشعرناه في نفوسنا ومشاعر المتعاطفين معنا ، فعلت الابتسامة وجوه المصريين والعرب.. وكان الافتخار والثقة فى تصرفاتنا نابعاً من إحساسنا أن فى تعاضد العرب قوّة لا حدود لقدراتها.. فإن كانت هذه الحرب ومنها سلاح البترول مثلاً بسيطاً على ذلك ، فما بال اشتراك الجميع في تعاون أخوى تدْعمه قوى البشر والعلم.. ماء النيل والأرض الزراعيّة فى مصر والسودان.. أموال البترول وصناعاته واستخراج المعادن فى السعوديّة والكويت وسوريا والعراق والأردن والمغرب العربى.. السياحة فى مصر ولبنان وسوريا والعراق والمغرب العربى.. وإنشاء الصناعات الحديثة الإلكترونيّة والحربيّة والغذائيّة وغيرها.. تتنافس فى إتقانها الدول الشقيقة داخل أسواق مشتركة تتبادل منتجاتها مع دول العالم .. لا يبدو ذلك بعيد المنال ولا بالصعب ، إذا استوعب العرب عظم دورهم وما له من تأثيرات وانعكاسات على دول العالم..

كل المقومات حاضرة وليس علينا إلا السعى لتحقيقها ، فقد كانت العزيمة والمضاء وسيلة نجاح شعوب أقل منا مورداً.. وعدداً.. وعدة.. فاليابان خاسرة الحرب العالميّة ، خرجت منها محطّمة.. معدومة الموارد ، وكوريا وسنغافورة وتايوان بَنَتْ شعوبها ذاتها تحدّياً للدول الكبرى التى تشح بالمساعدة فلا تعطى إلا مصانعَ للمياه الغازيّة.. والأجهزة الاستهلاكية.. ومساعدات ماليّة يعود مردودها مضاعفاً فى النهاية إليها.. وهم يسلبون مواردنا الخام وأبنائنا الأفذاذ بهجرة العقول إليهم.. ويبتزّون أشياءنا فى تبادلات تجاريّة خبيثة تحدّ من أرباحنا في منافسات غير شريفة ، بل ويسيطرون بالقوّة الغاشمة والأساليب المدسوسة علينا لإشعال الحروب ، وإثارة النفوس ، وبث الفتن ، ونشر المغريات الجنسيّة والإعلاميّة ، للسيطرة على عزائمنا ، ويُشَيّدون قلاعاً صناعيّة وتكنولوجيّة يفرضون بها سلطانهم علينا ، فمن أقمار صناعيّة يتجسّسون بها على أدق أسرارنا دون حساب أوعقاب ، ومن تكنولوچيا وأجهزة حربيّة يهددوننا بها ويسلطونها على رقابنا.. وهكذا ليظل العاجز أكثر عجزاً بإضعاف حيلته والقادر أكثر قدرة بخباثته.

بعــد الحــرب ..

عن نفسي فقد ملأتني روح التحدّى بين من أعمل وسطهم ، ولا شك أنه كان لأحداث الحرب تأثيرٌ في ذلك.. بعد استكمال وإعداد المركز الطبّي الذى أسموه "مارد الغرب Giant of the west " ، وقفت في بهوه أتأمّل تلك المقدرة العظيمة على الإنجاز، كنت أمام إحدى قاعات العبادة وتصادف مرور د . لاكي المدير الإدارى للمركز ، إستوقفته قائلاً " لقد أنشأتم في هذا الصرح العظيم معبداً لصلاتكم.. وأنا مسلم لا أعرف أين أقيم صلاتي.." . أُرتُجَ على الرجل.. وبقى لحظات لا يتكلّم.. ثم أجاب.."هذه القاعة ليست معبداً يهودياً.. ولا هي كنيسة.. فإذا تطلّعت إلى اللافتة فوق بابها لوجدت كلمة تشابل.. Chapel أى دار عبادة.. وإذا تطلّعت داخلها فلن تجد نجمة داوود.. ولا صليب المسيح.. فما عليك إن أردت الصلاة إلا أن تحضر سجادتك.. وتؤدى صلاتك داخلها.." .. نظرت إليه في تشكك فاستأذن وانصرف .

كانت صلاتنا تقام في قاعة أرضيّة ضيقة بفيللا بحى هوليوود.. تُستَأجر في الأعياد ويوم الجمعة لمن يسمح له وقت ومكان عمله بأداء صلاتها.. لذلك كانت تقام صلاة جمعة أخرى يوم الأحد.. ! لمن لا يستطيع.. يؤم المصلين ويخطب الجمعة أحد مسلمى باكستان ، وهم ملتزمون عن المسلمين من الجنسيآت الأخرى في المظهر وأداء المناسك الصحيحة.. كثرت التساؤلات.. والاستفسارات عن المركز الإسلامى المزمع إنشاؤه فوق تل مرتفع رائع الرونق يطل على الطريق السريع المؤدى إلى شمال هوليوود.. كانت الإجابات متضاربة.. منها أنه لا يوجد دعم مالي وأكثرها إثارة كان أن يهود المنطقة انطلقوا يحذرون القاطنين حول هذه البقعة.. من أن المسلمين يتصايحون طوال الليل.. وعند الفجر.. بصيحات تقلق النائم ففزِع هؤلاء وتقدموا للمسئولين باعتراض على إنشاء المركز.. وقد كان أن فشل الحصول على قطعة الأرض هذه ، وتم الحصول على موقع آخر بشارع فيرمونت وهو طريق رئيسى يقع وسط حى هوليوود.

من الأشياء المبهجة لعامة العرب والمصريين على وجه الخصوص.. كان حضور فرقة من فناني مصر إلى لوس انجلوس.. أشبه بزيارة الفنانين للمحاربين على الجبهة.. أتى

الناس من كل حدب وصوب خاصّة الأمريكيون من أصول عربيّة.. دعوت أسرة أمريكيّة من أصل لبناني تعمل إحدى فتياتها حديثاً بالمستشفى فإذا بها تسبقني في إحضار تذاكر الحفل لي ولأسرتي..

إزدحم المكان حتى بابه وسط المشاعر المتأجّجة والفرحة والمرح يشوبها حماس بالغ.. وارتفع الهتاف والصفير.. والتهبت الأكف بتصفيق مدوّي فوق الرؤوس.. كانوا رجالاً ونساءاً.. شيوخاً وشباباً.. يهلل الجميع ويردد مقاطع الملحمة الشعبيّة لسيد مكاوي.. "الأرض بتتكلّم عربي.." التي أبدع غناءها المطرب محمد رشدي.. ويهب الحاضرون في صيحة مدوّية عند سماعهم.. "من حطين.. لصلاح الدين".. مرددين.. الأرض.. الأرض الأرض.. حييت يامصر فقد اجتمعت القلوب في حب الأرض ، أرضك وباقي أرض العروبة والإسلام .

الإمتحـــــان..

طلب منى ستين إعداد نفسى لدخول امتحان " الفليكس .F.L.E.X " .. وعرض لى الكثير من التسهيلات التى ستقدّمها المستشفى بناء على طلبه .. هذه أعلى شهادة أمريكيّة طبيّة لمن يقضى فترة الزمالة .. تعجبت لطلبه هذا إذ أنه يعرف أننى لا أخطّط للبقاء .. وليس هو بالمضطر للمساواة بينى وبين كلارا فى تسهيل الوسائل المطلوبة من الهيئات الطبيّة للولاية بالجلوس لهذا الامتحان ، فهى تعلن عن عزمها بالبقاء وعدم العودة إلى إسرائيل بدعوى صعوبة الحياة بين الأصوليين المتعصبين من الكهنة هناك ، وتمثّل لذلك بقذفهم السيارات وراكبيها بالحجارة وما يأتونه من تصرفات وتهديدات لكل من يباشر أى مظهر من مظاهر الحياة فى أيام السبت .

تريثت حتى حضور د .خليل فى زيارة لكاليفورنيا .. واجتمعنا بمنزل د . محمود البيّار .. الذى جمع ثلاثتنا فى حجرة منعزلة عن الحفل الذى أقامه تحيّة لخليل .. وقال أن نمط حياتى سيتغيّر مائة وثمانين درجة بحصولى على هذه الشهادة .. إذ يواكبها الحصول على ترخيص مزاولة المهنة .. وأنه يسعى لشراء مزرعة لى بجوار مزرعته التى أسماها باسمه "المحموديّة .." ليتكوّن من مجموع مزارع الأصدقاء والزملاء المصريين مقاطعة يسميها Little Egypt"أى مصر الصغيرة .

تذكرت كلمات المرحوم على طرابية أننا من طين مصر .. ولا يسعنا الحياة بعيداً عنها .. وتذكرت أمّى التى فارقتها – وأنا كبير الأسرة – بعد وفاة والدى بأيام ، وشقيقتىَّ اللتْين مازالتا فى مرحلة التعليم .. فعبّرت له عن امتنانى وعدم تحمل عواطفى الحياة بعيداً عن وطنى وأهلى .. طلب منى الجلوس للإمتحان فلن يضيرنى أن أحتفظ بهذه الشهادة .. حتى وإن عدت إلى مصر ..

جلست إلى الامتحان الأوّل وفوجئت بوجود علماء فى الطب يؤدون الامتحان معى .. منهم چون وست .. المهاجر إلى أمريكا من جنوب أفريقيا والذى كنت أتمثّل به طوال حياتى العمليّة فى مصر قبل حضورى ، و روچيه نحّاس الذى كان قد استأجر شقة فى منزل والدى

ليقيم عيادته في الجراحة ثم انتقل إلى لندن لسنوات.. حتى أصبح من جراحيها المشهورين.. وقرر الهجرة أخيراً إلى أمريكا ليحقّق حلم كل طبيب في مزاولة مهنته بها..

كان من أسباب نجاحي في امتحان القسم الأوّل أكثر من سبب.. فطبيعة العمل هنا تحتّم ضرورة الاطلاع المستمر.. مع سهولة السبل المتاحة لذلك من أجهزة تصوير المقالات الحديثة المنشورة بأحدث المجلات الطبيّة وهي كثيرة متعدّدة.. وأشرطة المحاضرات المسجّلة بمكتبة المستشفى ، والتي يمكن نسخها بأي عدد مجاناً.. وتتابع المحاضرات، وثراء المكتبات ، والقيام بالأبحاثات، وعقد الندوات بين المراكز العلميّة، والتنافس الشديد فيما بينها ، والتفرغ الكامل لمثل هذا الأداء ، وانتظام ساعات اليوم بحيث لا يضيع منها وقت في قضاء متطلبات الحياة اليوميّة ، والدعم الإدارى من سكرتيرات يؤدين واجبهن على الوجه الأكمل في مساعدة الباحث لتوفير وقته وإنجاز مستلزمات إقامته ، والدعم المادى من مرتبات مجزية ، يتحقّق بها الاستقرار النفسى والأسرى ، يدخر منها الفرد ما يؤمّن مستقبل أيامه وتعليم أبنائه على كل المستويات الخاص منها والحكومى في سهولة ويسر بحيث يصير الفرد وحدة فاعلة في منظومة إجتماعيّة عالية الأداء هائلة العطاء..

عند احتساب الضرائب على دخل من يدرس أو يقوم بأبحاث تخصم نسبة من فاتورة التليفون والكهرباء والغاز والمياه وإيجار المسكن.. بل ونسبة من قيمة المفروشات المنزليّة.. مادام كل ذلك ينطوى تحت استعمالاته اليوميّة لقضاء ما يقوم به من دراسة.. ثم تأتي العزيمة ثالثة لتلك الأسباب - بعد الاستعداد والمنهل - يكتسبها الفرد لإثبات قوميّته وإنتمائه في الاغتراب.. ذلك الشعور بالروح المقاتلة التي تؤجّج كيانه ، وتدفعه لتحقيق ذاته ، وإشعال قدراته للتفوّق على المنافسين حوله ، وتحصيل كل ما يعود بالفائدة على بني وطنه.. كابن بار يعود لأمّه بكل ما يثلج صدرها بالفرحة والشكر لله .

ثم تأتي ظروف خاصة تحيط به.. تمثّلت تلك الظروف لديَّ بمعرفة أسرة مصريّة معطاء هي أسرة د . حسني نجيب وزوجته ليلى وإبنيه ميشيل ويوسف التي هاجرت إلى أمريكا بعد قضاء عدة سنوات بدولة نيجيريا ليلحق بأسرة شقيقته.. سبقني د . حسني

نجيب بالحصول على شهادة الفليكس ومعرفة أسرار إمتحانها ، وكان يتميّز بذكاء خارق وذاكرة فوتوغرافيّة مما جعل النجاح حليفه في مزاولة تخصّصه في أمراض النساء والتوليد ، إتصل بي هاتفياً للاطمئنان ليلة آخر وأهم أيام الامتحان ، وأخذ يختبرني في مواده ، وصُدم لاهتزاز مستواى فطلب مني إحضار الكتب والمراجع ، ووَضَع يدى وفتّق ذهني لأهم ما يرد منها في الامتحان . . قضينا الليلة من السابعة مساءاً إلى الخامسة صباحاً في مراجعة مواد ذلك اليوم حتى وفّقت فيه أيما توفيق . . ودمت معترفاً بفضله .

جلست إلى مكتب "نينا" السكرتيرة لإعداد الأوراق الخاصة بنظام عملي الجديد إستعداداً للجزء الثاني والأساسي من الامتحان . . فلابد من قضاء عام كامل في العمل كطبيب مقيم . . إختَصَرته إدارة المستشفى إلى ستة أشهر ، أقضي خلالها يوماً كل أسبوع في استقبال الحالات الطارئة . . ويوماً بالعيادة الخارجيّة وأندمج في المناوبات باقي أيام الأسبوع على الأقسام والعنايات المركّزة . . وكان ستين قد وعدني بالاحتفاظ بمكتبي ومرتبي على درجتي كما هي كزميل . . في أثناء الحديث مع" نينا" سألتني عن كلارا . . فالتزمت الصمت وهنا برقت عيناها وصفقت خدها بكف يدها وقالت . . "كنت خائفة، كنت أعرف" . .فلم توفق كلارا في الامتحان . .

خصّصوا لي حجرة للمبيت أثناء المناوبات ، وصرت أقضي بين جمع الأطبّاء المقيمين ثلاث ليالٍ أسبوعياً . . أغلق باب حجرتي بكل المزاليج المتاحة . . وأضع خلفه أكبر وأثقل المقاعد يليه سرير نومي بحيث أن أي محاولة لفتح الباب توقظني في الحال .

كان الأطبّاء في العيادة الخارجيّة يحضرون إلى مقر عيادتي لاستشارتي في وصفاتهم العلاجيّة لكل مريض مصاب بمرض صدري ، أو أي مرض باطني آخر عند المرضى غير الأمريكيين . . وهم كثيرون من المكسيكيين والصينيين واليابانيين ومن هندوراس وكوبا وبورتوريكو . . لاعتقادهم أن أمراضهم أقرب إلى أمراض المصريين . . أكسبني هذا الموقف كثيراً من الاحترام والتقدير حتى أن رئيس العيادات كان يأخذ برأيي عند انعقاد الاجتماع الأسبوعي للعيادات . . يناقش في هذا الاجتماع موضوع طبّي معّين يقوم بعرضه أحد الأطبّاء دورياً كل أسبوع . .

ذات مـرّة وعند رجـوعى إلى حـجـرة نـومى.. وجـدت أحـد الأطبـاّء - المعـروف لى بعصبيته اليـهوديّة الشـديدة - يشاهد فى صمت أحد أفلام التليفزيون.. ما أن رآنى حتى انقلب صمته ضحكاً عالياً.. خرجت إلى باب حجرتى ووقفت أشاهد ما يضحكه.. كان من الواضح أنه يصطنع الضحك ليلفت نظرى إلى قلّة من ممثلى الفيلم ألبسهم المخرج لباسا مثل الضفادع البشريّة.. يهاجمون جماعة فى الصحراء يلبسون كالأعراب.. والقلة هذه تشبع الكثرة طعناً وتقتيلاً بما يُظهر بطولتهم الخارقة.. سألته عما يضحكه فى ذلك.. قال إنهم يُذكّرونه بمواقف مثل هذه تحدث فى بعض البلاد.. قلت له أن مخرج هذا الفيلم - ومن هم على شاكلته - لابد أنهم يَتَفَنّنون فى هذا السخف ليسعد به أناس مثلك.. .فليس فى هذه السذاجة ما يشعر المشاهد بأى مصداقيّة.. فمن أين لهم مثل هذا الملبس وهذه الأسلحة الغريبة إن كانوا من أهل الصحراء.. وإلا فإنهم دخلاء على أرض هذه الكثرة الغوغاء - كما تسميهم - الذين يعيشون داخل خيامهم فى سلام.. فزمجر قائلاً " لست أعرف .." فأغلقت باب حجرتى..

ذلك الطبيب اليهودى الشاب ذاته، كان يتمثّل المسلمين فى صلاتهم برفع كفيه إلى رأسه محاكياً أمامى التكبير فى صلاة المسلمين ويقول " أنتم تضيعون كل وقتكم فى الصلاة ولا تعملون.." وكنت أجيبه " فماذا تعتقد فى وجودى هنا.. إنى أعمل وأعلّمك الطب.. فكيف تأتَى لى ذلك وأنا مسلم أؤدى فرائض الإسلام البدنيّة من صلاة وصيام وغيرها.. وإن كنت تعيب على مناسكنا شكلها.. فكيف الوقوف أمام حائط تتحدثون إليه وتتصايحون متشنجين وباكين.."

‹وتر جيت..

أثناء وقوفى مع ستين أمام مكتبه.. إذا بإحدى السكرتيرات تندفع من الخارج فى عصبيّة وتعلن فى تحمّس لقد استقال.. لقد استقال أخيراً.. كانت تعنى الرئيس الأمريكى نيكسون ونهاية رئاسته المأساوية بفضيحة ووتر جيت..

فى أثناء اكتساح نيكسون لانتخابات فترة الرئاسة الثانية.. اقتحم بعض اللصوص ، ممن يعملون لحساب لجنة إعادة انتخاب الرئيس ، أحد مراكز الحزب الديمقراطى فى ضاحية ووتر جيت بواشنجطن العاصمة لسرقة بعض الوثائق السياسيّة من الحزب الديمقراطى.. وفشلت محاولات الحكومة فى تغطية الفضيحة.. وأدت تحقيقات اللجنة القضائيّة -المشكّلة من الكونجرس - إلى مسائلة الرئيس وبعض مستشاريه ، وتوجيه تهمة الاجرام لحجب العدالة.. فاستقال نيكسون فى التاسع من أغسطس سنة ٧٤ قبل أن يتعرّض علناً لمثل هذا الاتهام.. وبذلك اعتلى نائبه چيرارد فورد منصب الرئيس الأمريكى الثامن والثلاثين .

ريتشارد ميلهوس نيكسون

الرئيس الأمريكى السابع والثلاثون (١٩٦٩ - ١٩٧٤) - جمهورى

تولى الحكم فى سن ٥٦ وتوفى عن ٨١ عاماً

أول رئيس يستقيل من الرئاسة بسبب فضيحة ووتر جيت.. درس القانون بجامعة "ديوك" وتخرّج بمرتبة الشرف ، إلتحق بالبحريّة كضابط إمدادات فى أثناء الحرب العالميّة الثانية بعد عدة سنوات فى ممارسة مهنة المحاماه.. خدم كعضو بمجلس الشيوخ عن الحزب الجمهورى ونائباً للرئيس الأمريكى أيزنهاور لفترتين..

كان لتميّزه فى السياسة وكرجل دولة محنّك اكتساب ثقة الحزب وترشيحه إلى الرئاسة التى فاز بها.. تميّزت فترة حكمه بانسحاب الولايات المتّحدة من فيتنام واعترافها

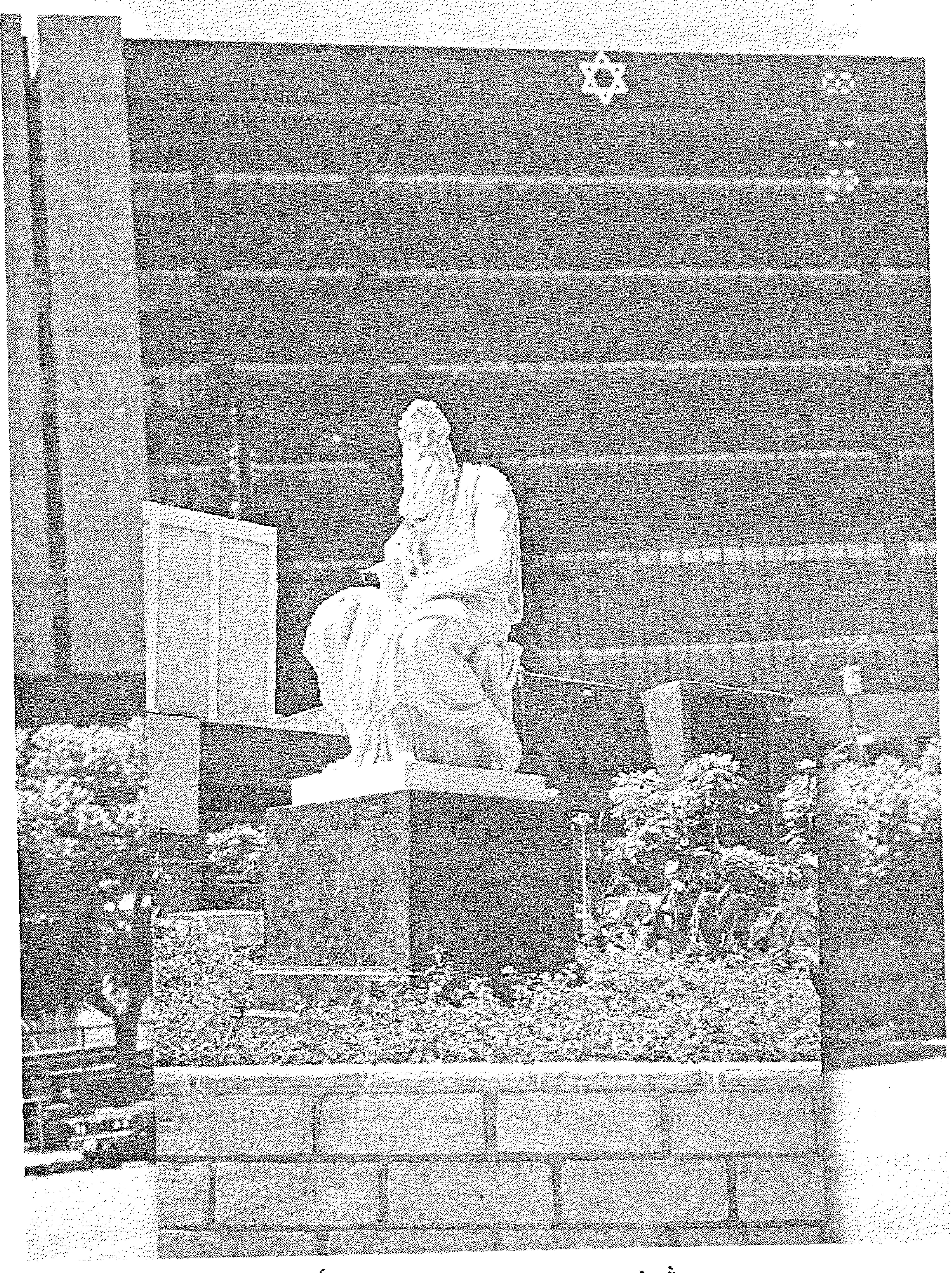
- غير الرسمي - بجمهوريّة الصين الشعبيّة . في فبراير ١٩٧٢ قام برحلته التاريخية إلى بكين .. مغيراً بذلك السياسة الأمريكيّة السابقة بعدم الاعتراف بالصين الشعبية ، وفي سنة ١٩٧٣ أى بعد أربع سنوات في الحرب الفيتناميّة .. وضرب فيتنام الشماليّة بالقنابل سنة ١٩٧٢ ، وغزو كمبوديا سنة ١٩٧٠ .. استطاعت حكومة الرئيس نيكسون توقيع معاهدة وقف إطلاق النار التي أعطت أمريكا متنفساً لسحب قواتها من الهند الصينيّة.. .

وفي حرب العرب مع إسرائيل سنة ١٩٧٣ ، تمّكن هنرى كيسنجر وزير خارجيّته من توقيع إتفاق وقف إطلاق النار وفك الاشتباك بينهما .. أدّت توابع هذه الحرب إلى تضاعف أسعار البترول نتيجة لقرارات منظّمة الدول المصدّرة للبترول " الأوبك" بزعامة المملكة السعوديّة ، وبدأ الهبوط الاقتصادى العالمي من ١٩٧٤ إلى ١٩٧٥ . أثناء إعتكافه اشترك مع الوفد الرسمي للولايات المتّحدة الأمريكيّة في تشييع جنازة الرئيس المصرى الراحل أنور السادات مع الرئيس السابق فورد وكارتر سنة١٩٨١ . كتب عدة كتب عن ذكرياته ، وتاريخ حياته ، و صراع الشرق والغرب ، والكارثة الحقيقيّة ، والزعماء.

كان من باكورة أعمال السيدة الأولى لأمريكا " ليدى فورد" .. القيام بافتتاح المركز الطبّى الجديد سيدار - سيناء الذى جمع بين المستشفيين.. وأسموه " مارد الغرب " .. فأهدوا كل فرد من العاملين مفتاحاً رمزياً لهذا الصرح نقشت عليه الأحرف الأولى من اسمه وأقيم الاحتفال الكبير فى أرض شاسعة المساحة بجواره.. وصرت أسائل نفسى.. لماذا يتّخذون من أسماء أرضنا مفخرةً وتاريخاً لهم ؟ هل لقضائهم أربعين سنة فى تيه سيناء - عقاباً لهم من الله على عصيانهم نبيّه موسى - الحق فى امتلاكها..؟ أم هو شعورهم بالذنب..؟ والاقرار بالتوبة.. وكنت لا أعرف معنى عبـــارة " أبداً ثانيةً.. never again " أراها مكتوبة على الجيب الخلفى لرداء الفتيات.

ثم مالهم وأَرْز لبنان .. هل يعشقون هذا الشجر الجميل الضخم.. دائم الخضرة.. فوق جبال لبنان وسوريا وثمره اللذيذ من الصنوبر الذى جعله الله رزقاً لعباده الطائعين ، هل لهم مطمع فى كل بلدٍ آوتهم ..؟ وإن كانوا قد شُتِتوا فى الأرض فلهم فى كل أرض نصيب !. لقد دخلوا مصر عُراة جائعين.. فنهلوا من ماء نيلها.. وخيرات أرضها ما جعلهم يحلمون فى النهاية بانهيار سدّها العالى.. وإدّعاء تشييدهم لأهرامها..

إرتَكَنتُ على ظهر مقعد بعد إنفضاض جمع الحفل.. أتأمّل وأسترجع عظم الدعم المادى والمعنوى الذى يلقونه فى هذا البلد.. وكأنهم نوع متميّز من البشر.. كيف صارت لهم هذه السطوة والنفوذ المتعاظم فى التاريخ الأمريكى الحديث..؟ فمنذ رحلات الصيد التى قام بها الفايكنج من شمال أوروبا إلى الأرض الأمريكيّة قبل أن يكتشفها كولومبس ، وخلال معاناته مع ملوك أوروبا فى أثناء اكتشافاته الأرض الجديدة ، إلاّ أن كان الصليب وحده رمزاً عقائدياً لها.. فقد وضع المكتشف چون كابوت صليب سان چورج فوقها باسم إنجلترا.. ونزح الأوروبيون من إنجليزيين وهولنديين إليها هرباً من إضطهاد الكنيسة لهم.. لم نعرف من استقراء التاريخ تواجداً أو مشاركة يهوديّة فى نشأة هذه الأمّة.. اللّهم إلا ما نشاهده أحياناً فى أحد أفلام السينما من إندساس مرابٍ يهودى بين الجمع..



مستشفى سيدر سيناء - لوس أنجلوس

يستحلب جهدهم ونتاج كفاحهم، بخساسة وطمع، إلى أن تطوّر الأمر فى أيامنا الحديثة أن يتّخذ أحد مرشحى الرئاسة الأمريكيّة - على تذكرة انتخابه - نائباً يهودياً له لكى يصبح رئيساً لأمريكا إذا حان قدر الرئيس.. مثلما حدث أكثر من مرّة فى تاريخ الرئاسة الأمريكيّة..

إن كانت هذه علمانيّة أو عملاً بمبدأ فصل السلطات الذى احتذى به الدستور الأمريكى.. فليس معقولاً أن يسيطر ذلك المبدأ على كرسى الحكم فى أكبر دولة مسيحيّة، ليصير رئيسها يوماً ما يهودياً يخضع فى أى وقت لضغط العنصريّة الصهيونيّة مهما بلغت حيدته.. وإلا اقتُلع من مكانه أو من وجوده.. وإن كانت ديمقراطيّة.. فأين من هم أحق بها من الزنوج الأمريكيين.. الذين أُنهكوا كدّاً.. وكفاحاً.. وعرقاً فى زرع قطنها وقمحها وخدمة منشآتها وأصحابها من البيض.. بل وفى حروبها فى سبيل استقلالها ثم فى حرب إتحادها.. وقد بلغوا الآن شأواً كبيراً فى مجتمعها ومحافلها فمنهم كبار القضاة والقادة العسكريين وحكّام الولايات والرياضيين الأفذاذ والمحامين والأطبّاء ورجال الأعمال والمدرسين وأساتذة الجامعات والباحثين والفنانين.. إقتطعوا هذه الكفايات نحتاً فى الصخر بأظافرهم داخل مجتمع عدائى، وفرضوا وجودهم فى أعماقه بتعداد يفوق خمس تعداد الأمّة بما فيه من وافدين ومهاجرين .

مضى عام ونصف العام على انتقالنا إلى كاليفورنيا.. تذكرت قضيّة حادث السيّارة.. التى غفل ذهنى عنها خلال هذه المدّة لشدّة انشغالى بالعمل والحياة السريعة الإيقاع بلوس انجلوس عنها فى رود أيلاند.. قمت بالاتصال بالمحامى دى - لوكا الذى أحاطنى علماً بأنباء غير سارة عن القضيّة من حيث عدم تغطية التأمين لسيّارة السيدة التى صدمتنا.. وترتّب على ذلك ضياع التعويض لقيمة سيارتنا.. وصدور حكم بالتعويض عن الحادث يسرى لمدة عشرين عاماً إذا ظهر فى حوزة هذه السيدة قيمة هذا التعويض.. وأما عن التعويض النفسى فكان ألوفاً قليلة من الدولارات استحوذ المحامى على بعضها وأرسل إلينا بعضها الباقى بشيك.. وترتّب على ذلك ضياع عدة آلاف من الدولارات كنت قد أنفقتها على استئجار السيّارات برود أيلاند ولوس انجلوس ، وكذلك ثمن تذاكر الطائرة

فى الحضور من هناك.. ولم أتقاضَ عن تكاليف العلاج شيئاً لعدم التقدّم بحساباتها ذلك لعلاجي وأسرتي بالمستشفى دون مقابل.. وهكذا ضاع أملي في الثراء المعقود على هذه القضيّة.. لكنني كنت على يقين من أن تلاعباً ما قد حدث بين السيّدة المتسببة في الحادث وبين المحامي دى – لوكا أثناء عدم تواجدى بمكان القضيّة.. وبعدنا آلاف الأميال عن موقع حدوثها وإجراءاتها القضائيّة.. فقد استَخْرَجتُ مع أحمد حسن قبل مغادرتي رود أيلاند ما يثبت أن سيّارة هذه السيّدة مؤمّن عليها ضد الحوادث التي تصيبها أو التي تتسبّب فيها..

حمدنا الله بالسلامة ، وقنعت برزقه الحلال.. وبما نقضى من أيام سعيدة بين أقاربنا وأصدقائنا ومن يحبوننا ويساعدوننا في هذا المجتمع الحر.. ولم ينغص على حياتنا ما يدعيه الكثير من المصريين هنا من حقد بعضهم على بعض.. وحسد البعض للبعض.. وكنت أتعجّب من هذه الإحساسات التي يرددونها فخيرات الله كثيرة ومتاحة بغير حدود ولا قيود لكل من يعمل ، وكنا نتندّرفي جلساتنا مع أقربائي الأستاذ سعيد العمروسى وزوجته السيدة إحسان التي تدرس الطب بالقاهرة وتحضر في الأجازات الصيفيّة.. وشقيقته السيدة أمينه وزوجها الأستاذ أحمد.. عن قفشات هذه المواقف بين الأسر المصريّة وتفرّغ الزوجات للتعكير على حياة الأسرة بما يتخيلونه ويلفقونه من "حواديت".. وأحاجٍ هي الأكثر "تسبيكاً" من موائدهن الشهيّة.. فَقدت بذلك الأسر المصريّة روح الترابط وتفرّغت للافتراءات.. والخصومات .. والمقاطعات.. بدلاً من أن تكون قوّة إجتماعيّة عظيمة الشأن في مجال الانتخاب.. والاستثمار في المشروعات.. ووسائل الإعلام بدلاً من التشدّق بكلمات جوفاء عن حب مصر.. بما لا يحرث أرضاً.. ولا ينبت زرعاً..

من وسائل النشاطات الاجتماعية والرعاية النفسيّة للعاملين في المؤسسات الأمريكيّة الكبرى – ومنها مركزنا الطبّى – جمع العاملين بها في مناسبات غنيّة بروح الترفيه وتجديد النشاط، فكانت حفلات افتتاح " العرض الأوّل " إحدى هذه المناسبات، تحضرها جمهرة كبيرة من أهل فن السينما بهوليوود مع أبطال العرض

والمشاهير من ممثليها.. فكنا نقضى ليلة من الليالى الحافلة بالذكريات.. وفى عيد الشكر من كل عام كانت المستشفى توزّع "كوبونات" لكل العاملين بها للحصول على "ديك رومى" من أحد الأسواق اليهوديّة الشهيرة ، وهكذا يحتفل اليهود بالمناسبات الدينيّة المسيحيّة وغيرها نفاقاً ، حتى صاروا نسيجاً متلاحماً مع المجتمع الأمريكى .

فى إحدى المرّات كانت الدعوة لحضور حفل موسيقى سيمفونى فى مسرح " قوقعة هوليوود" الذى يشبه فى هندسته الرائعة قوقعة حفرت فى الأرض ، وتقسّم مساحته إلى عديد من الأماكن الخاصة لجلوس أربعة من المشاهدين "البنوارات" .. جمعتنا إحداها مع زوجين إسرائيليين ، جلسا فى المقعدين الخلفيين لها وجلست وزوجتى فى المقعدين الأماميين.. فى موعد العشاء أخرجوا وأخرجنا الطعام الجاف وقبل البدء فى تناوله تبادلت الأسرتان النظرات والشعور بالحرج.. فصرنا نتبادل معهم الأطعمة والابتسامات.

الإقالـــــة..

لم تَطُل بنـا أيام الاستقرار النفسى هذه فى الحياة الاجتماعيّة بعد توّترات الحرب والانشغال فى الدراسة والعمل.. فقد تلقيت رسالة إقالتى من الجامعة لانقضاء مدّة المهمّة العلميّة.. وصار من المحتّم علينا أن نعيد حساباتنا.. ولسبب أعلمه.. أو لا أعلمه تزامنت تلك الفترة مع عَرضٍ أُلقى إلي بالعمل فى إسرائيل.. ففي حديث مع أحد كبار الأطبّاء من هيئة المستشفى وممن ينتظمون فى برنامج تبادل الأساتذة مع مستشفى" هداسا" بإسرائيل.. وكان حديث الرجوع من هناك.. أخبرنى أنهم يرحبون بمن هم مثلى من الأطباء متحدثى العربيّة، ليكونوا حلقة اتصال بينهم وبين قاطنى إسرائيل من العرب.. وشعرت فى التو أنه يجتذبنى بعيداً عن الإحساس بالتردّد.. أو بالخيانة.. بما يقدمه من سبب مؤداه خدمة العرب هناك وليس خدمة إسرائيل.. وما لا أعلمه هو كيف تَزَامن هذا العرض مع خطاب إقالتى من عملى بالإسكندريّة.. فلم أعلن عن ذلك لأحد حتى لزوجتى انتظاراً لما يستجد من أمور.. قررت نبذ فكرة أى ارتباط بين الحدثين.. فلا يبدو من الشواهد إلا أن ذلك قد جاء بالمصادفة.. فخطاب الإقالة فى جيبى.. ولا أعرف عن أى مراسلات رسميّة بين المستشفى وبين الجامعة بالإسكندريّة..

منحتنى الجامعة مدة أسبوعين للعودة واستلام العمل.. وكنت أستطيع تنفيذ ذلك رغم قصر المدة.. بفض كل ارتباطاتى على الفور.. وأهمها قطع برنامج أبحاثى الذى مازلت فى منتصفه.. وضياع كل ما عملت من أجله طوال أكثر من عامين بلا عائد علمى.. كان ذلك – من وجهة نظرى – إحباطاً لمعنوياتى.. ووأداً لتطلعاتى وآمالى.. بل وقهراً لمستقبلى العلمى إذا عدت بخفى حُنين.. بلا أبحاث.. أو شهادة قطعتُ بنجاح أكثر من نصف طريق الحصول عليها.. أما عن وضعى المالى فلم يستحق كثيراً من التفكير فالعائد من المرتب لا يحقّق مدخراً كبيراً فى هذه البلاد عالية التكاليف والإنفاق.. ولا يتأتّى ذلك إلا بالعمل الحر ، وهذا مرتبط بحصولى على الشهادة ورخصة مزاولة المهنة فمما قاله من سبقنى.. لا يستطيع الطبيب هنا حصر دخله من العمل الحر، وعائد استثماره ، ويَكِل ذلك إلى المحاسبين والمحامين لكثرة انشغاله فى جمع المال بقدر ما يستطيع من جهد..

تشتتت أفكارى فى مفترق طريق.. تأكّدت أن أحد مفارقه هذه لا يطرقه مثلى.. وهو قبول عرض العمل بإسرائيل ، ولم يعد أمامى إلا العودة على الفور أو الاستمرار فيما خطّه القدر لنا انتظاراً للأحداث.. كانت ترقية زوجتى فى عملها بالإسكندرية قد أُجلت.. أو بمعنى آخر أُهملت .. وعلى الأصح ألغيت.. إذ وضع رئيسها هناك ملف خدمتها على الرف قائلاً "دى بتتفسّح مع جوزها فى أمريكا.." ولمست منها عدم الرغبة فى العودة على الأقل ليس فى التو واللحظة، فقد كانت "كوابيس" هذا الرئيس فى معاملته الفظة لها ما يؤرق نومها.. ووجدت فى ذلك التحول ما شجع قرارى بالاستمرار .

لا أعرف لماذا أحببت بعضاً من اليهود فى مجتمع المستشفى الجديد.. فمن الواضح أنى لم أستشعر منهم كراهية أو بغضاء نحوى كمصرى.. إذ كانت معاملتهم تتميّز بالمساعدة والذوق ففضلاً عن " ستين" الذى أنصفنى فى كثير من المواقف على زميلتى الإسرائيليّة كلارا.. كان د . كلاينبرج كبير أطباء المستشفى.. رجلاً وقوراً هادئاً.. تميّزت معاملته لى بالاحترام والتقدير والمساعدة . فى محاسبتى الضريبيّة جار مأمور الضرائب - وهو أمريكى أرمنى الأصل - فى حساب ضريبة لم أكن ملزماً بها فى رود أيلاند.. بدعوى تغيّر صفتى الوظيفيّة عنها هناك.. أخبرته بأنى لن أسدد ضريبة أكثر من الشريحة التى خضعت لها من قبل.. إلا بعد الرجوع إلى مسئولى المستشفى.. فى إحدى محادثاته الهاتفيّة استأذنته فى توصيل الخط إلى هاتف د . كلاينبرج الذى دخل معه فى مشادة كلاميّة حادة من أن هذا الموضوع قد تم تسويته قبلاً وألزمه بعدم التعرض لى أكثر من ذلك.. وإلا سيتخذ ضده إجراءاً قانونياً.. وكان أن امتنع هذا الضرائبى المستبد عن تعكير صفوى عملاً بما أملاه عليه كلاينبرج .. كذلك كانت مواقفه فى تعضيد آرائى الطبيّة عند مناقشة حالات المرضيّ فى اجتماع الأطبّاء المقيمين الإسبوعى ، بطريقة يملى فيها عليهم وجوب تمثلهم بشخصى ومستواى العلمى حتى استقامت علاقتى بهم.. وكانت سكرتيرته " ماجى" وهى سيدة أمريكيّة مخضرمة ذات شخصيّة آمرة.. تسرع لتلبية طلباتى فى كل ما تستطيع إجراءه.. أو سرعة مقابلتى له إذا خرج الأمر عن مقدرتها.

سكرتيرة القسم " أيلين جولد برج " مطلّقة يهوديّة هادئة الجمال تتمتّع بجاذبية لطيفة.. وتَصرّف مهذب.. تحمل لى كثيراً من الود والاحترام.. وهى التى قالت لى يوماً "أنا أكره هؤلاء الإسرائيليين.." إذ كانت زميلتى كلارا تفرض عليها شخصيتها وطلباتها.. كما كان الثقيل مارسيل - زوج كلارا - يجلس جوارها بالساعات فى انتظار موعد انصراف زوجته.. عهدت إلى فى أحد المرات بالإشراف على علاج أحد أقربائها بالمستشفى.. ولم تعهد إليَّ كلارا بذلك.. كان مقرّنا بالطابق السادس من المبنى الجديد.. تشرف حجرة مكتبى من خلال نافذتها الزجاجيّة العريضة على مشهد " بانورامى " لمدينة لوس انجلوس.. وكانت السكرتيرات يشغلن مربع البهو الداخلى بين المكاتب.. فكن يختلسن بضع دقائق للحضور إلى مكتبى والتطلع إلى هذا المشهد الفريد بدعوى إحضار كوب من القهوة أو دعوتى لقضاء فترة الغداء بالمطعم ..

فى إحدى المرات طلبت أيلين محادثتى فى موضوع خاص بها.. مؤداه أن نبيل السيد طلب منها موعداً للخروج معها.. أرجأت ردها بعض الوقت.. وآثرت أن تخصّنى بخبر إقدامها على الزواج ، ولم ترد إحراج نبيل باعتذارها.. وأنها تعهد إليّ بذلك.

أما عن ستين.. فقد حدثت القارئ بموقفه أثناء تأليف فصل الكتاب ، وطلبه من كلارا مساعدتى فى البحث عن مسكن عند انتقالنا إلى لوس انجلوس ، وإجابته المؤثرة من أن استقالته ستسبق استقالتى إذا كان حديث الأطبّاء بمكتبة المستشفى عن الحرب موجّهاً إلى شخصى.. واستضافته لأسرتى بمنزله أثناء مناوبتى فى العمل.. همست لى أيلين فى أحد الأيام أن كلارا زميلتى الإسرائيليّة.. تتقاضى مرتباً أكبر من مرتبى ، إتّجهت إلى مكتبه محتدّاً.. وناقشته فى ذلك.. فما كان منه إلا أن طلب إحضار كشف المرتبات.. وأطلعنى على حقيقة أن مرتبى أكبر من مرتبها وأنى أتقاضى أكبر مرتب فى أمريكا لوظيفة زميل بما فيهم الزملاء الأمريكيين.. هكذا احترمت هذا الرجل بل وأحببته وعددته - كما حادثت القارئ من قبل - نوعيّةً أخرى عن نوعية ستيف ليفى.. وقد آثر لنفسه ألا تلوثها العصبيّة الدينيّة أو الصهيونيّة.. لذلك كان أدائى فى العمل يحيطه شعورى بالإخلاص لشخصيّته العلميّة ولروح الفريق الذى يترأسه..

كان ستين أباً لثلاث بنات أصغرهن " إيمي.. " في حوالي السادسة عشرة من عمرها.. تعرّفت إيمي بشاب همجي حضر ليقضي بعض الوقت متطوّعاً وكان - كبقية الشباب العائد من ڤيتنام - يحمل مشاعر مدمّرة للمجتمع الأمريكي.. من مظاهر همجيّة هذا الشاب.. نفخ البالونات بغاز "الهيليوم" الخاص بأبحاث القسم.. لتلتصق البالونات بسقف الحجرة.. وكانت عيناه المحتقنتان تنبئان عن مدمن لا يبالي بما حوله.. أو من حوله..

في وقت متأخر من إحدى الأمسيات كنت أجلس بمكتبي أستخلص بعض الأرقام من رسم بياني.. إذا بي أسمع قرعاً.. وصوت ستين يناديني باسمي أن أفتح له الباب.. كان يحاول إخفاء التهدّج في صوته وهو يسألني إن كنت قد شاهدت ابنته "إيمي"..؟ فسألته.. ماذا عن "إيمي" في هذا الوقت من الليل..؟ أخبرني أنها لم تعد للمنزل.. ولم أعرف ماذا يريد مني رغم أن الخاطر قد راودني عن ارتباط هذا الحدث بذلك الشاب.. ثم سألني مباشرةً إن كنت أعرف رقم غرفته - وكانت المستشفى تعطي بعضاً من المتطوعين حجرات صغيرة لراحتهم في طابقها الأرضي - قدحت ذاكرتي.. وهو واقف يتلهّف على معرفة رقم الحجرة.. كان رقم ٢٧ قد علق بذهني في إحدى مرّات محادثة هذا الشاب.. طلب مني - في رجاء - أن أصحبه إلى الحجرة.. فسألته إن كان يريدني إبلاغ أمن المستشفى.. فرفض.. إتجهنا إلى المصعد نزولاً إلى الحجرة.. قرع بابها في هدوء.. وفتح صاحبنا الباب.. فشاهدنا من خلاله الفتاة تعتلي أعلى سرير من طابقين.. حادثها والدها بكل ما في مشاعر الأبوة من حب وحرص.. من أن والدتها قلقة عليها.. فنزلت عن السرير.. وأصلحت من هندامها.. واصطحبها أبوها وإنصرف.. ولم يظهر ذلك الشاب الهمجي بعد ذلك..

لم تعد العلاقة - بعد تلك الواقعة - بيني وبين ستين علاقة مرؤس برئيسه، بل صارت أقرب إلى علاقة صداقة.. مازال يحدها تحفظه بعدم الاسترسال في التبسط.. لغرض في نفس يعقوب لم أعرف أغواره.. لكن مشاعره بعد حادثة ابنته إيمي أصبحت أكثر انفتاحاً بدعوتنا للعشاء في منزله .

كانت زوجته سيدة ذات شخصية إجتماعيّة تحسن استغلالها في أداء واجباتها نحو مجتمع زوجها العالم الطبيب .. من حضور المناسبات والاشتراك مع أفراد أسر هذا المجتمع في الترفيه.. والدعوات.. والمجاملات.. وتبادل الهدايا.. رغم شعورنا باعتلال في صحتها.. كنت أعرف أنها تعدّ لدرجة الدكتوراه في العلوم الإجتماعية ، جَلَست أحادثها بعد العشاء أستمع إليها في إنصات وشغف لمعرفة آرائها في بعض المسائل الحياتيّة.. لمس الحديث عاطفة الأمومة.. وهل هي مكتسبة أو موروثة.. تلك القضيّة التي شُغِفَ بها فلاسفة الدنيا منذ الخليقة.. كان عمق ثقافتي الاجتماعيّة هو ما نشأنا عليه من حنان أمهاتنا وعاطفة أمومة ضاربة حتى النخاع.. تورثها الأم لابنتها ولأجيالها من بعدها.. صرت أتمثّل بمخلوقات الله في عاطفة الأمومة الموروثة عندها.. حتى فتر حماسي في مواجهة ثبات إعتقادها ضد كل ما عرضته من شواهد الطبيعة.. لتبقى القضيّة معلقةً بين عاطفة الإنسان في عَدِّ الأمومة خلجاتٍ موروثةً.. وبين واقعيته في عَدِّها مكتسبةً ممن وبما حولها .

صار ستين يستضيف زوجتي وابنتي في بيته ببڤرلي هيلز.. الذي يجاور ڤيللا نجمة السينما الشهيرة "راكيل ولاش" أثناء حفلاته في إجازة الأسبوع إذا كان يكلفني بالعمل بدلاً منه.. ويترك على مكتبي شيكاً باسمي كمكافأة لي عن ذلك.. كنت أرحب بقضاء أغلب أوقاتي في العمل.. لزيادة دخلي ولزيادة فرص مشاهدتي وعلاج بعض نجوم السينما العالميين مثل.. هنرى فوندا.. وأرنست بورجنين.. و روك هدسون.. ودورثي مالون.. إذ كانوا زبائن شبه دائمين بالمستشفى.. سواءاً بالإقامة أو بالزيارة..

ليندا بيورا.. مشرفة برنامج التعليم التمريضي المستمر لهيئة تمريض العنايات المركّزة.. كلّفتني المستشفى عن طريقها بالتدريس لهن .. وليندا إحدى الشخصيات اليهوديّة المحبوبة.. ضحوك مسترسلة التصرفات.. تشعرك بسيدات مجتمعنا " البلدى" ممن نطلق عليهن لفظ " عشَريّة" .. تعرض مساعدتها في أثناء العمل و خارجه.. وتشارك في أى حفل أو مناسبة.. تُضفي البهجة بضحكاتها المنطلقة.. كنت أطلب منها إرسال زوجها ليدربني في لعبة التنس في أحد المتنزهات العامة القريبة من مسكني بعد ساعات

عمله الطويلة.. كما أهدتني نسخة شريط فيديو لمحاضراتي.. كانت المستشفى تسجلها تليفزيونياً للاحتفاظ بها في أرشيف مكتبتها..

في يوم عيادتي الخارجيّة الأسبوعي.. كانت تحضر مجموعات من المترددين الروس أقوم بفحصهم.. رأيت فيهم صحة موفورة خاصة السيدات منهم.. والروس يتميزون بكثرة أسنانهم المغطاة بالذهب.. عرفت أنها وسيلتهم للادخار.. كنت أحسبهم مهاجرين إلى أمريكا.. إلى أن اتضح لي أنني كنت أشارك في برنامج تهجير اليهود الروس إلى إسرائيل.. فصرنا نتندّر بذلك في جلساتنا بين الأقرباء والأصدقاء.

كارين آن كوينلان..

شُغِلَ الأمريكيون والعالم فى هذه الفترة بقضية إنسانية إستحوذت على مشاعر الناس وحواسهم ومجادلاتهم فى مجتمعاتهم وعلى الخصوص المجتمع الطبى ، إذ أصدرت محكمة نيو - چيرسى العليا حكمها بسحب جهاز التنفس الإصطناعى عن المريضة الشابة "كارين آن كوينلان" بعد أن خولها والد المريضة هذه السلطة ، وكانت المحكمة الإبتدائية قد رفضت من قبل دعوى الأب ..

إستخلصت المحكمة العليا بأنه لو أن فى إستطاعة السيدة "كوينلان" إتخاذ القرار لنفسها لكانت قد سلَّمت بعدم جدوى العلاج الذى يطيل الحياة الجسمية البيولوچية دون الحياة الحسيّة . إشتملت قرارات المحكمة على أن وسائل دعم حياتها يمكن سحبها ، إذا كان أطباؤها وأعضاء لجنة أخلاقيات المهنة بالمستشفى يوافقون على أن مثل هذا الدعم لا يغير فى حالة مسز كوينلان "أى أن سحب وسائل دعم الحياة من سلطة الهيئات الطبية فى حالة موافقة أهل المريض " .

أضحت الندوات والمؤتمرات معتركاً لوجهات النظر الإجتماعية والإنسانية فى ذلك الأمر الحيوى ألا وهو سحب أجهزة دعم الحياة وأهمها التنفس الإصطناعى عن المريض المصاب بموت المخ ، والوسائل العلاجية الأخرى مثل العقاقير كالمضادات الحيوية والأكسچين ،كذلك المحاليل التى تحافظ على ضغط الدم فى الجسم لتَروية أنسجته المختلفة.

تعاطَفت الغالبية مع هذا الحكم لكنها ترددت عند معرفة أن هذا الجسم الحى يؤدى وظائفه الحيوية من إستمرار نبض القلب ، وبالتالى الحفاظ على حرارة الجسم الطبيعية ، وانتظام عملية الإخراج إذا أُمدت المعدة بأنبوب لتوصيل الغذاء إليها ، بل وجادل البعض فى إمكان حمل المريضة ونمو جنينها إلى تمامه داخل رحمها ، ثم ولادته حياً بجراحة قيصرية .. وتسائلوا عن كيف تتأتى فكرة الحكم بالموت فى وجود شواهد الحياة هذه ، وصار الطعن والتشكك من وسائل إثبات موت المخ دعامة مؤيدة لهؤلاء المعارضين . على الجانب الآخر فإن المؤيدين لذلك قد دعموا رأيهم بأن موت الحواس من الإحساس باللمس والألم والحرارة ، وعدم القدرة على السمع والإبصار والشم والإستطعام هى دلائل موت

المخ .. تطورت المجادلات إلى أعنف عند مناقشة مبدأ إستئصال أعضاء مثل هذا الجسم لزرعها فى جسم آخر ، فقد تداخلت الأمور إلى التشكيك باستغلال تلك الأعضاء ، وما قد يواكب ذلك من الشطط فى بعض المواقف .

كذلك مرت بنا أوقات مهنية عصيبة منها ما حدث أثناء نقل محتويات المستشفى القديم إلى المركز الجديد ، إذ فجعنا بوفاة أحد المرضى مختنقاً لوضع "مراتب" الأسرّة فوقه دون دراية القائمين على هذا العمل بوجوده ، وكانت إدارة المستشفى مازالت تجادل فى قضيتى تعويض إحداهما إختص بها قسمنا ، إذ قام د . لستر - روو بإنقاذ أحد المصابين بإختناق فى حادث مرور بوضع أنبوب تنفسى داخل رئتيه عن طريق الفم ، وبعد شفائه ظل يعانى من حشرجة دائمة فى صوته وعزا محاموه السبب إلى خطأ فى الإجراء . أما عن القضية الأخرى فكانت خاصة بمريض زنجى أُجريت له عملية إستئصال اللوزتين وأشفى على الموت لإنقطاع الأكسچين بجهاز التخدير أثناء إجراء الجراحة ، وانتهت حالته إلى موت المخ وادعاء أطباء التخدير أن انقطاع الأكسچين كان لانسداد أنابيب الإمداد به من داخل الحائط . بقى هذا المريض فى غيبوبة تامة مدة شهرين بالعناية المركزة ، وتم نقله إلى وحدة عناية ممتدة خارج المستشفى ، فكانت حالته مادة لمحاضرتى عن نقص الأكسچين المفاجئ لممرضات العناية المركزة اللاتى كنّ يتابعن حالته بانتظام ويُحطننى علماً بها .

لم ينقطع اتصالى بكليتى بالإسكندريّة خاصة باقتراب موعد الامتحان .. وقرب انقضاء فترة عملى كزميل بالمستشفى .. ولضرورة اتخاذ قرار نهائى بعد ذلك .. إما بالبقاء الدائم .. أو العودة إلى أين .. ؟

حملتنى الطائرة إلى مدينة سان فرانسيسكو لأداء الجزء الثانى من الامتحان .. على باب الخروج من مطارها .. وجدت أمامى سيارة فارهة سوداء يقوم سائقها الشاب بفتح بابها لتُقلّنى .. لم أتردد .. وفى الطريق إلى الفندق الذى اخترته قريباً من مقر الامتحان .. أخذت أخمّن عن جنسية السائق .. أسمر البشرة .. أسود لون الشعر .. لم يكن هندياً ولا مكسيكياً فملامحهم متميّزة وشعورهم كثيفة .. فى سؤالى له عن بعض معالم الطريق إلى

الفندق.. تعرّف عليّ ولم أتعرّف عليه إلا بعد أن أخبرنى أنه من إسرائيل.. هؤلاء "الصابرا".. هم مواليد إسرائيل أخبرتنى كلارا عن معنى الكلمة.. شائكون من الخارج.. حلوون من الداخل.. كثمرة الصابرا أى التين الشوكى.. تجاذبنا أطراف الحديث خلال الطريق الطويل نسبياً إلى الفندق.. أخبرنى أنه لا يفضّل العيش فى إسرائيل لقلة فرص العمل هناك.. وأن أمريكا هى أرض الأحلام فى تكوين ثروة.. وأنه لا يحمل مشاعر عدائيّة نحو العرب.. صرت أربط بين هذا الحديث الناعم وأجرة السيارة عند الوصول..

على باب الفندق كان سريعاً - بحرفيّة متقنة - فى فتح باب السيارة والانحناء.. مشفوعاً هذا بطلب الأجرة.. أربعة وعشرون دولاراً.. توقفت عن الخروج من باب السيارة ناظراً إليه فى تساؤل وإعراض عن الدفع.. أخذ يقسم بالعربيّة والإنجليزيّة.. فأخبرته أن فئة الأجرة من المطار لا تزيد عن خمسة عشر دولاراً.. فأخبرنى أن هذه سيارة خاصة وليست سيارة أجرة مألوفة.. وأنه على استعداد للحضور إلى باب الفندق فى الصباح الباكر لاصطحابى إلى مقر الامتحان بفئة سيارة الأجرة المألوفة إكراماً لتعارفنا.. إنتابنى بعض التوجس.. هل سيضحك علىّ هذا الإسرائيلى..؟ وشعر بترددى فأخرج من جيبه الداخلى كتيّباً صغيراً أشار بإصبعه إلى أحد الجداول بين صفحاته بالقيمة التى طلبها.. وأقنعت نفسى أن مظهر العظمة والشعور بها بركوب مثل هذه السيارة من المطار إلى وسط البلدة يستحق المبلغ.. فنقدته إياه .. وانصرف معبّراً عن شكره وامتنانه..

من هؤلاء الصابرا تتكوّن القوّة الضاربة من مجندى وضباط الجيش الإسرائيلى أبناء وأحفاد أفراد عصابات " شتيرن".. و "أرجون زفاى ليومى" و "الهاجانا".. وغيرها من منظمات إرهابيّة إسرائيليّة ارتكبت مذابح دير ياسين من سنوات ماضية.. ممن بقروا بطون الأمهات الحوامل من نساء العرب تراهناً على نوع الجنين ، وارتكب ذريتهم من بعدهم مذابح صابرا وشاتيلا.. والمسجد الأقصى.. وقانا.. والكثير غيرها.. فى سنواتنا الحاضرة..

هؤلاء هم نسل المهاجرين إلى إسرائيل من دول أوروبا.. فيما يعرف باليهود "الإشكنازيم" ومن دول الشرق فيما يعرف باليهود " السفارديم" وآخرهم الفلاشا.. يهود أثيوبيا.. الذين هيّأت لهم إسرائيل جسراً جويّاً لنقلهم تحت سمع وبصر العرب المحيطين

سنة ١٩٨٤ - ١٩٨٥ ، مما يثير الشك بتعاون بعض منهم فى هذا المخطط.. كذلك اليهود الروسيون ويهود أمريكا الجنوبية.. ليتكوّن من كل هؤلاء مجتمعٌ إسرائيليٌ متضارب الأصول.. مختلط الأجناس.. مشتّت التطلّعات.. مختلف اللغة والعادات.. بالإضافة إلى جالية عربيّة.. ثابتة الإقامة فى أرضها المغتصبة آثرت عدم النزوح إلى بلاد أخرى لكى لا تصبح من اللاجئين.. تحاول إسرائيل سلب هويّتهم.. وحقوقهم السياسية والاجتماعيّة.. لتعاطفهم مع قضيّتهم ومشاركة إخوانهم الفلسطينيين المقيمين على ما بقى من أرض متفرقة.. معزولة.. محاطة بمستوطنات.. ومستعمرات.. للوافدين اليهود الجدد من المعين اليهودى العالمى الذى تحاول المؤسسة الصهيونيّة العالميّة إخفاء تعداده دائماً..

بالتقريب فإن عدد يهود العالم يربو على ثمانية عشر مليوناً أغلبهم بالولايات المتّحدة الأمريكيّة فيما يدور حول ستة ملايين.. مثلهم بإسرائيل .. وأكثر من نصف المليون فى كل من فرنسا وروسيا وأوكرانيا ، وأقل من نصف المليون فى كل من إنجلترا وأمريكا اللاتينيّة وكندا ، وأقل من ذلك فى كل من جنوب إفريقيا.. واستراليا.. والمجر.. وألمانيا.. وبلجيكا.. وإيطاليا.. وهولندا.. وإيران.. وتركيا وبضع آلاف فى الهند.. وفى اليونان وبعض دول الشتات.. وفى بعض الدول العربيّة مثل المغرب وتونس ، وبضع مئات فى كل من اليمن والحبشة وسوريا والعراق ومصر .

نشأت حركات إنسانيّة واعية داخل إسرائيل ، شعرت بمثل ما شعر به بعض الأوّلين من قادة يهود العالم من أن تكتّل اليهود وتجمّعهم بَشير شرٍ يسترجع مشاعر العداء القديم لهم فى بابل وإيطاليا وفرنسا وألمانيا والنمسا وروسيا وبولاندا وغيرها ، خوفاً من تخريب مجتمعاتهم . كما نشأت حركات الهجرة المضادة من إسرائيل إلى أمريكا وبعض دول أوروبا ، كذلك ظهرت حركات شبابيّة تنادى بالسلام مع الجيران العرب ، بل وشعور بالامتعاض والتمنّع عن أداء الخدمة العسكريّة، مثلما ظهر فى حرب ڤيتنام، وقاد ذلك فى أمريكا بطل العالم فى الملاكمة المسلم محمد على كلاى وتبعه الكثير من الشباب الواعى متيقّظ الضمير .

اليهود السفارديم Sephardism

هم يهود أسبانيا والبرتغال وبلاد الشرق الأوسط.. لهم مناسك خاصةً بهم.. ونمط مختلف في حياتهم.. ويدَّعون ارتباطهم باليهود الإشكناز عن طريق الأصل العبرانى ، إشترك منهم شخصيّات عديدة فى بناء الثقافة العربيّة بالأندلس أثناء عصر نهضتها فألّفوا بالعربية مخطوطات مهّمة.. فى العلوم.. والفلسفة.. والنحو.. والمنطق.. ومن علمائهم فى هذه الفترة.. سليمان بن جبريل.. وليڤى بن جرشوم.. وابن ميمون الطبيب " ميمونيدس" .

اليهود الإشكنازيم Ashkenazim

هم اليهود الذين عاشوا فى إيطاليا.. وألمانيا.. وفرنسا.. وهولندا.. وانجلترا.. فى أمان وتجارة مزدهرة مع بلاد بعيدة.. إلى أن أبادهم الصليبيّون فى فرنسا وألمانيا سنة ١٠٩٦ وما بعدها.. وفى أثناء ما سُمِّى الموت الأسود " ١٣٤٧ - ١٣٥١ " بسبب انتشار مرض الطاعون.. إتُهِمَ اليهود بتسميم آبار المياه بهذا المرض.. وحين فُرض على المسيحيين عدم إقراض المال بالربا.. تبنّى اليهود المعاملة بالربا.. فَمُنعوا من التملّك ومن مزاولة مهنة التجارة.. ثم طردوا من انجلترا سنة ١٢٩٠ .. ومن فرنسا سنة١٣٠٦ .. ومن إيطاليا سنة ١٣٩٤ .. وتحركت الكثرة منهم ناحية بولندا فتحكّموا فى سوق المال والتجارة بها..

لم ينفتح اليهود الإشكنازيم على ثقافات عريضة مثل اليهود السفارديم.. وانحصرت ثقافتهم فى أمور العبادة.. وكتابة الأحكام.. والحوارات الدينيّة من التوراة والتلمود (التلمود.. هو أساس التعلم والتعامل عن طريق تفسير تعاليم التوراة ، وتطبيق قوانين ممارسة الحياة الدينيّة فى المجتمع) .

يهود الجيتو

عُرف عن اليهود تشرذمهم فى أماكن معيشة منعزلة.. ومنذ القرن السادس عشر.. فرضت عليهم الحياة داخل أسوار لا يغادرونها ليلاً أيام الأعياد المسيحيّة.. وأُجبروا على تعليق إشارات تميّزهم عند خروجهم منها.. وكان مقرهم فى ڤينيسيا يُسمّى بالجيتو فأطلق عليهم هذا الاسم.. كما فَرَضَت مجتمعات بولندا.. وليتوانيا.. مثل ذلك العزل عليهم. ظل اليهود يتحدثون بألفاظ اللغة الألمانيّة مختلطة بالألفاظ العبريّة المتداخل فيها لغة السلاف فنشأت من ذلك لغة تعرف فى العصر الحديث بلغة.."اليدشية Yiddish". تركّزت حياتهم الفكريّة فى دراسة التلمود.. ووضعوا قوانين للحكم فيما بينهم.. متمركزين فى أربع دول هى.. بولندا.. إيطاليا.. ألمانيا.. ولتوانيا.. أدت ثورة القوقاز والتتار فى أوكرانيا سنة ١٦٤٨ إلى غزوهم بولندا ، حيث أقاموا المذابح لمئات الآلاف من يهودها.. انتهت بها اليهوديّة فى بولندا..

فى سنة ١٦٦٥ إدعى اليهودى التركى " ساباتاى زڤى ".. أنه المسيح المنتظر فتبعه الآلاف من يهود أوروبا والشرق الأوسط ولحقوا به فى فلسطين.. وانهارت دعوته باعتناقه الإسلام خوفاً من تهديد السلطات العثمانيّة له بالموت.. نَمت من دعوة ساباتاى زڤى فى القرن الثامن عشر ببولندا دعوة مماثلة قادها چاكوب فرانك.. التى انهارت كذلك باعتناقه المسيحيّة الكاثوليكيّة .

يهود الدُنَمه

كان من تداعيات حركة ساباتاى زڤى .. ظهور طائفة يهوديّة فى الدولة العثمانيّة فى منتصف القرن السابع عشر تعرف (بالدونمه).. يشتق اسمها من اللفظ التركى (دونمك) بمعنى العودة والرجوع.. تتّخذ " هذه الطائفة" أسماء إسلاميّة.. وتؤدى تعاليم الإسلام الظاهر منها أمام الناس ، وتخفى فى باطنها معتقداتها اليهوديّة المتمثّلة فى إيمانها بالله رباً.. وساباتاى زڤى مسيحاً.. لا مخلص لها إلا هو.. والتزام كل ما أمر به (إذ لم يعترف اليهود بعيسى بن مريم عليه السلام ، على أنه المسيح.. ولذلك ظلوا فى انتظار المسيح)..

أفراد طائفة الدونمة يدخلون مساجد المسلمين. .ويؤدون طقوس طائفتهم في معابدهم الخاصة.. يحجون بيت الله الحرام.. ويحتفلون بأعياد المسلمين.. ويصومون شهر رمضان في الظاهر.. ويحتفلون بأعياد اليهود ويصومون صيامهم أيضاً .. يكرهون الإسلام.. ويدبّرون المؤامرات للإطاحة بالحكم الإسلامى ، وينظمون الجمعيّات السريّة ضد المسلمين. يظهرون المودة للمسلمين فى الظاهر ويتظاهرون بالعمل لمصلحة المسلمين، ويدخلون كافة التنظيمات المعادية للإسلام..

جاء فى قائمة الأوامر التى فرضها ساباتاى زفى إلى أتباعه بعد فكّ أَسْره..

- الفرض ١٦ وينص على : يجب مراعاة عادات الأتراك.. ذراً للرماد في عيونهم ، ويجب عدم إظهار الضيق بصوم رمضان أو عند تقديم الأضحية ، ويجب المحافظة على جميع المظاهر..

- الفرض ١٧ : يُمنع الزواج من المسلمين .

يهود الدونمة هؤلاء.. يمتلكون ويديرون أقوى أجهزة الإعلام ويعملون على توجيه الرأى العام على هداهم .. يتحالفون مع الماسونيين.. ومع الشيوعيين.. ومع الإشتراكيين.. ومع القوميين.. ومع اليهوديّة العالميّة ، ويُسَخّرون أجهزتهم الدعائيّة القويّة لخدمة أغراضهم المشتركة. يوجهون اهتماماتهم إلى ناحيتين : السيطرة على أجهزة الإعلام واحتلال المناصب المهّمة في الأجهزة الحكوميّة . وهم وإن كانوا معروفين بقدر ضئيل جداً فى تركيا إلاّ أن دورهم فى تركيا الحديثة كبير.. وما خفى منه أكثر بكثير جداً مما نعرف.

قالت عنهم مجلة " سبيل الرشاد " التركيّة فى عددها رقم ٣٩٠ بتاريخ ١٨ من فبراير سنة ١٩١٩ (أنهم ظاهراً مسلمون لأن فى ذلك مصلحتهم من كل النواحى ، ويسمون أولادهم بأسماء إسلاميّة ، ولكن لا علاقة لهم قدر ذرة بالإسلام.. بل على العكس فإنهم يفعلون كل ما فى وسعهم وبطريقة مدهشة خفيّة فى هدم العادات الإسلاميّة ، ففى تكوينهم حقد على الإسلام متمكّن من نفوسهم. وإنهم يتحينون الفرصة للانتقام من الإسلام وإفساد الحياة الإجتماعيّة الإسلاميّة..)

كما قدّم كاتبان فرنسيان في كتاب لهما بعنوان " جغرافيّة التاريخ" معلومات عن الدونمة نشرتها جريدة " محراب " التركيّة في عددها الخامس عام ١٩٢٤ نصه..(الدونمه القبانجيّة هم أكثر مجموعات أهل سلانيك.. ذكاءاً، فقد اندسوا في خلايا حزب الاتحاد والترقّي بشكل كبير وملحوظ ونستطيع القول أنهم قد أداروا الجزء الأعظم من انقلاب تركيا الفتاة " الذي أسقط السلطان عبد الحميد الثاني.." وهذا الانقلاب - أساساً - قام به يهود الدونمه وهم مسلمون شكلاً وفي الحقيقة معادون للإسلام وكل صلتهم بالإسلام انحصرت في الأفعال الظاهرة فقط) .

أما دورهم في البلاد الإسلاميّة الأخرى - غير تركيا - فمجهول من الباحثين تماماً حتى الآن.. إلا أنه حلقة من سلسلة الجيش الماكر الذي أُعدَّ على عين اليهوديّة العالميّة وبالتعاون مع كل أعداء الإسلام الشرقيين والغربيين على حد سواء.. من أجل تهديم الكيان الإسلامي من الداخل عن طريق الخلط الفكري الذي يُدخل في الإسلام ما ليس منه ، ويُخرج من الإسلام بعض أركانه وأحكامه لتضيع صورة الإسلام المتميّز الكامل وتختلط بغيرها من الصّور.. فيفقد المسلمون عند ذلك الوضوح الفكري كما يفقدون التناسق والتكامل في تصوراتهم عن الحياة.. ومن هنا يكون التشتّت والضياع .

بحلول القرن الثامن عشر قاد المتحررون في دول أوروبا دعوتهم بتحسين أحوال اليهود ، كما دعاهم موسى مندلسون وجماعة منهم بإعداد أنفسهم ثقافياً للاشتراك في الحياة القوميّة لأوطانهم.. تعاظمت هذه الاتجاهات في أثناء الثورة الفرنسيّة ، ومَنَح التجمع القومي الفرنسي " ١٧٩١ " حق المواطنة الفرنسيّة لليهود وامتدت هذه الحقوق إلى يهود البلاد التي فتحها نابليون الأول.. وتلاشى يهود الجيتو .

بعد سقوط نابليون (١٨١٤ - ١٨١٥) .. نبذت ألمانيا هذه الحقوق التى أعطاها نابليون لليهود .. لكن معركة الخلاص استمرت .. فأُعطى اليهود حقوقاً مساوية فى هولندا وبريطانيا العظمى .. أما فى ألمانيا والنمسا وحتى بعد سنة ١٨٧٠ فقد فَرّقت هاتان الدولتان فى معاملتهم مدنياً وعسكرياً واستمرت كذلك مشاعر العداء بين الناس فيما يعرف الآن بمعاداة الساميّة التى مارسها هؤلاء العامة بالصفة العنصريّة وليس بالصفة الدينيّة ..

إندمج اليهود فى حياة العالم الغربى بحماس متحفظ .. وشاركوا بفعاليّة فى نشاطاته التجارية .. والعلميّة .. والثقافيّة .. والإجتماعيّة .. فتهدّم بذلك كيان الحياة اليهوديّة القديم .. وتقاعس التحكّم فى حياة المجتمع اليهودى مع الإهمال فى حفظ الوازع الدينى .. وانتشار الزواج المختلط .. والتحوّل إلى المسيحيّة لمواجهة التحديّات الجديدة ، واستُخدمت أنماط من الأفكار اليهوديّة بدأت فى ألمانيا ونمت بقوّة بأمريكا الشماليّة فى القرن العشرين .. وكبر الكيان اليهودى بسرعة فى غرب أوروبا عن طريق الهجرة من دول شرقها .. وفى أمريكا وشارك اليهود فى التمتّع بحياة الرفاهية فى هذه البلاد سريعة النماء بمساعدة اليهود المقيمين بها لليهود القادمين إليها .. لكنْ بقيت بعض مظاهر التفرقة فى المعاملات الاقتصاديّة والإجتماعيّة وأصبحت حركات معاداة الساميّة أكثر تنظيماً وصراحة ..

منذ الحرب العالميّة الثانية حقّق يهود الولايات المتّحدة الأمريكيّة درجة عالية من القبول لم يحدث مثلها من قبل فى التاريخ اليهودى .. فاختفت التفرقة بدرجة كبيرة فى التعليم ، وفى المعاملات الماليّة ولعب يهود أمريكا دوراً متعاظماً فى الحياة الثقافيّة .. والذهنيّة .. وأدى محو الفوارق الإجتماعية إلى معدل مرتفع من الزيجات المختلطة ، وتشييد المعابد الدينيّة اليهوديّة ، وزيادة كبيرة فى الدراسات اليهودية بالجامعات .. وحماسٍ مشتعلٍ نحو دولة إسرائيل .

ويكاد أن يطرح نفسه السؤال.. إلى أين..؟

هل ضمنت الولايات المتّحدة غدر الزمان بما حقّقته من قوّة اقتصاديّة وعسكريّة، وثبات في مبادئ دستورها، وحكمها الديمقراطي، وتقاليدها الراسخة، وثقافتها المتعاظمة، وتكنولوجيتها الفائقة.. هل في مراجعة أحداث الزمان من تاريخ اليهود عظة لها لِتَتَّبِع سياسة واعية ذكية، في مجتمع تمّزقه خروق كبيرة منها تعاظم روح الحقد العنصرى لدى الزنوج الأمريكيين، وانحلال الشباب وانخراطه في الجنس والإدمان والسرقة وجرائم القتل والإغتيال، وكراهية الكثير من شعوب الأرض لاستبدادها وهيمنتها.. فكم انهارت دول وحُجّمت قدراتها بسبب الإفساد الأمريكى لمجتمعها.. وكم عانت شعوب الأرض من حروبها المعتدية الهوجاء.. وكم استبدت بسياستها فى وأد تطلعات شعوب أخرى تبنى قوتها الاقتصادية وتحقّق قوّتها الذاتيّة كما حدث فى ماليزيا.. وإلا فإثارة القلّة من شعوبها فى ثورات وتهديدات بالانفصال كما فى أندونيسيا والسودان.. بل وفى إحداث الوقيعة والحرب بين الأشقاء وخلخلة العروش كما فى حرب الخليج الشائنة.. وفيما بين اقتتال أفراد الشعب الواحد كما هو فى الجزائر والصومال والحث على الاغتيال مثلما فُجعنا به من مقتل الملك فيصل طيّب الله ثراه.. ومن إطلاق الصواريخ على بيوت رؤساء الدول كما حدث فى ليبيا.. ومن الوعيد من قطع المعونات عن مصر والتهديد - من قبل صنيعتها إسرائيل - بتفجير السد العالى الذى منعت أمريكا تمويل إنشائه من البنك الدولى..

فرضت أمريكا سيطرتها على كل المقدّرات وضمنت الإذعان العسكرى والاقتصادى والسياسى.. بل والمستقبلى.. حتى أصيبت الشعوب بالإحباط واليأس من الحياة ضيقة الفرص وأثرها على خدمات الدول لشعوبها فى شتى واجباتها من كفالة صحية واجتماعية وتعليمية والارتقاء بتجارتها وصناعتها وزراعتها وبحوثها.. مما جعل الأمم خالية الوفاض إلا من اعتمادها على السيّد الذى يمنح أو يمنع أى شيئ أو كل شيئ.

الثــلاثاء الأســـود ..

وها هى الأحداث تترى بما أفرزته الكراهيـة والقهـر لشعـوب ضاعت حقوقـهـا.. وامتهنت كرامتها.. واغتصبت أرضها.. وسُلّط عليها جزارون أسالوا دماء أبنائها فى مذابح مدروسة مخطط لها بفلسطين الجريحة.. وغيرها من شعوب الأرض أشبعتها آلة الحرب تقتيلاً وتدميراً لأرضها وحرقاً لزرعها وإبادة لكيانها وإفناءاً لعنصرها فى كوريا وفيتنام وكمبوديا.. وغزواً بالجو والبحر والمكائد لحصارها وتجويعها وإفقارها فى كوبا وغيرها.. ومن قنابل ذرية حصدت مئات الآلاف من الأرواح وأبادت الأخضر واليابس وأحالت الأرض التى جعل الله خراجها رزقاً للإنسان والطير والحيوان.. كذلك الكون من هواءٍ وماءٍ وسماءٍ إلى مصدر موت زعاف وأورام سرطانية تفتك بالجلود والدم والعظام، تصيب خلق الله وتحيل نسلهم إلى مسخ مشوه عبر أجيال وأجيال..

انتشرت الإشعاعات الذرية القاتلة فى نتاج الأرض من نبات ولحوم وألبان.. تلك نعمة الله التى جعلها شواهد للعباد على فضله وعظمته ليشكروه ويدعوه ويعبدوه.. لم يكن قرار إلقاء القنبلة الذرية الذى اتخذه الرئيس الامريكى هارى ترومان على جزيرة هيروشيما فى السادس من أغسطس سنة ١٩٤٥ وجزيرة ناجازاكى فى التاسع من نفس الشهر إلا حقداً أسود وانتقاماً شيطانياً مبالغاً فيه أضعافاً مضاعفة لما اقترفته اليابان فى بيرل هاربر من إغراق وإعطاب ثمانى عشرة قطعة من الأسطول الأمريكى، ومائتى طائرة حربية، وقتل ألفين وأربعمائة من العسكريين وجرح ألف وثلاثمائة وفقد ألف آخرين.. ليأتى هذا الانتقام ساحقاً لمئات الألوف من البشر، ويصيب بالعقم الأرض والماء والهواء لأجيال تالية.. حتى أن من اخترعوا القنبلة ذاتهم قد استنكروا ذلك القرار الماجن.. فقد كانت ألمانيا قد استسلمت فى الحرب.. ولم يعد لحليفتها اليابان إلا الاستسلام كذلك.. وبعد أيام.. لكنها النفس الباغية يملؤها الشر وجنون الانتقام الجهنمى الذى يُبقى فى الأرض روح الحقد ومسلسل الكراهية والغضب إلى يوم يبعثون.. فى شكل حروب باردة وساخنة لايهدأ أوارها، وقودها الرخاء والنماء تذروه الرياح بدلاً من أن ينعم به الناس..

وتريد أمريكا أن تعيد الكرّة الآن.. تهدد بالإفناء النووى دولة صغيرة احترقت أرضها فى حروب الغزاة.. هى دولة أفغانستان.. هؤلاء البريطانيون قد أتوها من جزرهم عبر آلاف الأميال من محيطات وجبال ويابسة وأنهار لإشباع روح البغى والاستعمار فاندحروا فى ثلاثة حروب.. وهؤلاء الجيران من الروس السوفييت أرادوا أن يستحلوها ليعيشوا داخل بلادهم فى أمان وتكون أرض الغير جبهة للحروب والهوان، يصلون من خلالها إلى ثروات العرب النفطية فهزموا وطردوا تلحقهم أذيال المهانة والندامة.

هؤلاء البشر ممن حرموا الحياة الحرة الكريمة بالقهر والاضطهاد كيف يعبّرون عن خوفهم وقهرهم أمام قوى الشر الماحقة هذه..؟ هل إذا قام فريق منهم يهبُ روحه ويفنى جسده ينعت بالإرهاب.. ولاينعت به من كان سبباً فيه..؟ كيف يكون تعبير هذه الشعوب عن الظلم والتجاهل والاضطهاد والاستضعاف والتحقير فى المحافل الدولية؟ هل سمعتم عن الرئيس الامريكى الذى يخاطب رؤساء وفود بعض الدول بتوجيه الحديث إلى كلبه الرابض تحت قدميه..!؟ تلك القُوَى تعرف ولاتريد أن تسمع.. ولاتريد أن تفهم.. ولاتريد إلا الغرور والافتراء بقوتها.. عندما فُجر مبنى وزارة الدفاع الأمريكية "البنتاجون" بمدينة واشنجطون العاصمة.. وبرجا مركز التجارة العالمى بمدينة نيويورك.. لم يَعْنِ لهؤلاء - أيّاً من كانوا - إلا إبلاغ شعوب الدول الكبرى وعلى رأسها أمريكا رسالة فحواها أن حكوماتهم باغية، وأنهم متشاغلون ولاهون عن قضايا حروب جائرة، وفقر مدقع، وجوع مميت، ومرض قاتل، واضطهاد دائم.. ولم يكن قتل الأبرياء هو ضالتهم فالناس يتجمعون فى الشوارع والميادين والمركبات ودور اللهو والترفيه بالمئات.. لكن كيف يكون الحدث فاعلاً لرفع الظلم؟.. إلا بإصابة الرمز لكى يفيق الظالم المتجاهل ومن هم حوله ممن لايعرفون.. ولايريدون أن يعرفوا.. فهم فى ظل ظليل ونعيم مقيم ولهو ومتعة ورفاهية على حساب معاناة الآخرين بما ترتكبه حكوماتهم نظير أصوات الناخبين..

عاودتني وسط أحداث اليوم ذكرى البطل ابن عمي الشهيد .. فصرت أسائل النفس .. هل في موت هؤلاء الأبرياء سلوى لروحي وشفاء لغليلي .. فلم يطاوعني إسلامي ولاضميري .. لكنني أحسست أن اللطمة التي أصابت أمريكا وانتهت بها هيبتها وكبرياؤها في الثلاثاء الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ قد حَجّمت من غرورها .. وصرت أناجي صورة الشهيد .. هل في ذلك عوضٌ عما أهلك جسدك الطاهر .. وأفنى حياتك الغالية بصاروخ أمريكي غادر أقتلعك أنت وأقرانك الستة والعشرين فوق رمال سيناء بالسويس في الرابع عشر من أكتوبر ٧٣ ؟ ..

واسترجعت ابتسامته الحنون ووجهه الصبوح يقول .. ليس بموت الأبرياء .. من أطفال وشيوخ ونساء .. لكن لاتضيّعوا دمائي إلى أن تتحرر الأرض ويعود قدسُنا .. فدمائي رخيصة في سبيل أوطانُنا .. لك ذلك أيها الغالي شهيد الفداء ..

ورجعت إلى ذاتي أسائلها .. هل في تدمير أرض أمريكا ، هدية الله إلى شعوب الأرض بما حباها من سعة وعطاء ، مرادنا ..؟ كلا .. ليس في امريكا الأرض والناس شفاء نفوسنا .. بل على رؤوس حكامها يقع السبب .. فمنهم وبهم الشر .. وعليهم الجزاء .. فالتَتْحد الشعوب المقهورة تطالب العالم بمحاكمتهم بما أتَوا من شرور أفعالهم وآخرهم ذلك الأهوج الموتور الجالس على كرسي رئاستها الآن يُذْكي نار حرب صليبية تشعل أرجاء المعمورة كلها .. يصّفي حساباته بإهدار دم شعوب العرب والمسلمين متجاهلاً توجيه اتهامات كاذبة إليهم في حادث نسف المركز التجاري بأوكلاهوما .. متجاهلاً روح التمرد عند الشباب الأمريكي الذي تشعل مخيلته حرب ڤيتنام الظالمة .. متجاهلاً روح التمرد على النظم الأمريكية من أجنحة عقائدية وفرق يمينية .. متجاهلاً تيارات الاستخبارات الأمريكية – الاسرائيلية الخبيثة في السر والعلن فكم من رئيس أمريكي وزعيم زنجي ومحكّم دولي رتبت اغتياله .. آخرهم الرئيس چون كينيدي ، يغتالونه ويسلطون على قاتله .. يهودي يقتله ثم يبرئونه بزعم اصابته بالجنون .. ومن قبله رؤساء عديدون ..

متجاهلاً الحقد الأسود من عنصرية زنجية ونازية ويابانية بل وأوروبية.. متجاهلاً فعل اليهود بالرئيس كلينتون من إغوائه جنسياً باليهودية صاحبة الرداء الأزرق.. درساً وفضيحة لهذا الرئيس الأحمق.. متجاهلاً أمريكا اللاتينية ودولها العديدة التي تضمر عداءاً تاريخياً لأمريكا في المكسيك وكوبا وكولمبيا.. هل تعرف أمريكا حكومة وشعباً كمّ الكراهية لها على وجه الأرض..؟ هل رأى أحدهم المشهد التليفزيوني عن ذلك الضابط الأمريكي يودع رصاصة مسدسه رأس أحد الڤيتناميين الواقف في استسلام مقيد اليدين خلف ظهره، يخر صريعاً ودم رأسه يسيل على الأرض كالشاه الذبيحة..؟ ويضع هذا غدّارته في جرابها وينصرف في هدوء بارد..

الناسا ..

دعانا د. خليل أثناء تواجده بلوس انجلوس إلى زيارته حيث يعمل بمدينة هيوستون بولاية تكساس.. فوجدت التوقيت مناسباً فى الفترة التالية.. وفى اتصالى به هاتفياً حدّد لى وقتاً للحضور يوافق يوم حفل كبير يقيمه للشخصيات المهّمة من طاقم المستشفى.. وبقدر ما سعدنا بمشاهدة معالم هذه المدينة وأهمها مؤسسة "الناسا" لأبحاث الفضاء.. بقدر ما ساءنا طقسها الخانق وهطول أمطارها صيفاً.

قدّمنى خليل إلى شخصيّات الحفل ومنهم أستاذ فى متوسط العمر.. طلب منى التحدث فى العمل بعيداً عن زحام المدعوين فخرجنا إلى حيث سيّارته بحديقة الڤيللا.. تعرّف منى على نشاطات عملى بلوس انجلوس، وتقصّى عن علاقاتى بطاقم العمل، وعن أحوال أسرتى وامتحانى وترتيباتى المستقبليّة.. وبدا لى أنه يعرف كل شيئ عنى مسبقاً.. وفى ختام الحديث قدّم لى عرضاً جيّداً بالعمل معه أستاذاً مساعداً بمستشفى "بيلور" أكبر مستشفيات الجامعة، فوعدته بالإجابة بعد عودتى إلى لوس انجلوس.

الناسا " إدارة الطيران والفضاء القوميّة ".. هى مؤسسة حكوميّة أمريكيّة غير عسكرية، تحمل مسئوليّة تطوير أبحاث الطيران وتكنولوچيا الفضاء واستكشافه وتخضع لإشراف الرئيس الأمريكى مباشرةً .. أنشئت سنة ١٩١٥ بمسمّى آخر وساعدت برامجها دول الحلفاء على كسب معركة الطيران فى الحرب العالميّة الثانيّة، تركّز اهتمام الناسا بعد الحرب فى اختراع محرّك الطائرة النفاثة لتحقيق ارتفاعات وسرعات فائقة، وتمكنت طائراتها الحديثة من اختراق حاجز الصوت سنة ١٩٤٧ الذى خلق إعجازاً جديداً فى عالم الطيران .

تطورت أبحاث الناسا فى غزو الفضاء من برنامج فانجارد إلى الصواريخ الباليستيّة إلى برنامج أبوللو سنة ١٩٦٠ لوضع أول رجل فضاء على القمر. إقتضى هذا الإنجاز تعبئة قوميّة للكفايات والكوادر المختلفة من خلال برامج "جيمنى" و "ميركورى" وتعاظمت هذه التعبئة إلى أكثر من أربعمائة ألف أمريكى، واقتضت دعماً مالياً مقداره خمسة

وعشرون ملياراً من الدولارات ثم تميّزت مجهوداتها ببناء محطة فضائيّة ومعمل فضائى.. وبرامج متعدّدة مثل الفايكنج لاستكشاف مجرّات كواكب أخرى كالمريخ.. ونجحت فى اختراع أتوبيس الفضاء الذى يُعاد استخدامه فى الإقلاع والإنزال من وإلى الأرض للحدّ من التكلفة.

إستمرت أبحاث الطيران فى تحقيق إنجازات خارقة عن طريق برامج ناجحة لتوفير الوقود، وبناء نوعيّات خفيفة الهيكل من الطائرات ، وتطبيق تكنولوچيا الفضاء على الاحتياجات غير الفضائيّة..

كان برنامج أبوللو آخر مراحل برامج إبرار رجل على القمر فكانت رحلة أبوللو ٧ سنة ١٩٦٨ من أجل اختبار كفاية كبسولة الفضاء، ثم أبوللو ٨ سنة ١٩٦٨ للدوران حول القمر واستكشافه وتم فيها تصوير الكرة الأرضيّة من خلف الوجه الآخر له.. ثم كانت أبوللو ٩ سنة ١٩٦٩ المجهّزة للإبرار والتى خضعت للاختبار الكامل لأجهزتها ، ثم أبوللو ١٠ سنة ١٩٦٩ التى غادرها رجلى فضاء لاختبار مناورة الحركة فيه.. دارت أبوللو هذه فى فلك القمر على بعد سبعة وأربعين ألف قدم " أربعة عشر كيلو متراً تقريباً " من سطحه، تستكشف دقائقه استعداداً للإبرار فى رحلة أبوللو ١١.

ابوللــو ١١ " الإنسان فوق القمر"..

أُطلقت المركبة أبوللو ١١ فى ١٦ من يوليو سنة ١٩٦٩ من مركز كيب - كينيدى بولاية فلوريدا لوضع أول إنسان " أمريكى" على سطح القمر ، وفى يوم ٢٠ من نفس الشهر حط رجلا الفضاء " نيل أرمسترونغ" و " إدوين ألدرين" بالكبسولة " النسر " على سطحه قريباً من " بحر الطمأنينة .. The sea of tranquility " ، بينما قاد رجل الفضاء "ميشيل كولينز" المركبة الأم " كولومبيا" فى فلكه. وعندما وطأت قدم أرمسترونغ يابسة القمر نطق جملته المأثورة " هذه خطوة صغيرة للإنسان ، وقفزة عملاقة للبشرية" .

كان الملايين من سكان الأرض يشاهدون الإرسال التليفزيونى مباشراً لهذا الحدث المثير .. وترك الرجلان لوحة حفر عليها .. "نحن جئنا فى سلام من أجل الجنس البشرى" . وعلى مدى ساعتين وربع الساعة من التجوال ، ثَبَّتا علم الولايات المتّحدة الأمريكيّة وتحدثا مع رئيسها نيكسون وأجريا بعض التجارب وجمعا عيّنات من تربة القمر ، وفى ٢١ يوليو ١٩٦٩عاد الرواد إلى الأرض الأم لتلتقطهم قطعة البحرية الأمريكية "هورنيت" من المحيط الباسيفيكى.

چون فيتز جيرارد كينيدي

الرئيس الأمريكي الخامس والثلاثون (١٩٦١ - ١٩٦٣) - ديمقراطى

تولى الحكم فى سن ٤٤ وتوفى عن ٤٦ عاما

ينحدر من أسرة هاجرت من أيرلاندا فى القرن التاسع عشر ، وصارت واسعة الشهرة والسطوة السياسيّة فى المجتمع الأمريكى ، تتكوّن من تسعة أبناء وبنات (أربعة ذكور وخمس إناث) تميّزت حياة الأسرة بكثرة الفواجع : چوزيف قتل فى الحرب بانجلترا ، روزميرى متخلّفة عقلياً ، كاثلين ماتت فى حادث طائرة فى أوروبا ، چون الرئيس أُغتيل ، روبرت أُغتيل كذلك بلوس انچلوس فى معركة رئاسة الحزب . كان أبوه سفيراً لأمريكا لدى بريطانيا ، وتخرّج چون فى جامعة هارڤارد العريقة ، إلتحق بالبحريّة بعد دخول

أمريكا الحرب وأُغرقت سفينته بواسطة اليابانيين وأبلى بلاءاً بطولياً فى إنقاذ طاقمها ، وتركته هذه الحادثة مصاباً بكسر فى عموده الفقرى وترك البحريّة مصاباً .

كان لفوزه بمقعد الرئاسة بفارق ضيق عن منافسه نيكسون أثرٌ فى عدم تمتّعه بالأغلبيّة .. لذا كانت أغلب مشروعاته الداخليّة قعيدة الأدراج ..

" لا تسأل ماذا يمكن أن تعمله لك بلدك ، ولكن إسأل ماذا تستطيع أن تعمله أنت لبلدك" .. هذه مقولته التى أدفأت قلوب الأمريكيين ، كان من شواهد حربه الباردة ضد المعسكر الشيوعى المساندة العسكريّة الأمريكيّة لمعركة "خليج الخنازير" لغزو كوبا سنة ١٩٦١ ، والذى تحمّل المساءلة الكاملة عن فشله ..

كان التّوتر بين كينيدى والاتحاد السوفييتى بزعامة الرئيس خروشوف مستمراً ، واشتعلت المواجهة الخطيرة فى أزمة الصواريخ التى أقامها الاتحاد السوفييتى فى كوبا ، فجنّد لها كينيدى حملة عسكريّة بحريّة جوية ، وصارت المواجهة بالحرب وشيكة الوقوع حتى انسحب السوفييت عن إقامة الصواريخ ، وتعهّد كينيدى بعدم غزو كوبا فى المقابل ، لكنه لم يتوقّف عن سياسة الحدّ من الانتشار الشيوعى ، فأرسل قوّاته إلى فيتنام " ١٦٠٠٠ جندى" ، ودعّم قدرات مركز كينيدى لأبحاث الفضاء تحدياً للسبق السوفييتى فى هذا المجال ، ولكى يحقق وعده للشعب الأمريكى بالوصول إلى القمر قبل ١٩٧٠ ..

فزع الأمريكيون والعالم بإطلاق الرصاص على رأس كينيدى أثناء زيارته لمدينة دالاس بولاية تكساس سنة ١٩٦٣ ، وقيل أن قاتله "لى هارفى أوزوالد- ٢٤ عاماً" قد قام بهذا العمل بوحى فردى .

سارت بى الأمور مألوفة فى الفترة التالية ، إلا من تضاعف حجم العمل ، ذلك لظهور بوادر الحمل على زميلتى الإسرائيليّة كلارا ، فتكاسلَت لشدة اهتمامها بالجنين الذى يُعَدُّ آخر فرصة حمل لها بعد أن قاربت سن الأربعين ، كذلك كثر تغيّب ستين وليڤى ، وانفرد ليستر - روو بالعمل فى المستشفى القديم أرَز لبنان.. وكان عزائى أننى لم أعد مشتّتاً بين المستشفيَيْن ، وانفردت تقريباً بالعمل وحدى فى المركز الجديد بعد أن أخبرنى ستين أنه استقال من وظيفته ليرأس مستشفى آخر بمدينة "كلڤر" التى تبعد عن مكاننا حوالى نصف الساعة بالسيارة ، وقد اصطحب ستيف ليڤى معه وبعض أفراد السكرتاريّة.. لم أعرف ولم أكن لأشغل نفسى بمعرفة سر هذا الرجل الذى يتنقّل كل بضعة أعوام من مكان إلى آخر إلا عندما أخبرتنى كلارا أن ستين لايتنقّل إلا بمضاعفة راتبه.. وأحاطتنى علماً بمرتبه فى رود أيلاند ثم فى سيدر- سيناء ثم فى المستشفى الجديد الذى قد يكون أحد أصحابه..

يالهؤلاء اليهود.. يتحيّنون الفرص ويهيّئون ويتهيّؤن لها.. ثم يقبضون على أحسنها ، لكن ستين لم يترك العمل معى إلا بعد أن انتهيت من البرنامج العملى لأبحاثى ، وصارت مهمّتى إعدادها للنشر. كان ستين يرجئ ذلك ويقول أنه لم يحن الوقت للنشر بعد.. كنت أزوره بمقره الجديد وهو عبارة عن ڤيللا فى حى هادئ حُوِّلت حجراتُها إلى مكاتبَ وتجاور المستشفى الذى يترأسه . فى مقابلاتى لستيف ليڤى كنت لا أزيد عن إلقاء التحيّة. كانت زياراتى لستين لمراجعة نتائج الأبحاث وقراءة مناقشاتها عليه بصوت مرتفع كما كان يريد...

كنت مشتتاً بين ضرورة إعداد الأبحاث ونشرها بسرعة لتقديمها إلى كليّتى بالإسكندريّة للترقية أستاذا مساعداً.. على أمل أن تستجد ظروف ملائمة تعيدنى إلى وظيفتى التى أُقلت منها ، وبين فتورى لمرور الوقت دون أن أجد مؤشراً بذلك.. فمازال رئيس الجامعة متمّسكاً بقوله " على جثتى.." على الرغم من محاولات كثير من أساتذة الكليّة فى إثنائه عن قراره ، وكذلك بعض من أهلنا.. فأُقيل اثنان من الزملاء المبعوثين مثلى.. أحدهما فى تخصص الجراحة بولاية فيلادلفيا الذى قرّر البقاء والتحق أستاذاً مساعداً بجامعتها ، وتزوّج من أمريكيّة.. والآخر فى نيويورك يعمل فى جراحة المسالك

البوليّة وهو الذى حصل لنا على الموافقة بالسفر من أصحاب الباب الموارب بالخارجيّة ، أما رفيق لبنان ، وهو جراح بفيلادلفيا كذلك فقد كان لمعاملته الفظة حيث يعمل ، حافزاً له على العودة فى موعده القانونى واستلام عمله بالإسكندريّة.

لم أخبر ستين بعرض مستشفى بيلور بهيوستن.. لكننى أحطّته علماً أن إقامتى الدائمة هى أحد اختياراتى ، وأن الاختيار الآخر هو التعاقد للعمل بالمملكة السعوديّة ، فأخبرنى أنه يعد لى منصباً متميّزاً كأستاذ مشارك بمستشفى سبولڤيدا " Spulvida" بجامعة كاليفورنيا وأن ذلك معقود على نجاحى فى شهادة "الفليكس" التى أنتظر نتيجتها ، وأنه (هذا اليهودى) يتوسّم فى شخصى الحصول على منحة ماليّة كبيرة لمركزه الطبّى الجديد من أحد أمراء السعوديّة إذا قررت العمل بها.. حددنا موعد لقائنا التالى بعد شهر لارتباطه بالسفر لإسرائيل لحضور مؤتمر طبّى كبير بها هو يوم " ابن ميمون أو ميمونيدس" الطبيب اليهودى الذى عاش فى عصر الارتقاء الثقافى لدولة العرب بالأندلس، والذى تقيمه إسرائيل سنوياً تخليداً لاسمه.

أنجبت كلارا مولوداً ذكراً أسمته " إدى".. وكان مصاباً بداء صعوبة التنفس مثل من أنجبتهم قبله فى إسرائيل ، فأمضى حوالى الشهرين بالحضّانة . (هذا المرض ينتج عن نقص مادة حيويّة تفرزها خلايا تبطن داخل الحويصلات الهوائية للرئتين.. فتنكمش ، وتعجز عن التمّدد لاستقبال واستخلاص أكسيجين الهواء ، وتسليمه للدم ، فتتأثر أعضاء الجسم وأهمها المخ بنقص الأكسيجين هذا) .

فى أثناء قيادة سيّارتى بشارع صن ست من المستشفى القديم بهوليوود إلى المركز الجديد ، شاهدت فى مرآة سيارتى داخل سيارة خلفى ، الزوج مارسيل وهو يقودها وبجانبه الأم كلارا تحتضن مولودها.. فأشرت إليهم بالدخول لأحد الشوارع الجانبيّة ، تركت سيارتى وتوجّهت إليهم ورأيت المولود.. عندها زال عنى كل ما فى نفسى من بغضاء وعداء نحو هذه الأم التى تغمر الفرحة وجهها بمولودها الوحيد الذى لم تلوثه الحياة بعد بالحقد الأسود والكراهية التى سيرضعها من ثدى أمه.. هذه الضابطة بجيش إسرائيل.. قاتل ابن عمى وأهلى فى أرضنا العربيّة ، عسكريين ومدنيين ، والمحتل لأرضنا

ومقدساتنا يدنسها بكل عجرفة واشتهاء كأن جنوده ومن هم خلفهم يثأرون لما لاقاه أجدادهم من ذل وهوان عبر التاريخ الطويل.. لم يتعلموا منه درساً أو يعبرون عن امتنانهم للعرب من حولهم.. بل أشعلوها حروباً ومذابح سعياً للسيطرة والهيمنة.. فالداء فى دمائهم وعقولهم يستذكرونه ويبثونه فى عقول ذريّتهم وفى أذهانهم..

كان واضحاً من ملامح الوجه والرأس أن المولود قد تأثّر عقلياً نتيجة المرض، وعلى الرغم من ذلك كانت السعادة تفيض فى حديث الأم.. يا للعاطفة الإنسانيّة من المشاعر والإحاسيس، يتبدّد حزنها فرحاً وضيقها مرحاً وغضبها حبوراً وتسامحاً كأنها الريح ينكسر اتجاهها فى لحظات..

حضرنا حفل ختان "إدى" فى اليوم الثامن .. وضع المولود فوق طاولة متران فى مترين وباركه رجل الدين الذى قام بختانه، والحضور حوله يرددون الأدعية ونحن وقوفٌ بينهم. وعرفت لماذا يعطى المسلمون واليهود - دون غيرهم - واقعة ختان ذكورهم صفة المنسك الدينى. هذه العادة مارسها المصريون القدماء قبل أن يمارسها اليهود عن عهد الله لخليله إبراهيم.. كما جاء فى العهد القديم.."هو الذى عمره ثمانية أيام من بينكم سيختن، كل ذكر من أجيالكم ولد فى بيوتكم أو اشتريتموه بأموالكم من أى غريب عنكم.. ليبقى عهدى آبداً فى لحومكم" . فى الإسلام لم ينص القرآن على الختان بل جاء عن النبى محمد ﷺ سليل إسماعيل بن إبراهيم.. وعند غالبية المسيحيين لا يُنظر إلى الختان كمنسك دينى، كما أنه ليس بالمحرّم عندهم، والاستثناء الوحيد هو بين أقباط مصر وأثيوبيا الذين يختنون ذكورهم قبل التعميد.

بعد عودة ستين من احتفالية "إبن ميمون الطبيب" بإسرائيل.. أعطانى إشارة الانطلاق بنشر أبحاثنا، وجلست قبالة الرجل أتعلّم حكمة انتقاء الوقت لإنجاح العمل، فكما أشرت قبلا يتحيّنون الفرص ويهيّؤن ويتهيؤن لها ثم يقبضون على أحسنها.. فى وقت نضوجها.. فقد انخرط ستين فى احتفالية ابن ميمون وجس نبض الحضور واطّلَعَ على نوعيّة أبحاثهم.. وناقشهم وناقشوه، ونقدهم ونقدوه، ثم استقرت خبرته على أن

الوقت ملائم ليتحقق القبول لأبحاثنا والنجاح فى تقديرها ، وكنت مستعداً لها فقد مضى علينا وقت طويل بأمريكا تجاوز الآن ثلاثة أعوام ، منها عامان وبضع شهور بكاليفورنيا ، وفى هذا الكفاية لبقائى فى درجة زميل . . كذلك فقد تعاقدت المستشفى مع أستاذ يهودى آخر اسمه " بلومنتال " . . لم تكن شخصيّته لتملأحضور شخصيّة ستين ، لذلك فلم يعد التفاهم بينى وبينه على نفس مستوى التقدير المتبادل . . رغم أنه كان مجاملاً ومهذباً فعرض إستمرار بقائى كزميل فى مقابلة له مع أحد أساتذتى من الإسكندريّة عند حضوره لزيارتى .

كان تباطُئى فى البقاء إنتظاراً لنتيجة الامتحان والحصول على تصريح المزاولة الحرة لمهنتى فبذلك يتيسّر لى العمل الحر أو الحصول على وظيفة أكاديميّة بجامعة كاليفورنيا أو تكساس . . وأصبح العمل هيناً بعودة كلارا ، وتعاقد بلومنتال رئيساً ، وانتهاء برنامج أبحاثى باستقالة ستين وليفى ، ولم أفقد الأمل الضئيل المعقود على رجوعى إلى وظيفتى بالإسكندريّة ، أو فرصة جيّدة للتعاقد مع أحدى الدول العربيّة ، وغير ذلك هو البقاء قسراً بوظيفتى الحالية .

مارست هوايتى لاستكشاف الغرب الأمريكى فى القيام برحلات طويلة إلى المكسيك لمشاهدة مصارعة الثيران وشراء منتجات الجلود – وهى رخيصة الثمن هناك – وعلى الرغم من ذلك وجدنا منافسة إسرائيليّة ضارية فى الجودة والثمن للمنتجات الوطنيّة .

تعرّفت زوجتى إلى سيّدة إيطالّية تقيم معنا بنفس المبنى ، كانت دائمة الثناء على أمريكا وتدعو أن يباركها الله God bless America خاصة ولاية كاليفورنيا سنه خضرواتها – تتغزّل فى جمالها ورخائها ، فأصبحنا لا نَمَلُّ زيارة معالمها من الثغر سان دييجو جنوباً حيث نقضى بعض أوقاتنا بجزيرة كاتالينا . . نقف على آخر يابسة أمريكيّة على المحيط الباسيفيكى جنوبى كاليفورنيا ، إلى منطقة لاهويا وسط إبداع الله للطبيعة الخلابة حيث يقع بها خليج البعثة " Mission bay " الذى يعتبر أجمل خلجان الأرض .

فى اتجاهنا شمالاً تستغرق قيادة السيّارة نهاراً كاملاً للوصول إلى غابة " يوسيميتى " أجمل غابات كاليفورنيا الوطنية حيث شقّت الطبيعة فى الجبال لوحات غاية فى الإعجاز الإلهى ، مثل مقطع فى منتصف صخرة عملاقة تنتصب بحافتها فوق أعلى قمة جبالها ، فتثير الخوف والرهبة فى النفوس عند النظر على البعد إليها . . ومساقط مياه من ارتفاعات شاهقة تصل إلى سبعمائة وثلاثين متراً ، وأشجار الخشب الأحمر و السيكويا العملاقة التى يصل عمر بعضها إلى ثلاثة آلاف وخمسمائة عام ويصل طول بعضها إلى مائة وثلاثة عشر متراً ، ويبلغ قطر بعضها تسعة أمتار، شق الإنسان فى ساقها طريقاً للسيارات.

قضينا عشرة أيام فى هذه الغابة وسط جداول مائيّة رقراقة شديدة البرودة ، وخيام يقيمها الرواد للمبيت ، الذين يبلغ عددهم المليونين سنوياً على الرغم من المخاطر . من هذه المخاطر تجول دب كاليفورنيا الضخم ليلاً بحثاً عن الغذاء.. لذلك يحذّر حراس الغابات الزائرين من ترك أطعمة خارج الخيام ليلاً ، فقد شاهدنا صباح أحد الأيام إحدى ثلاجات الرحلات وقد هشمها هذا الدب العملاق . تتكوّن من سلسلة الجبال والتلال والوديان منطقة منشاريّة القمم - لارتفاع وانخفاض قممها - ممتدّة إلى ولاية نيفادا وتعرف باسم " سييرا نيفادا" . جنوب هذه المنطقة تقع أجمل أودية العالم هو وادى القمر "Moon valley"، الذى يكتمل جماله ببحيرة تاهو "Tahu" التى لا تتجمّد مياهها لعمقها الشديد إذ يصل إلى خمسمائة متراً . .

فى الاتجاه شرقاً لا يغفل أى زائر للغرب الأمريكى عن زيارة مدينة القمار "لاس فيجاس" بولاية نيفادا ، وقضاء ليلة فى أنديتها الليليّة التى تقدّم تسلية ومتعاً أخرى ، وتحقق للولاية أكبر دخل سياحى ، ومدينة رينو شمال ولاية نيفادا هى ثانى مدن المقامرة والتسلية ، وبها جامعة نيفادا التى تأسست سنة ١٨٦٤ وتحتوى مكتبتها على ثلاثة أرباع المليون مجلد وبها كليّات للفنون والعلوم والتربية والهندسة والقضاء والزراعة والتعدين ومعهد لأبحاث الصحراء ومدارس للتمريض ، وفرع الجامعة بمدينة لاس فيجاس الذى أنشئ سنة ١٩٥٥ ، تحتوى مكتبته على نصف المليون مجلد ، وبه كليات للفنون والمخطوطات والتربية والعلوم والهندسة والفندقة .

كانت جـارتنا الإيطـاليـة شـغوفـة بمتابعة أخبار رحلاتنا ، تعيش وحيدة وتمتلك محلاً لبيع الأدوات المستعملة ، وتخطط للقيام برحلتها السنوية حسب ما تسمعه من الجيـران عن أماكن ممتعـة الزيارة . عـندما عرفت - مـن زوجتي - احتمـال عودتنا مصر صارت تصرخ في وجهها "هل جننتم .. كيف تتركين أميركا وزوجك طبيب .. أنتم تعيشون في كاليفورنيا .. هل تدركون معنى ذلك..؟ إنها أكبر من إيطاليا ، عندما ذهبت لزيارة أهـلي هناك لم أستطع الحيـاة لشدة قسوتها وكان مبيتي في حجرة أقل من أن تصلح لمبيت الدواجن .."

كاليفــورنيا..

كاليفورنيا " الولاية الذهبيّة" .. هى إحدى الولايات الأمريكيّة البعيدة غرباً ، والمعروفة بجمالها الطبيعى ، وخصب أرضها ، والإنتاجية المرتفعة لمصانعها ، وأفكارها الإجتماعيّة والسياسيّة المتجدّدة ، تتخطّى مساحة كاليفورنيا مساحة ألمانيا إذ تبلغ أكثر من ٤١١ ألف كيلومتراً مربّعاً .. يصل أعلى ارتفاع جبالها " جبل ويتنى" إلى ٤٤١٨ متراً فوق سطح البحر ، وأكثر أرضها انخفاضاً - بوادى الموت - ٨٦ متراً تحت سطح البحر .. تحدّها شمالاً ولاية أوريجون ، وشرقاً ولايتا نيفادا وأريزونا ، ودولة المكسيك جنوباً ، والمحيط الباسيفيكى شرقاً ، ومن مدنها الكثيرة مدينة لوس انجلوس وهى أكبرها وسان فرانسيسكو والعاصمة سكرامنتو وسان دييجو وأوكلاند ، من معالمها الرئيسيّة واديها الكبير فى منتصف جنوبها ، يحدّه مجموعة من الجبال ، ويجرى به حوض نهر سكرامنتو شمالاً ، وسان چواكين جنوباً ، وتصبُّ فى المحيط الباسيفيكى بخليج سان فرانسيسكو ، ومجموعة أخرى من الأنهار الصغيرة . تغطى الغابات ٤٢٪ من مساحة الولاية يمتد أغلبها على طول الساحل غرباً ، وتوجد بها براكين نشطة كان آخر نشاط لها سنة ١٩١٤ - ١٩٢١ ، ويوجد بها العديد من البحيرات الطبيعيّة والصناعيّة ، والأخيرة تكونت بفعل فيضانات الأنهار خلف السدود الاصطناعية العملاقة .

وطقس كاليفورنيا متنوّع لموقعها الطولى الذى تختلف فيه تضاريسها ، لذلك يتميّز جوّها بموسم ممطر من شهر أكتوبر إلى إبريل ، وموسم جاف من شهر مايو إلى سبتمبر ، ودرجة الحرارة تختلف قليلاً بين هذين الفصلين ، وهى ألطف ناحية الشاطئ ، وعلى العموم فجنوبها أدفأ من شمالها بحيث تتراوح درجة الحرارة بين ١٠ - ١٣ درجة مئوية شتاءاً و١٥-٢٢ درجة صيفاً ، وتشتدّ درجات الحرارة فى المناطق الصحراويّة مثل وادى الموت .

نظراً لشدّة التباين فى الطبيعة والطقس فتتباين تبعاً لذلك نوعيّة محصولاتها وحيواناتها ، تعيش الحيوانات الضخمة كالدب والغزال ونمر الكوجر فى منطقة الشمال وغابات سييرا نيفادا .. وغاباتها الساحليّة تعيش فيها الأرانب والثعالب وثعابين الأجراس

والسلحفاة وكثير من القوارض ، والصحراء غنيّة بأنواع الحيوانات المختلفة ، وفى بطون بحيراتها شتى أنواع الأسماك .

وكاليفورنيا أكثر الولايات ازدحاماً بالسكّان ، إذ يقترب تعداد سكّانها من خمسة وثلاثين مليوناً .. وكثافة الكيلومتر المربع تتجاوز الثمانين فرداً ، والزيادة العدديّة حوالى ٣٥٪ سنوياً لارتفاع نسبة المهاجرين إليها . وغالبيّة السكّان من البيض ، مع مجموعات من الأقليّات أكبرها حجماً من السود الأمريكيين تبلغ حوالى ٨٪ يعيش أغلبهم فى المدن الكبيرة ، ومدينة لوس انجلوس بها أكبر تعداد من الأصول الأسبانيّة – المكسيكيّة أو "الشيكانو" وكذلك من الأمريكيين من أصل يابانى ، وفى ولاية سان فرانسيسكو تَجَمُّع كبير من الصينيين الأمريكيين نزح أَغلبهم فى القرن التاسع عشر للعمل فى مناطق استخراج الذهب ، وإنشاء خطوط السكك الحديديّة ، وتعيش أغلب جاليات الأصول الفلبينيّة والهنديّة فى مناطق الوديان ، ويبلغ عموم سكان الولاية من أصول غير أمريكيّة حوالى ٢٥٪ ، وبولاية كاليفورنيا نسبة كبيرة من تعداد اليهود الأمريكيين .

وولاية كاليفورنيا غنيّة بالمعادن ومنها البترول والغاز الطبيعى فى مناطقها الجنوبيّة ، تتواجد آبارها على اليابسة أو فى أعماق المحيط ، خلافاً لمعادن النحاس والذهب وخام الحديد والزئبق والصوف الزجاجي وأملاح الصوديوم والبوتاس ، كذلك الكبريت واليورانيوم المشع والزنك والأسمنت والتنجستن ، وترقى بها هذه الثروة المعدنيّة إلى المركز الرابع بين الولايات ، إذ يبلغ دخل التعدين بها عدة مليارات من الدولارات سنوياً .

يتعدّى الدخل القومى لولاية كاليفورنيا من الزراعة عشرات المليارات من الدولارات سنوياً ، وهو أعلى دخل بين الولايات ويعتمد على الماشية والألبان والقطن والعنب ، ثم الحبوب بأنواعها ، والخضراوات والفاكهة ، تُصدّرها إلى جميع أنحاء البلاد ، والغابات تنتج الخشب بأنواعه المتعدّدة الفاخرة باهظة القيمة ، ولب الخشب المستخدم فى صناعة الورق .

وصناعة الصيد تُعَدُّ من أهم الصناعات فى الولاية إذ ترقى بها إلى المركز الثانى فى الدخل بعد ولاية ألاسكا ، وأهم أسماك التصنيع هى التونة والسالمون والماكريل والأنشوجة . ومنتجات التصنيع من أدوات نقل كالطائرات والسيّارات والسفن ، كذلك المصنوعات الغذائيّة والأجهزة الكهربائيّة والإلكترونيّة مثل الموتورات والمنتجات البتروليّة مثل البلاستيك ، خلافاً لصناعة المنسوجات والملابس ترقى بها إلى المركز الأول فى التصنيع بين الولايات وتحقّق مئات المليارات من الدولارات سنوياً .

تُعَدُّ هوليوود وبربانك ومدينة كلڤر أهم مراكز الولاية والدولة للإنتاج السينمائى والتليفزيونى. وللسياحة شأن كبير فى كاليفورنيا إذ يفد إليها ملايين عديدة من السياح من جميع أنحاء العالم للتمتّع بمناظرها ، ورحلاتها الخلويّة ، واستوديوهاتها السينمائيّة، ومؤسساتها الترفيهيّة مثل مدينة ديزنى ، وحدائق أناهيم ، وحديقة حيوانات سان دييجو ، وعالم البحار ، وسوق الصيادين ، والمدينة الصينيّة وغاباتها الوطنية ، ومشاهدة جسورها العظيمة مثل جسر البوابة الذهبيّة بسان فرانسيسكو وجسر أوكلاند- سان فرانسيسكو عبر خليجها . ومطارات كاليفورنيا الدوليّة بلوس انجلوس وسان فرانسيسكو تربطها بالعالم ، خلافاً لعديدٍ من المطارات الداخليّة . ومن أهم موانئها التجاريّة العديدة ميناء أوكلاند للحاويات - وهو الميناء الأول فى العالم فى هذا المجال - وسان فرانسيسكو وريشموند ولوس انجلوس وسان دييجو .

يعرف عن كاليفورنيا مؤسساتها العلميّة والثقافيّة الرفيعة ، وبها العديد من الكليّات المحليّة ، والجامعات ، والمؤسسات البحثيّة التى تدعمها المعونات المالية الأهلية ، وأهمها معهد كاليفورنيا للتكنولوچيا الذى أنشئ سنة ١٨٥٢ ، وجامعة كاليفورنيا سنة ١٨٦٨ ، وجامعة ستانفورد سنة ١٨٨٥ ، بالإضافة إلى المؤسسات العلميّة الخاصة والثقافيّة العديدة ، كمتاحف الفنون والرسم للعنصريّات المختلفة من هنديّة - أمريكيّة ، وأوروبيّة ، وشرقيّة بسان فرانسيسكو ولوس انجلوس ، ومتحف لوس انجلوس للتاريخ الطبيعى يهتم بدراسة العصر الجليدى عن طريق دراسة الحفريات الأسفلتيّة بها ، والحدائق النباتيّة بسان مارينو ، ومتحف الفنون القديمة الجريكو - رومان بماليبو ،

ومتحف سان دييجو للتاريخ الطبيعي.. أضف إلى ذلك المكتبات العملاقة ، فمكتبة لوس انجلوس العامة تحتوى على أربعة ونصف مليون مجلد ، ومكتبات جامعة ستانفورد تحتوى على أكثر من أربعة مليون مجلد ، ومكتبة جامعة كاليفورنيا ببيركلى تحتوى تقريباً على سبعة ملايين مجلد ، وبلوس انجلوس أربعة مليون مجلد تقريباً ، وبسان فرانسيسكو أكثر من خمسة ملايين مجلد.. وبكل من مدينة لوس انجلوس وسان فرانسيسكو فرقة أوركيسترالية سيمفونية على مستوى راقٍ ومدرسة للأوبرا والباليه بسان فرانسيسكو ، بجانب المسارح والمعاهد الموسيقية ، وما يقرب من ١٣٠ جريدة يومية باللغة الإنجليزية .

تنقسم جامعات كاليفورنيا إلى ثلاث مجموعات منها جامعة كاليفورنيا ، وجامعة الولاية وكلياتها المحلية ، ونظام الكليات المحلية ، بحيث يضمن كل خريج مدرسة عليا "ثانوية" مكاناً له للدراسة الجامعية.. ومن لا يحقق متطلبات الالتحاق بالجامعة يستطيع الالتحاق بإحدى كليات الولاية التى تقبل مستويات أقل.. ومن يحقق كفاية دراسية بأحد الفروع يستطيع الالتحاق بأى فرع آخر. ومتطلبات القبول هى متوسط الدرجات بالسنوات الثلاث الأخيرة فى الدراسة الثانوية ، يُضاف إليها درجات إمتحانات نهائية.. ينظم هذه العملية مكتب تنسيق للاختيارات بين الرغبات. تتميز الجامعات عن الكليات المحلية بوجود نظام دراسى لدرجة الماجستير. ويُعَدُّ برنامج الدراسات العليا بولاية كاليفورنيا موضوعاً أساسياً فى الصراعات السياسية والاجتماعية بها .

تغلبت إرادة الله بظهور بوادر الحمل عند زوجتى ، إذ كنت قد عاهدت نفسى - قبل مغادرة الوطن - بألا يكون لى ذريّة على الارض الأمريكيّة.. تلك من مشاعر الغضب بعد أحداث حرب ٦٧ ، التى أجّجتها حرب ٧٣ .. بما شاهدناه من طائرات عملاقة تبنى جسراً جوياً من كل ولاية أمريكيّة إلى إسرائيل ، تحمل الهلاك لأهلنا على ضفتى القناه.. وبما رصدته الأقمار التجسسيّة الأمريكيّة من موقع الثغرة ، وخطّطت به اختراق القناهَ بفكر وتكتيك أمريكى.. إذا كانت الاستراتيجيّة الأمريكيّة تجاهنا عدائيّة إلى هذا الحد ، فمن الصعب أن تخضع مشاعر شعوبنا لصداقتها ، ويجب أن تنظر حكوماتنا إلى إعادة ترتيب علاقاتنا- من هذا المنظور- تجاه هذه الدولة ، حتى وإن كانت قوّة عظمى، بل وأعظم القوى فلنا أرضنا ومواردنا وعزيمتنا وإيماننا وأصدقاءنا وتاريخنا نحقّق بها الاستقلال الواعى للحفاظ على كرامة شعوبنا.. فمصالح الدول متبادلة ونجحت كوبا فى ذلك وهى المجاورة للأرض الأمريكيّة ، ونجحت كوريا وفيتنام فى قهر العجرفة العسكريّة الأمريكيّة ونجحت الصين الشعبيّة فى الأخذ بما يوافق اقتصادها وتعداد شعبها وباكستان والهند ودول أمريكا اللاتينية قد حقّقت ذاتها ، وماليزيا وإندونيسيا ودول القارة الإفريقيّة مازالت تكافح فى سبيل تحرّرها من المكائد الاستعماريّة ، ولعل ما يجرى فى دول المغرب العربى وليبيا والسودان خير شاهد على ذلك . فلم يكن أسهل من أن تدور هذه الدول فى الفلك الأمريكى فتفقد هويتها وقوميتها كما اختارت بعض الدول الأخرى.

كنا قد ألحقنا ابنتى فى سن السادسة بمدرسة " جرانت" القريبة من مسكننا ، وكانت زوجتى تذهب لإحضارها فى موعد خروجها.. ظهر أول المنَغّصات فى شكل شاب مخنّث يسكن قبالة مجمّعنا السكنى ، يصبغ شعره بلون أشقر ، ويضع قرطاً فى أذنيه ، ومكياجاً بألوان فاقعة ، وحقيبة نسائيّة يعلّقها على كتفه ، ويمشى مشية يبالغ باصطناع الأنوثة فى خطواتها مع أشكال من الملابس الضيّقة الزاهية ، فكانت زوجتى تحجم عن الخروج من مبنى مسكننا إذا رأته خارجاً من مسكنه أو سائراً فى الطريق.. ومما زاد الطين بلّة ، ظهور سفّاح فى وسط المدينة أخذ يختار ضحاياه فى اتجاه غربها ، حتى إقترب بجريمته السابعة فيما بين مدرسة ابنتى ومبنى سكننا ..

فى أحد الأيام سَمِعَت زوجتى قرعاً فزعاً على بابنا ، وعند فتح الباب رأت فتاه أمريكيّة بيضاء تتوسّل إليها أن تخبئها داخل شقتنا .. عند رجوعى وجدت الفتاهَ لدينا وعندما قدَّمتها زوجتى إلىَّ على أنها إحدى صديقاتها ، زَجَرْتُ زوجتى إذ شاهدت أثناء صعودى أحد الشباب الهندى الملامح يحمل سكيناً ويتجوّل بين الطوابق .. عرفت من الفتاة أنه صديقها ويقوم بالبحث عنها .. إتصلت بمدير المبنى الذى قام بجمع عدد من الرجال ساكنى المبنى وقمنا بطرد الفتاه ، وتسليم الشاب إلى الشرطة .. فى سؤال أقاربى النصيحة ، سمعنا عن أحداث مفزعة حدثت لهم ، من سرقات تحت تهديد السلاح فى أماكن انتظار السيّارات .. وحين لامست سيارتهم سيارة مجاورة لها انطلق جهاز إنذارها فحضر صاحبها شاهراً مسدسه .. انتهينا إلى الرأى بشراء بيت فى أحد الأحياء الراقية القريبة من مكان عملى ، ما أن سمع المحيطون بى بالمستشفى عن ذلك حتى أقبل السماسرة من موظفيها لتقديم العديد من العروض ، ومنهم سيّدة كانت صفقتها جيّدة من دفع مقدّم متواضع لأحد البيوت المستقلّة الجديدة بأحد الأحياء الحديثة الإنشاء ..

ما أكثر هذه الأحياء حديثة الإنشاء وما أسرع إعدادها للسكنى وتدعيمها بكل الخدمات ، من مرافق ، ومدارس ، ومستشفيات ، ومراكز تجاريّة وترفيهيّة ، ومواصلات عامة .. يتعجّب المرء .. متى تم ذلك ..؟ والأعجب هو كيف تم ذلك ..؟ فلا يشعر أحد بأعمال الحفر والبناء ، فمصادر الخدمات من مياه شرب وكهرباء وصرف صحى وغيرها مهيّأة فى المناطق القريبة ليسهل توصيلها إلى المناطق المخطّط إنشاؤها مسبقاً ، بحيث يتم ذلك بأقل التكاليف والجهد وأقصر وقت . ومهنة "السمسرة العقاريّة" واسعة الانتشار فى المجتمع الأمريكى ، وتحظى بمصداقيّة قانونيّة .. تقدم كافة الاختيارات والتسهيلات للبائع والمشترى ، فما على المشترى إلا دفع المقدم ويلتزم أحد البنوك بدفع قيمة باقى ثمن العقار أقساطاً تستحق له مع فوائدها ، وتضمن الوظيفة من حيث قيمتها الاجتماعية ومرتبها والمدخرات الشخصيّة حجم الصفقة ، وتهتم الحكومة بتشجيع الادخار بين الأفراد بطرق شتّى ، وتَعُدُّها أصلاً من أصول ميزانيتها . أَرجأتُ موضوع السكن الخاص إلى حين البت بالرأى فى الإقامة الدائمة أو المغادرة إلى المكان المختار.

حضر فى هذه الأثناء زميلٌ مبعوث من الإسكندريّة إلى جامعة كاليفورنيا لمتابعة الجديد فى الجراحة هو د. أحمد عزّام الذى كان قريباً إلى قلوبنا ، لدماثة خلقه ودأبه على العمل والدراسة . . فكنت أقضى معه أمسياتنا فى الحرم الجامعى ، نشاهد الشباب الأمريكى من جماعة "راداكريشنا" فى لباسهم البرتقالى اللون ، الغريب الشكل ، تصاحب مسيرتهم دقات الآلات النحاسيّة . . ونتناول عشاءنا فى مطاعم البيتزا التى تقدم أفلام تشارلى تشابلن الصامتة . . كما حضر د. شريف مختار من جامعة القاهرة ، لدراسة الجديد فى أمراض القلب الحادة بوحدة صدمات القلب ، وكنا كثيراً ما نشاهده فى مرصد هوليوود الفلكى يقضى يوم أجازته . . وكان الأساتذة المشاركون يشيرون إليه دائماً بالثناء .

إنتقل من فيلادفيا إلى لوس انجلوس أحد جراحى الصدر والقلب ، الذى كان مدرساً بطب الإسكندرية وابتُعث إلى ألمانيا وتزوّج من ألمانيّة ثم هاجرا إلى أمريكا واستقرا بها . كان شقيقه الأكبر - أستاذ الجراحة - يقوم بجراحة استئصال الجسم السباتى Carotid body . . من الرقبة علاجاً لمرض الربو الشعبى الذى شاع إجراؤها بأمريكا واليابان فى أوائل الستينيّات ، ونظراً لنتائجها السيئة فقد امتنعت المراكز الطبيّة فى العالم - ومنها كليّة طب الإسكندريّة - عن الاستمرار فى إجرائها . إستمر د . "بنيامين ونتر" أحد أساتذة الجراحة المشاركين فى المركز الطبىّ حيث أعمل فى إجراء تلك الجراحة ، وخصص مستشفىً خاصاً لإجرائها وإقامة مرضاه الذين كانوا يفدون من جميع أنحاء العالم . أوصانى ستين بعدم السماح لهذا الجرّاح بحضور اجتماعاتنا الطبيّة لما اشتهرت به هذه الجراحة من دجل علمى . . ما أن عرف هذا الجراح أننا كنا نقوم بإجراء العمليّة بالإسكندريّة حتى ظل يطاردنى هاتفياً لمعرفة نتائجها ، فأخبرته بحضور شقيق الجرّاح الذى كان يجريها هناك ، وأن الخطوات والنتائج قد تكون فى حوزته ، فقام بالاتصال به لكن طبيبنا السكندرى آثر الابتعاد عن الشبهات العلميّة وأخبره بعدم معرفته بالتفاصيل ، وأن نتائجها قد دفنت بوفاة شقيقه الأكبر . . لم يفقد الرجل الأمل فدعانى إلى الغداء بالمستشفى الخاص . . ولشدة وثوقه وإلحاحه فقد لبيت دعوته .

قدّمنى إلى رئيسة التمريض وأخبرها أنه يسمح لى بالاطلاع الكامل على كل ملفّات مرضاه ، وأبحاثهم ، ومعرفة تطور مرضهم ، ومسائلتهم عن أعراضهم قبل وبعد الجراحة . انبهَرْت فى واقع الأمر بالتحسّن الواضح فى حالات المرضى ، ومن قول أحدهم " كنت لا

أستطيع صعود عشر درجات من شدّة ضيقي التنفسي والآن - إذا أردت - أستطيع أن أقوم من سريري ، وأدور حول مبني المستشفي جرياً سبعة أشواط" . .

جلسنا على الغداء نتناقش في هدوء ، كانت معلوماتي مستفيضة في شأن هذه الجراحة، فقد عايشت كل المرضى فترة إجرائها في السنوات من ٦٢ إلى ٦٤ وهي فترة عملي طبيباً مقيماً في الأمراض الصدريّة بالإسكندرية ، فكنت أُعِدُّ المرضى بالدراسة والفحص ، وأحضر عملياتهم ، وأتابع دراستهم المعمليّة مع أستاذ الجراحة ، حتى صرنا مثل الأصدقاء لتقاربنا في العمل. . من هذه العمليّات ما كان يجريه في ناحية واحدة من الرقبة ومنها ما كان بالناحيتين. . شرحت لهذا الجراح "ونتر" كل ذلك ، والقاعدة النظريّة التي اتبعناها والنتائج المخيّبة التي حصلنا عليها ، فأخرج من حقيبته آخر دراسة بحثيّة له في أشهر مجلاّت الصدر الطبيّة ، وبها رسمٌ تفصيليٌ لتشريح الجسم السباتي ونوعيّة الأنسجة حوله و كيفيّة إستئصاله ، وأتبع شرحه بقوله أن من سبقه لم يؤدِ الجراحة كما يجب لتحقيق مثل نتائجه ، وأنه قد زار أحد العلماء في وظائف الجهاز التنفسي هو البروفيسير" كومرو" الذى شجّعه على إجرائها . . أبديت بعض الاقتناع إذ كان الرجل منطقياً في شرحه ، وبيده أكثر من حجة تساند دعواه ، فالبروفيسير "كومرو" هذا كنا نَعُدُّهُ - نحن أطبّاءَ الصدرِ في كل العالم - "ربٌ" علم الوظائف التنفسية.

إحتفظت بسؤالي لآخر اللقَاء ، ومهّدت له بقولي أن الفترة المباشرة للإجراء الجراحي يصاحبها أحياناً كثيرة تحسنٌ في حالة المريض النفسيّة تؤثر على الأعراض وقتياً ، كما أن هناك تغيرّات مَرَضِيّة في وظائف الأعضاء يسترجعها الجسم بمضي الوقت ، وأنني حضرت من بلادى لاستقصاء حقائق وأغوار الأمور. . لذلك فإني أقدّر له - إذا استطاع - تدبير لقائي ببعض مرضاه ممن مضى عليهم وقتٌ - في حدود عام - والإطّلاع على دراستهم المعمليّة. . وهنا انفجر غاضباً قارعاً المائدة بيدة وصائحاً " من أين لي الحصول عليهم الآن وقد رحلوا إلى بلادهم" . .فقمت مستأذناً وتوجّهت على الفور لمقابلة ستين ، وأطلعته على ما دار بيني وبين "ونتر" فأحاطني علماً أن ونتر قد قابل كومرو فعلاً ، ولم يعترض الأخير على إجراء هذه الجراحة . كان ستين أثناء فترة زمالته يعمل تحت إشراف كومرو ، فوعدني بإبلاغه بما حدث من عدم موضوعيّة "ونتر" في تناول نتائجه ، وبما أسفرت عنه مناقشتي الأخيرة له. .

الحنين..



شَغَلنى العمل واللهو بالرحلات والزيارات والدعوات والسهرات عن إقامة شعائر الدين ، فتركت الصلاة والصيام ورشفت من كأس خمر بضع رشفات مجاملة للحضور فى إحدى الحفلات. فى إحدى الأمسيات وعند أقاربى ، تركت الجمع إلى جهاز التسجيل "الإستريو" حيث مكانه المنعزل لأراجع أشرطة تسجيل الأغانى المصريّة ، إنتقيت إحداها وسمعتها تردّد بصوتها الذهبى ، أشعار قصيدته العصماء ، بلحنها العبقرى..

إذا الإيمان ضاع فلا أمان
ولا دنيا لمن لم يحي دينا
ومن رضى الحياة بغير دين
فقد جعل الفناءَ لها قرينا

فصرت أنتفض وأخنق العبرات ، وعقدت العزم على ما انتويت ، وبتلقائية صامتة صرنا نتوّجه فى الشهور التالية إلى المحلات ومعارض الهدايا - التى يتمتّع محل الفرا بخصم النصف على أسعار معروضاتها - للشراء وبتشجيع من باسل الفرا الذى كان يعبّؤها بدوره فى صناديق كرتونيّة يربطها بشرائط من البلاستيك مستعملاً بعض أدوات المحل لإحكام رباطها.

فى تلك الأثناء غمرتنا نحن العربَ فرحةٌ عارمةٌ بما فوجئنا به من اعتلاء كلمة "صفا" لأحد برجين عملاقين بشارع هوليوود أعظم شوارع لوس انجلوس.. كان البرجان يحملان أعلاهما "مركز طبى مائير" بإضاءة زرقاء ناعمة جذابة ، فصار أحدهما يحمل "مركز طبى صفا".. وكان ذلك بفضل شجاعة وإقدام وتضحية عائلة الفرا بشراء أحدهما.

تلقيت بشرى النجاح بخطاب من هيئة الامتحانات الطبيّة على عنوان المستشفى القديم، فأخبرنى د . "ليستر-روو" بأنه يجب أن ألزم مكتبى لفترة ، إذ ستنهال المكالمات الهاتفيّة بعروض العمل ، وأنه سيظل بجوارى لاستقبالها والرّد المناسب عليها وانتقاء أحسنها.. وفعلاً فقد بدأت العروض من ساعة وصول الخطاب.تعرض الوظائف فى شتى الولايات ، وبمرتبات شديدة التفاوت حسب موقع كل ولاية ، وظروف جوّها وسكنها ،

فكان عرضٌ من ولاية ميتشجان- حيث الجو شديد البرودة والموقع قرب الحدود الكنديّة شمالاً - ضِعْف مرتب عرض آخر بلوس انجلوس.. يقوم بهذه الترتيبات وكالات محليّة خاصة تُنهي المهمة في أقصر وقت، وبعروض قطعيّة لا تحتمل الاجتهادات في المرتب أو المزايا الهامشيّة ، وتحدّد فترة اختيار للسؤال في أثنائها عن كل ما يَعِنُّ لصاحب الوظيفة ، بداية من أسعار السكني ومستوياتها في البلد الذاهب إليه ، ونوعيّة الجيرة ، وتعداد الأقليّات، ونوعيّاتهم ، وأسعار السيّارات والمأكولات بها إلى مستوى درجات الحرارة في مناطقها المختلفة.

وهكذا صار ليستر روو يضع العروض في ترتيبها ويناقش معي أحسنها ، وأخبرني أن رأى زوجتي لابد أن يحظى بتقدير كبير ، إذ أنها المعنيّة بظروف الحياة اليوميّة ، إنتهى بنا القرار إلى إختيار وظيفة رئيس قسم الصدر بمستشفى " جليندايل " بلوس انجلوس ، وكان هذا هو اختيار ليستر روو الأوّل فقد كانت المستشفى على بعد أميال قليلة من مركزنا الطبّي، حيث أستطيع الاستعانة بالرأى والمساعدة في الشئون الإداريّة ، والاشتراك في النشاطات العلميّة التي عَركْتها وألَفْت التعامل مع مجتمعاتها من الأطبّاء.. كما وضعنا في حسباننا وجودنا بين الأهل والأصدقاء ، وشدّة تقاربنا معهم خلال السنوات الثلاث الماضية ، ورفض زوجتي الحياة في جو جليدى ، واقتراب موعد وضعها لمولودها.. وبناء على ذلك فقد أخطَرْتُ إدارة المستشفى بموعد نهاية عملي بها ، وأعددت برنامجاً للقيام ببعض الأعمال الإضافيّة الحرّة خلال أجازات نهاية الأسبوع لادخار بعض المال ، وعلى الرغم من كل ترتيبات الإقامة هذه استمرت بنا الحال في زيارة المحلات والمعروضات وشراء لوازم حياتنا بالإسكندريّة ، والهدايا لأفراد عائلتينا ، وكأننا مسوقون إلى ذلك.. بل ودلّنا البعض إلى وجود مكتب لأحد المصريين بمدينة نيويورك يقوم بإعداد ما نريده من لوازم المنزل الثقيلة ، وشحنها ، واصطحاب بعضها من هناك في طريق عودتنا ، فقمت بالاتصال به وطلبت قائمة بكل ما نحتاجه من لوازم بشتى أنواعها وأحجامها وأسعارها وطريقة شحنها وموعد تسليمها بالإسكندرية ، إذ كنت قد تخلّصت بالبيع من كل اللوازم المنزليّة قبل مغادرتنا لها .. وصار من برنامج تسوّقنا اليومي زيارة معارض السيّارات لاختيار سيّارة العودة.. بل وقمت بمراسلة مصانع السيّارات بألمانيا وفرنسا التي زودتنا بالتفاصيل المطلوبة.

تعرفت على الشعب الامريكى من خلال نوافذ عديدة وعريضة ، فمهنتى ليست فقط من أكثر المهن علاقة بالناس، بل تتكشف عندها خبايا النفس البشرية فى معاناتها وسعادتها الصحيّة والحياتيّة ، كذلك لاختلاطنا المتفتح بين أفراد مجتمع العمل والأصدقاء والجيران على اختلاف جنسيّاتهم فى وجودنا بالشرق والغرب الأمريكى ، وتحرّكنا فى رحلات طويلة وقصيرة إلى شتى البقاع والأماكن ، فكانت الصور المختلفة فى تلك المنظومة عميقة الحقيقة.

يتمتع المواطن الأمريكى بحريّة مطلقة فيما يختص بتصرفاته الشخصيّة لكن ليس بالرأى والتعبير عن كل ما فى نفسه وضميره ، فلم يعلن أحد من بين أفراد المستشفى برود أيلاند عما بداخله نحو اتهام ستين وهو اليهودى، لريدنج وهو المسيحى بمعاداة الساميّة لمجرد عدم رضاء الأخير عن تصرف ابنته المسيحيّة من الصلاة بالمعبد اليهودى مع ابنة ستين.. ثم عندما تعرض ريدنج للاضطهاد الوظيفى، فلم يجد من يقدّم له عملاً بكل أنحاء القارة الأمريكيّة.

.. وحين شاهَدْت فى الاستعراض تمثال المسيح عليه السلام فوق حماره فى طريقه إلى أورشليم يقوده يهودى إليها وقالت السيدة الأمريكيّة "ياللكذبة الكبيرة.." لم تقلها علانية بل مالت برأسها إلى أسفل وفى اتجاه جانبى كأنها تخبّئ تعليقها داخل صدرها خوفاً من الإعلان عنه. هؤلاء هم الشريحة الأمريكيّة الغالبة ممن يخافون اضطهاد المجتمع لهم اذا تسلّط اليهود عليهم.. أما على لافتات المساكن "لايهود.. لاكلاب" أو رفض عضويّة اليهود بنادى لوس انجلوس للجولف فتلك انتفاضات تعبّر عن الغضب الذى يستشعره الأمريكى المسيحى تجاه السيطرة اليهوديّة، وتلقى عقاباً رادعاً من المؤسسات اليهوديّة مثل افزاع السكّان كما قدّمْتُ فى موضوع شراء المسلمين لقطعة أرض لبناء مسجد..

يعيش الأمريكيّون بمعزل عن الأحداث فى حماية بُعد المسافة عن أماكن المواجهات العالميّة، وفى حماية المقدرة الأمريكيّة العسكريّة والاقتصاديّة والسياسيّة لبلادهم ، ويستشعر مواطنوها ضحالة ثقافتهم، ومحدود تفكيرهم عن القضايا العالميّة من فقر

وجوع ومرض وحروب بين شعوب الأرض ، وفى عدم معرفة أسماء ومواقع تلك البلاد التى تعانى من تلك الآفات ، بل فى عدم معرفة أسماء الكثير من البلاد.. ولا أبالغ إن قلت إن أكثر من ثلثى المجتمع الأمريكى لايعرف عن مصر شيئاً وأن الغالبيّة من الباقين لاتعرف عنها إلا الجمال والأهرام.. فما بالك بليبيا وتشاد والسودان وجيبوتى وموريتانيا..؟ كما يشعر الأمريكيون بالعجز والخجل من جهلهم باللغات الحيّة، فليس بين الكثرة الغالبة مَنْ يعرف سوى لغة التحدّث الانجليزيّة التى تشكّلت إلى لغة أمريكيّة، هى مسخ للانجليزيّة بما دخل عليها من تغيّرات "شوارعيّه" وكتابة "نطقيّة" أى كتابتها بمثل ألقائها سمعياً. والتاريخ مشكلة نفسيّة لدى الأمريكيين فلم يمض على دولتهم أكثر من مائتى عام ، لذلك فهم ينظرون إلى أصحاب التاريخ أحياناً بالتبجيل وأحياناً أخرى بالتحدى، ويحافظون على كل قطعة أرض أو حجر له علاقة بأحداث المائتى عام التى هى كل التاريخ الأمريكى.

فى حوار بينى وبين ستيف - فنّى الكمبيوتر - حدثته عن تاريخ مصر وأطماع الغزاة فى نيلها وأرضها وجوّها عبر التاريخ..

قال : -

- لم لا تغلقون أبوابكم عليكم إلى أن تصلوا إلى النماء والأزدهار؟..

قلت :

- لانستطيع ، فنحن فى قلب موقع الأحداث ولسنا مثلكم على الجانب الهامشى جغرافياً

- ما هذا الهامش الجغرافى؟ وما هو قلب موقع الأحداث هذا؟

- أعنى أننا حتى وإن حاولنا فلن تتركنا الأحداث من حولنا إذ ستطرق أبوابنا وتُحطّم أسوارنا..

- لا أفهم..

- أنظر إلى الحربين العالميتين.. لم يطرق بابكم فيها أحد ، فالأولى كانت بسبب إغراق باخرة انجليزيّة بها بعض الركاب الامريكيين بعيداً قرب أوروبا التى تبعد عن أرضكم

خمسة آلاف كيلو متر ، والثانية كانت بسبب هجوم اليابان في الناحية الأخرى من بلادكم يبعد عنكم أكثر من ثلاثة آلاف كيلو متر كذلك. وعندما أقلع المستعمرون الإنجليز عن حربكم، وهم على أرضكم، وسلموا لكم بالاستقلال.. كان ذلك لحسن تقديرهم لطول خطوط الإمداد بالجند والعدّة والعتاد من أوروبا ، وتبعثر قوّاتهم في مواقع متعددة متباعدة على أرضكم الشاسعة، فسلموكم ولاية ڤرچينيا، وبعدها بسنوات طويلة تنازلوا عن ولاية أوريجون في الغرب الأمريكي البعيد.. ها هي جغرافية بلادكم تلعب دوراً أساسياً في اتقائكم شر المعتدين.

كانت صور الأحداث التي أراها تعكس الأحوال العميقة في المجتمع الأمريكي.. شاهدت صوراً ناطقةً منَ الحياة الأمريكيّة أصابت نفسي بالألم بقدر ما أصابتها بالغثيان. ففي وقت متأخر من الليل أثناء عملي في استقبال الحوادث بإحدى المستشفيات النائية ، سمعنا صراخاً وعويلاً مصدره عربةَ الأسعاف التي تحمل إحدى المريضات. كنت شديد الانشغال في إسعاف بعض المصابين ممن تحضرهم الطائرةَ المروحيّةَ (الهليوكبتر) تباعاً من الطرق السريعةَ العديدةَ في هذه المنطقة . أخبرني الممرض أنه يمكنني إستكمال عملي فليست المريضة - التي لم ينقطع صراخها - في حالة تستدعي التدخل السريع.

إستغرقت بعض الوقت وأسرعت إليها ، كانت فتاة في ريعان الصبا رائعة الجمال ، تغمض عينيها وتضرب الهواء في عنفٍ بذراعيها ، ينطلق السباب من فمها كالقذائف وتلعن بالأم والأب بأقذع الألفاظ لكل من حولها • اقتربت منها ، فكان نصيبي من السباب وافراً • شممت في المكان حولها خليطاً من رائحة الخمر الشديدة ورائحة "نتنة" لاتصدر إلا عن صديد متجمع مضى عليه وقت طويل ، عرفت مصدره من إنثناء ركبتيها وانفراج فخذيها • وضعت يدي على جبهتها المشتعلة بحرارة جسمها ، واليد الأخرى فوق بطنها ، فاستراحت وهدأت وكنت أكتم أنفاسي من شدة رائحة الخمر المنبعث من فمها، وسألتها عما بها فأشارت بيديها تصوّر أدق أعضاء جسمها. طلبت من إحدى الممرضات الواقفة بجواري رفع الغطاء عنها، فرأيت وشممت ما أصابني بالدوار ، أعطيت الممرضة تعليماتي بإجراء بعض الإسعافات، فكانت تغْترف الصديد وتفرغه في وعاء

وهى تغطى أنفها بقناع طبى ، واستعانت بإحدى زميلاتها فى القيام بعمل غسيل متكرر والمريضة لاتكف عن السب والقذف والصراخ والعويل • أعطيناها مهدئاً ومهبطاً للحرارة عن طريق الحقن، وبعض الأطعمة مع كوب من اللبن فلم تكن قد تناولت منذ الصباح إلا خمراً . .

قضيت الليلة أتحدث مع من حولى عن تلك الصورة القميئة ، فعلمت أنها إحدى اللوحات المتكرّرة . كان ما يعنينى هو معرفة ظروف الحياة المحيطة بحطام الإنسان هذا . . ومثيلاتها ، فليس يبدو عليها فقر أو عَوزٌ ، كما أنها رائعة الجمال وفى ريعان الشباب . إلى هذا الحال يصل الخوف واليأس من الحياة ، والقنوط بها، والنقمة عليها، بلا وسيلة للخلاص فيتشوه بديع خلق الله .

أيقظنى رئيس النواب فى الثانية صباحاً ليستشيرنى فى حالة مريضة، هى أمرأة أمريكية بيضاء فى الثمانية والعشرين، بريئة المظهر ترتدى ثوباً بالياً لايحجب أعضاء جسمها من تحته أى رداء داخلى ، حافية القدمين حتى شوهتهما وساقيها الجروح ، تملك شعراً أصفر ذهبى مسترسلاً كخيوط الحرير تلطخه ووجهها القاذورات ، تحمل رضيعه فى الشهور الأولى من عمرها تلفها بأسمال ، تمسك بردائها إبنة فى عمر سنتين أو ثلاث هى صورة طبق الأصل من أمها ، غير أنها تضع شيئاً مثل الحذاء فى قدميها ، وتمسك دمية من القماش المحشو تتدلى أطرافها الممزقة .

إتفقنا على تشخيص حالة الأم على أنها خثرات "جلطات" رئويّة ميكروبيّة متعدّدة، نشأت من جروح قدميها وساقيها .

كان رئيس النواب هذا فرنسى الأصل ، محبب إلى نفسى فجلست أستفسر منه عن تلك "الصورة الإنسانية" القبيحة ، عرفت أنها عشيقة تركها عشيقها وابنتيه ورحل . . هذا المارق لم يربطها به زواج . . وليس لها دعوى قانونيّة عليه تلزمه بمسئوليّات الأبوة . . وصرت أستهجن - بينى وبين نفسى- من يستهينون بالزواج فى وقتنا الحديث على أنه "قطعة من الورق" ويلجأون إلى المعاشرة غير الشرعيّة .

أخذنا الحديث إلى نظرة المجتمع الأمريكى لمثل هذه "الصورة" المنفّرة ، فعرفت أشياء لم أكن لأتصورها ، فهذا المجتمع لايرحب بنسل البنات بل أن هناك بعضاً منهن ممن قمنَ بالانتحار لهذا السبب .. وتذكّرت عندما تعرفت زوجتى بستين فى أول لقاء معه بإحدى الحفلات أن سألته إن كان عنده أولاد فأجابها بنعم.. ثلاثة .. فسألَته عن جنسهم فقال "ثلاث بنات" فتساءَلت عن غير قصد ..كلهن بنات؟ فأشاح الرجل بوجهه قائلاً فى همس "نعم".

صرت أحسد نفسى على مجتمعنا المحافظ، وعلى وصايا أدياننا بالحفاظ على بناتنا قرّة أعيننا.. وتذكرت حديث الرسول ﷺ "رفقاً بالقوارير" وقول أستاذى فى تمثّله العفة بفتاة قبطيّة من صعيد مصر .

عُقِدت دورة مونتريال الأوليمبيّة سنة ٧٦ ، وكانت متابعة أحداثها ليلة بليلة ، من أسباب سعادتى إذ كنت أشعر - لقربها من مكان معيشتنا - وكأنى أعيش أحداثها . إستأثَرت معجزة الجمباز الرومانيّة "ناديا كومانيتش" بمشاعر الجماهير ، فأطْلَقتُ إسمها على مولودتنا التى رزقنا بها بعد وقت قصير من انتهاء ألعاب الدورة الأوليمبيّة.

فى يوم عودة زوجتى من المستشفى تلقيت مكالمة هاتفيّة من مطار لوس انجلوس من أحد زملاء الإسكندريّة ، توجهت إلى المطار واستقبلت زميلى وزوجته وأسكنتهما أحد الموتيلات. أخبرنى الزميل أنه حاضر من الإسكندريّة حيث يقضى أجازته من عمله بإحدى المستشفيات الكبرى بمدينة الخبر بالسعوديّة ، وأنه يحمل إلىّ عرضاً أعدّه أستاذى لأستطيع التوجه إليها مباشرة للتعاقد معها والعمل بها، أو قضاء بعض الوقت بالإسكندريّة قبل ذلك ، أخبرته أنه من اللازم قضاء بعض الوقت مع الأهل ، والاطمئنان على أحوالهم ، والجلوس إلى أساتذتى لمعرفة أبعاد إقالتى من عملى ، والمستجدّات المترتّبة على عودتى فليس كمثلى من يستطيع مواجهة ذلك القرار والطعن فيه ، أو التظلم منه بعرض الظروف القاهرة التى أدّت إلى تأخرى ، وأشار الزميل إلى أن من أسباب حضوره هو توصية صاحب المستشفى التى يعمل بها فى السعوديّة بمشاهدة الأجهزة والمعامل فى

المستشفى الذى أعمل به لاستيراد مثيلاتها ، كما أنه يأمل فى زيارة معالم لوس انجلوس فوعدته خيراً وحصلت - هاتفياً - على موافقة د . كلاينبرج بزيارة معامل المستشفى مساء نفس اليوم ، وقضينا اليومين التاليين بين معالم لوس انجلوس .

لم تألف نفسى ولم تحتمل مشاعرى قبول قرار إقالتى من عملى بالإسكندريّة على هذه الصورة، فكان تذكّرى لما جاء فى خطاب الإقالة يشعرنى بالأسى والحزن ، إذ لم أَخُن عهدى بأن أشَرّف معهدى.

إلتحقت بكليّة طب الإسكندريّة سنة ٥٤ ، وتخرّجت سنة ٦١ ، وعملت طبيب امتياز ومقيماً إلى ٦٤ ، وقضيت ثلاث سنوات فى خدمة شاقة عند افتتاح مشروع التأمين الصحى فى الأول من أكتوبر ٦٤ ، إنتظاراً لوظيفتى بالجامعة حتى ٦٧ ، وقضيت فترة معيداً ومدرساً حتى سفرى لمهمتى العلميّة فى ٧٢ . ثمانية عشر عاماً لم أتوانَ فى أثنائها عن التفوّق فى الدراسة ، ومراجعة الضمير فى رعاية مرضاى ، واحترام أساتذتى ، وتحقيق ما يُشَرّف وطنى وجامعتى من إنماء شخصيتى العلميّة ، وإجراء أبحاثى المرهقة ولسنوات عديدة فى أهم مشاكل بلادى الصحيّة . فكانت أبحاث الدكتوراه عن مرضى بلهارسيا الرئة فى مراحلها المختلفة ، لمعرفة مدى الفاقد الإقتصادى الناتج عن إصابة الفلاح المصرى بهذا المرض ، والتى نَشَرت نتائجهاجريدة الأهرام - أكبر الجرائد المصريّة اليوميّة - على صفحة كاملة فى عدد يوم ١٢ فبراير ١٩٧٢ ، وأخَذَتْها المراكز العلميّة فى أمريكا وثيقة لتفضيلي عن غيرى فى أعظم مدارسها الطبيّة ، ومراكز أبحاثها ، ومنها مؤسسة "الناسا" ، لأقوم بدراسات حيويّة مماثلة فى مشروع " جيمنى" لارتياد الفضاء. . وها أنذا أقضى قرابة أربع سنوات وسط هذا الجمع العدائى بكل شجاعة وتحمّل ، حتى صرت بين أطبائهم مثلاً يحتذى وموضع تقدير من علمائهم ، فنشرت مؤلفاتى فى أكبر المراجع وأبحاثى فى أرقى الدوريّات الطبيّة . . . يُقيلنى معهدى فى وطنى ، وهم يقدّمون العلم والبحث والمنصب والمركز والمال والشهرة والمستقبل !!

يالِلوعة النفس عند معرفة أن أقرانى فى الدراسة والعمل قد صوّتوا فى مجلس القسم بعدم عودتى إلى وظيفتى . .

تولّى رئاسة الجامعة نفرٌ من الرجال ممن يؤمنون بحب الأبناء لأمّهم مصر وأن في عودة الطيور المهاجرة حنان الأم وتقديرها لهم.. فصار يشّجع كل من لفظتهم معاهدهم بقوانين ولوائح عمياء .. صمّاء .. جائرة .. إلى العودة في وظائف جديدة تعوّضهم عمّا أصابهم من ظلم وإحباط.

إخترت طريق العودة أكثرها مخاطرة وتشويقاً بالسيّارة من غرب إلى شرق البلاد، عن طريق جنوبها، فيما يزيد عن خمسة آلاف كيلومتر للوصول إلى نيويورك، وركوب الباخرة عابرة المحيط "الملكة إليزابيث" . كنت أتخيّل باشتياق رحلة عبورها المحيط، وتوقّفها بعدد من موانئ أوروبا الجميلة.. على الرغم من طول الوقت والتكاليف الباهظة. كان الأقارب والأصدقاء ينظرون إلى رحلة السيارة بامتعاض وخوف شديدين، إذ أنني سأقطر خلفها مقطورة صغيرة تحمل المتاع، أخترق بها ولايات شديدة المطر والأعاصير وقت رحيلنا في شهر يناير تصحبنا ابنتي التي تقارب الثامنة، وابنة الأربعة أشهر حديثة الولادة، وما في ذلك من أخطار تقلّبات الجو وأحداث الطريق، فأقلعت تماماً عن الفكرة وأعددّنا كل شيئ لنقل متاعنا والانتقال بالطائرة إلى نيويورك .

إستدعاني ستين إلى مكتبه بعد انتهاء موعد عرض مستشفى جلينديل، وقدّم لي مظروفاً به شهادتين من مكتب الهجرة والجنسيّة، وأخبرني أنه في حالة رغبتي في العودة من مصر ، فهاتان الشهادتان صالحتان لمدّة شهرين من تاريخ مغادرتي ، أتقدّم بإحداهما إلى السفارة الأمريكيّة بالقاهرة لتسهيل أمر مغادرتي مصر، وأتقدم بالأخرى إلى سلطات مطار جون كينيدي عند وصولي الولايات المتّحدة الأمريكيّة... صرت أتعجّب ..! كيف تمنح أمريكا علماءها مثل هذه المصداقيّة ..؟ فتتنازل لهم عن سلطة سياديّة من أجل تسهيل جذب الأجيال الواعدة من بعدهم. أرجأت موعد سفري مرّتين، وأخطرت إدارة المستشفى بذلك في كل مرّة، فكانت تستجيب ولا تمانع . كان العمل الحر مجزياً في اجازات نهاية الأسبوع حتى أنني فكّرت في البقاء لبضعة أشهر أتفرغ فيها لهذا العمل لادخار بعض المال.. لكن تيّار هذا العمل كان جارفاً ، فآثرت عدم الانخراط فيه وإلا أغواني المال عن العودة أو للتأجيل الطويل ، وصرت أشحذ همّتي وهمّة زوجتي لسرعة تحديد يوم المغادرة .

توالت أحداث مقلقة منذ الوصول إلى مطار نيويورك ، فكانت بداية لسوء رحلة العودة من أولّها إلى آخرها . كان عدد الصناديق الكرتونيّة والحقائب التى أنزلتها من فوق حامل الحقائب الآلى بصالة المطار هائلاً . .إذ افترَشت مساحة كبيرة من أرضها ، ومع طول بقائنا كدنا نختنق من عادم الطائرات على أرض المطار ونتفنّن فى حماية ابنتينا خاصة الرضيعة منهما . . كما كانت أحوال الجو خارج صالة المطار بالغة السوء من تساقط الثلوج والتيّارات العاصفة .

إستبد بنا العجز عن التفكير أو التحرّك فقد كان من المفروض أن يقابلنا متعهد طلباتنا بصالة الوصول ، قمت بالاتصال به هاتفياً فاعتذر عن الحضور ونصحنى باستئجار سيارة نقل صغيرة أقودها لإحضار أشيائنا إليه أو طلب شركة نقل ، أعطانى اسمها ورقم هاتفها وموقع إيداع أشيائنا فى الميناء حيث سفينة الشحن التى ستحملها . كنت أتميّز غيظاً وحنقاً منه وأنا لا أعرف شارعاً فى تلك المدينة المخيفة وجوّها المرعب هذا ، ونحن فى أقصاها وسط مطار لا نعرف موقعه والثلوج تغطى الشوارع والأرصفة ، فآثرت السلامة بالبقاء حيث نحن . كان أسلوب محادثته الذى أثار حنقى بسيطاً هادئاً وكأنه يؤدى عملاً روتينياً تلقائياً لا يبعث على الحنق أو توّتر الأعصاب . . أمّا عن نفسى فكنت متوتّراً متهيّجاً ، وكنت أسائل نفسى لماذا نتناول فى حياتنا بعض المواقف بصورة وكأنها معقّدة صعبة الأداء . . ؟ ولِمَ لا أصدق قوله من أن الأمر أسهل وأبسط مما أتصوّر . . ؟ فلكل شيئ طريقة موضوعة لإتمامه و بمن يؤديه على الوجه الأكمل .

إتصلت بشركة النقل ولم تستغرق المحادثة أكثر من دقيقتين فحَضرت عربة النقل بعد ربع الساعة ، أخبرنى السائق أن مهمّته هى توصيل الأشياء إلى مكانها - دون مصاحبتى له - وأن بضائعنا ستُخزّن ونُحَاسب على ما تشغله من مساحة بالقدم المرّبع عن كل ساعة من الزمن . . حسبتها إلى موعد إقلاع سفينة الشحن فأجمَلت بضع آلاف من الدولارات . . صرفت السائق الذى لم يطالب بأية أتعاب . . عدنا إلى اللا تفكير واللا حركة نكافح رائحة عادم الطائرات التى توالى هبوطها على أرض المطار ، وانهالت حقائب ركابها على صالة الوصول . .

فجأة . . أرسَلَت إلينا السماء ملاكاً أسمر اللون فى ثوب شرطى زنجى أمريكى، يشبه فى حركاته الهادئة وورع مشيته أئِمّة المساجد الصغيرة فى شوارع مدننا عند ذهابهم للصلاة . . صار يتجوّل بين البضائع، ويدّق بعصاه كل حقيبة وصندوق، ثم تَطلّع إلى أشيائنا وقرأ على إحداها قائلاً " إبراهيم . . ؟ هذا اسم مسلم . ." فهتفت " نعم نحن إبراهيم " قال "فما أمركم؟ . ." فأخبرته بالأحداث منذ وصولنا، فاستفسر إن كنت مازلت أحتفظ "بكوبونات" الحقائب، فامتدت يداى الاثنتان فى تلقائيّة سريعة إلى جيوب سترتى ومعطفى، فخرجت الكوبونات فى قبضة يدى . . أحاط يدّى بيديه الإثنتين كأنه يحميها من الضياع قائلاً " مادمت أنك لم تسلّمها فمن حقّك أن تحفظ سلطات المطار حقائبك، إلى أن تقرّر استلامها" وأشار إلى أحد العاملين على نقل الأشياء بسيارة صغيرة داخل صالة المطار فجمعها إلى أحد الأركان ، ووضع حولها قوائم معدنيّة أوصلها بشريط ملون وانصرف . إتجه الشرطى إلينا بقوله " يمكنكم الآن الانصراف" . .

إبتلعنا ريقنا . . وحمدنا الله وغادرنا صالة المطار إلى أقرب سيّارة أجرة على الرصيف لتنقلنا إلى الفندق . كان موتيلاً صغيراً يقع على حافة بحيرة تجمدّت مياهها حول قواربها الصغيرة ، فكان منظرها يبدو لنا غريباً . . كنت أسير وابنتى فوق الجليد بمنتهى الحرص ، أقبض بيدى على يدها بقوة ، وفى إحدى المرّات انزلقت قدماها فطارت فى الهواء وسقطت بشدة وتورّمت جبهتها، وكان ذلك من سلسلة الأحداث السيئة التى صاحبت رحلة العودة، تلاها انتهاء لبن رضاعة المولودة - الشحيح الوجود - والذى يناسب هضمها، فكنت أستقل سيارة أجرة أتنقل بها بين الصيدليّات قفزاً فوق وبين تلال الثلوج المتراكمة على جانبى الطريق .

طلب وكيلنا الحضور إلى عنوانه الذى أوصلتنى إليه سيّارة أجرة، وكان مقره مستودعاً للبضائع واسع المساحة ملحقاً بمنزله الصغير ، سلّمته كوبونات الحقائب وأحضرت إلى الموتيل بعض قطع الأدوات المنزليّة الثقيلة لوضعها فى حقائبنا . . فى موعد إقلاع الطائرة اتجهنا إلى المطار وعند الميزان قررنا تأجيل السفر ثلاثة أيام إلى الرحلة التالية، لثقل القطع الحديديّة والارتفاع الباهظ فى أسعار شحنها بالطائرة . . عدنا إلى نفس الموتيل وطلبت منه الحضور لوضعها مع باقى الأشياء التى ستشحن عن طريق البحر .



يمكنكم الآن الإنصراف ..

فى موعد رحلة الإقلاع التالية اكتشفت زوجتى - ونحن بالطائرة - نسيان حقيبة مصوغاتها الاصطناعيّة التى تعتزّ بها، والتى جمعتها طوال مدة إقامتنا التى قاربت الخمس سنوات.. كذلك فقد نسينا معها بالموتيل زجاجات رضاعة المولودة.. أخبرت المضيفة بذلك فطمأنتنا أنها ستتصرّف فى هذا الأمر البسيط.. فكان أن تصرفت أسوأ تصرّف، إذ نقلت كل حقائب اليد التى تحتوى أشياء الرضيعة - وبها لبن الرضاعة - إلى طائرة أخرى يتزامن وصولها مع وصولنا مطار چنيف.. أنذرتها بأنى لا أتحمّل ما سيصيب الركاب النائمين من إزعاج صراخها جوعاً طوال ساعات الطيران الطويلة عبر المحيط، فأعادت إلينا الطمأنينة من أن ذلك لن يحدث.. وفعلاً صارت تطعم الصغيرة بالملعقة غذاءاً من اللبن المخلوط بالماء وقليل من السكر الذى إستراحت إليه، فكانت تستغرق فى سبات عميق، وخالجنى الشك من أنها تضع فى غذاء الرضيعة مخدّراً أو دواءاً مهّدئاً..

طال توقف الطائرة بمطار چنيف، وإذا بقائدها يعلن طلبه مقابلة المصريين من الركاب.. توجهت إلى المقدمة وأخبرنا أننا لن نتمّكن من النزول بمطار القاهرة، وعلينا الاختيار إما بمغادرة الطائرة حيث هى رابضة بمطار چنيف، أو الاستمرار إلى مطار جدّة السعودى أو كراتشى الباكستانى.. وبطبيعة الحال فقد حاولنا معرفة الأسباب.. فلم يصرِّح وبدا لنا أنه غير واثق من طبيعة الأمور، وصار كل فرد من عدد المصريين القليل يطرح سبباً أو آخر. إخترت النزول بمطار چنيف، فجَمعنا أشياءنا ودثَّرنا أطفالنا، وعندما فتحوا باب الطائرة لنزولنا فزعنا وارتدَدْنا إلى داخلها فى الحال إذ كانت أرض المطار مسطّحاً جليدياً تلفّه ظلمة مخيفة وتجتاحه تيّارات عاصفة. آثرنا النزول بمطار جدّة وأقلعت بنا الطائرة إلى حيث لانعلم واستسلمنا لاختيار القدر..

بعد عدة ساعات أعلن قائد الطائرة أنه سُمِح لها بالهبوط بمطار القاهرة.. وكانت قلوبنا معلقة كلما اقتربنا من أرض مصر إنتظاراً للمجهول. حطّت الطائرة بأرض المطار وانتظرنا طويلاً إلى أن شاهدنا سلم النزول يقترب من بابها.. جمعنا حاجياتنا الكثيرة المبعثرة واتجهنا إلى بابها فلم نجد سلّم النزول، إذ كانوا قد سحبوه بعد دقائق وانطَلقْتُ وأنا واقف على باب الطائرة أصيح وسط ظلام دامس فى إتجاه أشباح تتحرّك على الأرض

حتى أرجعوا السلَم، وقامت بيني وبينهم مشادة لسوء تصرفهم فانطلق أحدهم قائلاً "إحمد ربَنا إللى نزلّناك" هكذا.. وكنت أنا الذى يحلم طوال الرحلة باحتضان أوّل مصرى أشاهده على أرض المطار فى اشتياق.. وأن أسجد لله شكراً وأقبّل أرض مصر الغالية.. تلك المشاعر لا يستشعرها إلا من حرّقه الاغتراب عن الأهل والوطن .

لم يكن فى انتظارنا إلا شقيقى وابن عمى إذ استطاعا ركوب بعض سيّارات الخدمة العامة المتجهة إلى المطار مثل عربات الإسعاف والمطافئ وحافلة نقل الموظفين ، ولم يستطع الباقون تكملة الطريق من الإسكندريّة أو من داخل القاهرة.. ولزم عم زوجتى بيته- وهو نائب وزير إحدى الوزارات - وكان يعد لنا استقبالاً بقاعة كبار الزوار. غادرنا المطار بسيّارة أجرة وكان هول ما حدث ظاهراً للعيان.. سيارات مهشّمة.. وقضبان منزوعة.. ومحلات مخرّبة. .وقطارات مقلوبة.. وأعمدة خشبية مازالت ألسنة النار متأجّجة بها.. ونقاط تفتيش.. ورشّاشات وبنادق تندفع إلينا من نافذة السيارة. توقفنا لإنزال زوجتى عند أهلها بالقاهرة حيث كان والدها نزيل إحدى مستشفياتها.. سألتها إن كانت قد نسيت شيئاً.. وسألتنى إن كنت قد نسيت شيئاً.. فقد نسيت السجود بالمطار وتقبيل أرض مصر..!

فى طريقنا إلى الإسكندريّة ناولنى شقيقى جريدة اليوم ، وبها الإعلان عن وظيفتى الجديدة بجامعتى، فحمدت الله وتطلّعت إلى السماء أتصوّر الأمَّ الحنون تفتح ذراعيها لتحتضن أبناءها المخلصين ، وتدمع عيناها جزعاً وحزناً من جحود أبناء لها آخرين، خرّبوا عاصمتها وأشعلوا فيها النيران.. حتى كتابة هذه السطور ، وبعد مضى ربع قرن من الزمان على هذا اليوم المشؤوم لم يطالعنا التاريخ.. هل كانت أحداث الثامن والتاسع عشر من يناير ٧٧ "ثورة حراميّة.." أم ثورة جياع..؟!!

.. تمــت

أكتــوبر ٢٠٠١

المراجع باللغة العربية :

١- چاك دي رينيه : القدس ١٩٤٨ ، ترجمة نبيل سعد، أخبار اليوم قطاع الثقافة (٢٠٠٠)

٢- د. حافظ يوسف : مسيرة العالم الطويلة إلى التشريع الإسلامى ، الأهرام للتوزيع (١٩٩٧)

٣- د. عبد الوهاب المسيرى : اليد الخفية (دراسة فى الحركات اليهودية الهدامة والسرية) الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٨) .

٤- عرفه عبده على : يهود مصر منذ عهد الفراعنة حتى عام ٢٠٠٠م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢٠٠٠).

٥- كارين ارمسترونج : القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث ، ترجمة : د. فاطمه نصر، و د. محمد عنانى ، كتاب "سطور" الرابع (١٩٩٨).

٦- محمد حسنين هيكل : خريف الغضب ، شركة المطبوعات للتوزيع - بيروت (١٩٨٥)

٧- د. محمد عمر : يهود الدنمه ، مؤسسة الدراسات التاريخية.

٨- د. مصطفى الشكعه : اسلام بلا مذاهب ، الدرا المصرية اللبنانية (١٩٩٧).

٩- مناحم بيجين : التمرد ـ قصة الأرجون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٧٨).

المراجع الأجنبيـة :

1- International Internet.

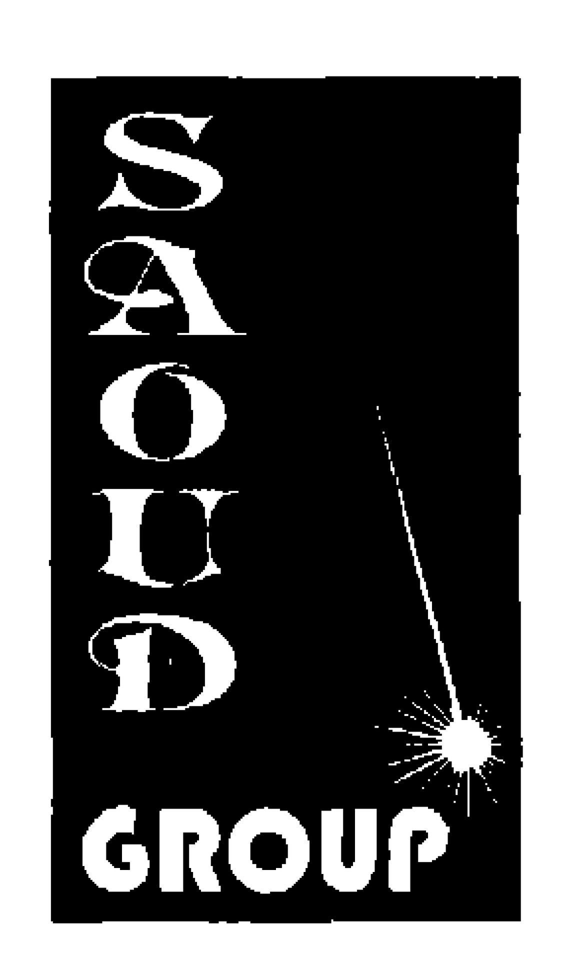
2- Grolier Academic Encyclopedia, Grolier International, USA (1986).

3- Grolier Incorporated : Lands and Peoples (Geography), USA (1981).

4- The New Webster Encyclopedic Dictionary. Pub: Consolidated Book, Chicago - USA.

الفهرست

- تصميم وتنفيذ الغلاف : أشـــرف خطـيب
- إخـــراج فنـــى : سعيد محمد خليفة
محمـــد يســرى
- الرســوم الداخليـــة : رضـا عـبد العظيم



مطبعـــة المعتـــز
ت : ٠٣/٤٢٥٢٥٧٣ الإسكندرية

يطلب من
وكالة الأهــرام للتـــوزيع

رقم الإيداع : ١٥٣٩٣ / ٢٠٠١



لقد كان حافزاً قوياً هذا الذى دفعنى إلى كتابة هذه السطور..

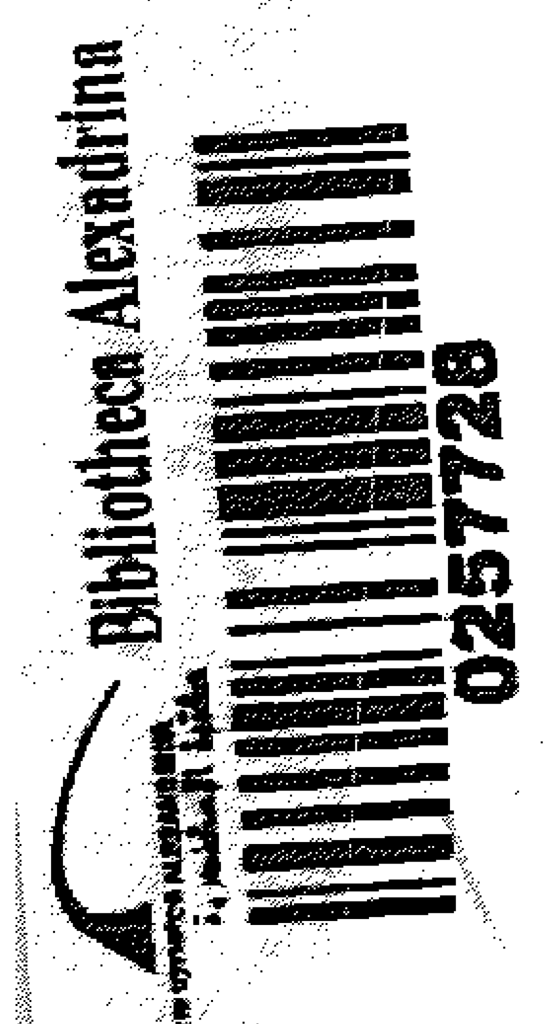
كيف لا أكتب؟.. وقد فقدت أحب الناس إلى قلبى شهيداً

كيف لا أكتب؟.. وهذه القلاع الطائرة لاتكاد تغادر الأرض من عظم ثقلها، تحمل الموت والدمار لأهلى وبنى وطنى . من كل ولاية أمريكية ويكاد يزغرد مقدم التليفزيون فرحاً وشماتة.

كيف لا أكتب؟.. وأنا أشاهد القائد الامريكى يشرح ويخطط وسيلة اختراق القناة من الثغرة التى صَوَّرَتْها أقمارهم التجسسية

كيف لا أكتب؟.. ووزير حربهم يقف بجانب رئيسة وزرائهم يشير بيده إلى الناحية الأخرى من القناة قائلاً "نحن ذاهبون إليهم لتكسير عظامهم"

كيف لا أكتب؟.. واحداهن تشير بسبابتها إلى صدرى قائله "أنت الذى وضعت القنبلة على سلم المستشفى الخلفى".



السعر ٨ جنيهات